جبرا إبراهيم جبرا

شارع الأميرات

فصول من سيرة ذاتية



دار الآداب

جبرا إبراهيم جبرا

شارع الأميرات

فصول من سيرة ذاتية

تقديم: عبد الرحمن منيف

دار الآداب - بيروت

شارع الأميرات

فصول من سيرة ذاتية

جبرا إبراهيم جبرا/مؤلّف فلسطيني
الطبعة الأولى لدى دار الآداب عام 2007
ISBN 978-9953-89-004-3

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

إطلالة على شارع الأميرات

I

دوّن جبرا إبراهيم جبرا في كتابين مستقلين، وتحت عنوان السيرة الذاتية أو أجزاء منها، قسماً من سيرته الذاتية. وإذا كان كتاب «البئر الأولى» قد تناول الطفولة، حتى الثالثة عشرة من عمره، فإن الكتاب الثاني، وهو «شارع الأميرات» كُرس، بشكل أساسي، إلى الفترة الأولى من إقامته في بغداد، بعد النكبة الفلسطينية، واقتصر هذا الكتاب على سنة أو سنتين من حياته الجديدة، مع ارتدادات سريعة إلى حياته في فلسطين، بعد «البئر الأولى»، ثم لقطات من حياة الدراسة في انكلترا.

إلى جانب هذين الكتابين، بث جبرا مقداراً غير قليل من «السيرة» في ثنايا ما كتب، أولاً في الروايات، ثم في الكتب النقدية. وهذا المقدار يحتاج إلى جهد دراسي لجمعه ثم مقاطعته بمعلومات أخرى، تمهيداً لتوثيقه، لأن مجموع ذلك يلقي الأضواء على سيرة هذا المبدع الكبير، ويضع كامل السيرة في سياق منسجم ومتناسق.

وإذا كان الكثيرون قد فتنوا وفوجئوا بما كتبه جبرا في «البئر الأولى»، وتمنوا أن يواصل كتابة سيرته الذاتية، حتى الأيام الأخيرة، بنفس الطريقة، نظراً لغنى هذه السيرة وعذوبتها وجمالها، ولأنها تعكس، في جوانب مهمة، تاريخ مرحلة، وحياة أكثر من جيل، في أكثر

من مكان، فإن ازدحام حياة جبرا، وتنوع اهتماماته ومشاغلة، ثم تلك الرغبة التي لا تتوقف في اكتشاف الحياة والفن، وعيشهما بعمق، وأيضاً اكتشاف أساليب جديدة في الكتابة، جعله يقدّم نموذجاً آخر، وهو يتعامل مع هذه السيرة، خاصة وأن هذا اللون من الكتابة لم يدخل، بعد، في صلب اهتمام الأدب العربي المعاصر إلاّ على شكل ومضات خجولة ومتباعدة.

كان وراء افتتان الكثيرين، ومفاجأتهم، في «البئر الأولى» : الجرأة في التناول، ثم إعادة اكتشاف هذا المبدع في مراحل تكوينه الأولى، مقارنة بالصورة التي كان يراد وضعه في إطارها بشكل تعسّفي. هكذا بدّد جبرا الكثير من الأوهام، وظهر لكل من يريد أن يعرفه معرفة حقيقية شخصاً قُدّ من الفقر، وواجه المصاعب، ومشى حافياً ، بعض الأحيان، وهو يذهب إلى المدرسة. وبالتالي فإن الأوصاف والصور التي كانت تُروّج، ولا تزال، لتصنيف المبدعين، ولعل باعثها، بالدرجة الأساسية، التصنيف السهل أو المتسرّع، خاصة وأن الضجيج السياسي الذي ساد مراحل عديدة في تاريخنا المعاصر، حجب الكثير من الحقائق، أو اعتمد السهل والرائج من المقاييس في التعامل مع القضايا والقامات التي كانت تستعصي على القوالب الجاهزة.

إن الإطلال على عالم جبرا، الفني والمتعدد، في مراحله المختلفة وأماكنه العديدة، يتطلّب جهداً مشتركاً من الذين عرفوه ورافقوه، وأيضاً من الذين يدرسون تاريخ المرحلة والمنطقة، خاصة في جانبه الإبداعي، لأن تدوين هذا التاريخ بمقدار ما يلقي أضواء على جبرا المبدع، فإنه يلقي أضواء هامة على المخاضات الكبرى وترسيمات تلك المرحلة في مجالات إبداعية هامة، تحديداً في الشعر والرواية والنقد التشكيلي، لأن جبرا إبراهيم جبرا يعتبر أحد المساهمين الكبار في إعطاء هذه الحقول الإبداعية ملامح ومسارات معينة.

مهمة من هذا النوع لا تحتمل التأخير، لسبب أساسي: لأن عدداً من الذين رافقوا مسيرة جبرا الإبداعية، وربما منذ بدايتها، لا يزال حياً، ولديه ما يقوله، ويحضر في الذاكرة، الآن، أخوه يوسف وإحسان عباس، ثم تتوالى الأسماء منذ أن وصل إلى العراق: رفعة الجادرجي، البياتي، التكرلي، شاكر حسن، ناظم رمزي، قحطان عوني، مكية، عبدالعزيز الدوري، أحمد صالح العلي، بكر عباس، خالد القصّاب، دنيس جونسون ديفيز، عاصم سلام، مظفر النواب، وآخرون عرفوا جبرا في مراحل متعددة.

هذه المهمة بمقدار ما تتناول جبرا الإنسان والمبدع، فإنها بمثابة المرآة التي نستطيع من خلالها أن نرى الكثير، قبل أن يتقدّم الزمن ويغيب الشهود.

ثم إن المساهمين في الحقول التي أشرنا إليها، أي الشعر والرواية والنقد والفن التشكيلي، لديهم الكثير ليقولوه، سلباً وإيجاباً، عن المرحلة التاريخية، الأمر الذي يساعد على كتابة تاريخ حقيقي للمرحلة، على الأقل في الجانب الأدبي والفني. فإذا تم تدوين هذه الشهادات من خلال الإدلاء بها، سواء على شكل مذكرات أو ذكريات، فإن من شأن هذا، إذا تم، أن يزودنا بكم وافر من المعلومات والوقائع، ويجنبنا الاجتهاد والتقدير، أما بعد غياب الشهود الحقيقيين، ونظراً لعدم وجود التقاليد والوثائق، أو تحريفها والتلاعب بها، فلا بد أن يخلق الكثير من التداخل والتشويش، وبالتالي أن يعاد كتابة التاريخ، في هذا الجانب، وفقاً لرغبات الأقوياء والمتنفذين، أو لأصحاب الأسماء التي تم صنعها وفقاً لمقاييس معينة.

يضاف إلى ما تقدّم، أن روح القبيلة، وبالتالي التعصّب، من جملة صفات العصر العربي الذي نعيش فيه الآن. إذ ان انتساب المبدع العربي

إلى قبيلة سياسية، أو إلى كانتون سياسي راهن، هو الذي يحلّه المكانة أو يعطيه الجدارة. وأي مبدع يخرج عن السرب، أو لا يكون «دخيلاً» لدى أحد هذه الكانتونات، يُحاول تغييبه، أو يصعب تصنيفه، مما يولّد التباساً في قراءة المرحلة، أكثر مما يولد التباساً في قراءة المبدع، لأن ما يتركه المبدع من آثار هي التي تدافع عنه، وتحله المكانة التي يستحقها.

جبرا أحد الذين خرجوا عن السرب، وأكثر الذين رفضوا الدخالة، بالمفهوم القبلي؛ فقد كان، ومنذ أن وطأت قدماه أرض العراق عام ١٩٤٨، جديداً ومختلفاً ، إذ بمقدار ما كان نزيهاً ومخلصاً في خدمة الثقافة التي عاش في ظلها، فإنه لم ينكر ولم يتنكّر، سواء للثقافة الأوسع، أو لجذوره وبداياته الأولى.

ومع أن العراق كان أحد الأماكن القليلة في الوطن العربي الذي يحتفي بكل ما هو عربي، ويستقبل الذين يريدون اعتباره موطناً، إلاّ أن القبائل السياسية، ضمن أفكارها ومقاييسها، لم تكف يوماً عن محاولة اجتذاب الطيور التي خرجت من أسرابها، وأي طير يرفض ذلك يعرّض نفسه لمصاعب وتحديات، لا تطيقها كل الطيور المهاجرة أو المتمرّدة.

جبرا منذ أن وصل العراق كان يقول بجهير الصوت أن العراق امتداد للوطن الذي يحبه ويؤمن به، لكنه ليس بديلاً عن فلسطين، أرض الزيتون، الأمر الذي جعله في منتصف المسافة بين القبائل، وهذا ما سبّب له مقداراً غير قليل من صعوبة التصنيف، وتالياً التقييم.

لا يعني ذلك أن جبرا كان مُحارباً أو مغبوناً، بل كان عصياً على التصنيف، وكان من الصعب وضعه في خانة أو في حيّز ضيق، خاصة في الأقفاص المسبقة الصنع، ليصبح في النتيجة صوتاً أو امتداداً لوضع معيّن، جغرافي أو سياسي، وهذا ما أدّى إلى أخطاء في فهمه، وبالتالي ، تصنيفه.

حتى الإطار الفلسطيني، القبلي، لا مكان لجبرا فيه، تماماً كما هو الحال بالنسبة لمحمود درويش أو إدوارد سعيد. صحيح أن أياً منهم لا ولم ينكر هويته، ولم يتخل عنها، لكن أياً منهم أكبر بامتداده وتأثيره من تلك الكانتوتات التي يُحاول تسويرها ثم تأبيدها، وأيضاً أكبر من تلك التصنيفات التي يراد من خلالها التعرّف عليهم أو التعريف بهم.

ولعل جبرا، بحكم الإقامة ، أكثر الثلاثة، الذي حاول أن يندمج في مناخ بمقدار ما هو خاص فهو عام، ومن هنا فإن آثار إقامته في العراق ولدت صيغة لما يجب أن يكون عليه الإبداع العربي، وغيرت في مسارات فنون معينة، يصعب وجودها لولا السمات الشخصية التي ميّزت هذا المبدع، وفي مرحلة تاريخية بالذات.

إن ذلك، رغم ارتباطه بالسيرة، متعلق بالتاريخ الأدبي والفني لهذه المرحلة ، مما يحتمل ترك الأمر ورهنه بالمستقبل، خاصة وأن جبرا لم يتطرّق، مباشرة، لهذا الوضع، لقناعته ان صنع الأشياء، وتقديم المثل والنموذج، أفضل من الدفاع أو التبرير.

فإذا اعتبرنا أن «البئر الأولى» سيرة ذاتية لمرحلة جبرا الفلسطينية، فإن « شارع الأميرات» سيرة ذاتية لبعض المرحلة العراقية، البغدادية في فترة الخمسينات، بشكل خاص، وفي أحد منعطفاتها الأكثر أهمية وخطورة، وهذا ما يستدعي وقفة لإلقاء حزمة ضوء على مرحلة من مسيرة هذا الإنسان المبدع.

II

كان جبرا مثل أحد معلميه القدامى: سقراط، أحد المشاركين الكبار، لأن «الأفكار تأتيه على إيقاع السير، وتتهادى الذكريات، وتتسارع الخواطر» و «يسعدني أن أقول انني، ومنذ بداياتي، من عشيرة

هؤلاء المشائين. ففي طفولتي وحداثتي، حتى سن الخامسة عشرة، لم أركب عربة أو سيارة إلاّ مرات معدودات متباعدات. وكانت روحاتي وعوداتي إلى الدار والمدرسة على القدمين.»

وشارع الأميرات أحد أجمل الشوارع في القسم الغربي من بغداد، وقد سكن جبرا الشارع القريب والموازي له. و «قامت علاقة حب عميق بيني وبين شارع الأميرات» لأنه «يتميّز بانفتاح معظمه من ناحيته الغربية على امتداد الأراضي المكشوفة التي أنشئت فيها ساحة السباق وملحقاتها، كما يتميّز بمبانيه السكنية الأنيقة على الناحية الشرقية منه، والجزء الجنوبي من ناحيته الغربية. ولئن تظلل اشجار النخيل قسماً من امتداده الجنوبي، فإن معظم رصيفيه مظلل بأشجار اليوكالبتوس الوارفة، وقد علت وكبرت مع الزمن.»

بعد أن توثقت علاقتي بجبرا، ولأني مثله من المشائين، فقد أصبح «شارع الأميرات» المضمار الذي نذرعه ونقضي فيه وقتاً غير قليل. كنا نفعل ذلك في عصاري الأيام المعتدلة، أو في أول مساءات الأيام الحارة. وكنا ننتهي في أغلب هذه المسيرات عند الفنان ناظم رمزي أو عند أحد النطاسيين.. قتيبة الشيخ نوري أو علي كمال بعد أن نكون قد تحدّثنا طويلاً في أمور شتّى ونواصل هذا الحديث أو ما يماثله عند هذين الصديقين اللذين كانا فنانين بمقدار ما كانا طبيبين بارعين.

ما فاتنا من أحاديث، أو ما لم نستكمله في شارع الأميرات، تابعناه لاحقاً في شوارع باريس وحدائقها، في العقد اللاحق، عقد الثمانينات، حيث تعوّد جبرا زيارة باريس خلال ذلك العقد.

كنا في أحد هذين المكانين نقضي ساعات طويلة كل مرة، ولا نعرف كيف يمرّ الزمن أو كيف تتفجّر الأفكار والمشاريع، والتي تبلور بعضها في روايات كتبتها أو كتبها جبرا، بما فيها «عالم بلا خرائط»

روايتنا المشتركة، والتي ما كـان لها أن تكتب لولا ساعات المشي الطويلة، وتلك المناقشـات المتواصلة. كما أن مـشاريع روايات أخرى فكرنا فـيها وخططنا لهـا، وكنا نؤمل أن يسـعفنا الزمن، ويـكون كريماً مـعنا، لكي يسـاعدنا على إنجـاز كل أو بعض مـا كنا نحلم به، لكن الزمن قـادنا في شعاب ملتـوية طويلة، وجاءت بعدها الفواجع، خاصة الحـروب، لتعجّل برحيل جبرا، ولتبقى الأفكار والمشاريع مجرد أحلام عبرت رؤوسنا في شارع الأميرات أو في غابة بولونيا الباريسية!

في أحد عصاري ١٩٧٦، وكنا على موعد لبدء مسيرتنا في شارع الأميرات، رأيت جبـرا متلبثاً ينتظر في الشرفة الأمامـية لمنزله، وكان قد انتهى لتوه من قـراءة « حين تركنا الجسر.» ما كدنا نلتـقي حتى قال لي: «سيكون مشينا هذا اليوم مختلفاً عن أيام سابقة، لأن الخوض في أوحال ومياه المستنقع ليس سهلاً، وأنا منذ الليلة الفـائتة أجد قدمي غارقتين في الأوحال، ولا أتنفّـس إلاّ رائحة الرطوبة والقـصـب... بعد أن انتـهيت من حين تركنا الجسر ».

وانطلقنا للحـديث عن الصيد، تلك الهـواية التي استبـدت بي بعد هزيمة حزيران، إلى أن خفتت ثم تراجعـت بعد أن كتبت تلك الرواية. كان الصيد، بالنسـبة لي، تعويضاً . ومع أن جبرا ليس من هواة الـصيد، فإن علاقـته بالطبـيعـة بكل مكوناتهـا، من أشياء وكـائنات وتقلبـات إحدى العلامات البـارزة في رؤيته وكتاباته، ولعل طفـولته، بالبيئـة والتجارب التي عاشها في بيت لحم، العامل الأساسي في هذه العلاقة إذ كان يتلقى بصدره العاري، أو بملابسه القليلة، تأثيرها ثم أصداءها، وهذا ما نلمسه بوضـوح في «البئـر الأولى» أولاً ، ثم في ذلك الاندماج بالطبـيعـة أثناء إقامـته في انكلترا، حيث الأمطـار والرعود، ثم الغابات والجبـال، وكيف كان يندفع إلى تلك الأمـاكن، ليس من أجل اكتشـافها فقط، بل وللتـفاعل معـها والاندماج فيـها، على عادة بعض الشـعراء الإنكليز الذين أحـبهم

جبرا، وكان من صفاتهم التوحد مع الطبيعة.

وأذكر مرة أخرى، وقد أعطيته «النهايات» ليقرأها، وفي ذات الشرفة الأمامية لمنزله، وقبل بدء المسيرة، طلب أن نجلس قليلاً كي يقرأ لي ما كتبه ليكون على غلاف تلك الرواية. لقد اكتشفت خلال تلك اللحظات شيئين إضافيين: مدى معرفة، ثم تعلّق، جبرا بالبيئة الصحراوية، وثانياً تلك الطريقة الأخاذة في الإلقاء. كان وهو يقرأ تلك الكلمة ينطق بكل جوارحه، تماماً كأي مسرحي محترف، بطريقة الإلقاء، بتجسيد الكلمات وإعطائها قواماً حيّاً، وحتى بوقفاته حين يصمت، الأمر الذي يثير الاهتمام، ويحدد مدى علاقة جبرا بالكلمة.

أما «البحث عن وليد مسعود»، وهي رواية سيرة ذاتية من بعض الوجوه، فقد ترددت أصداؤها مرات عديدة في شارع الأميرات، وكانت لا تزال مخطوطة، بعد أن طلب إليّ جبرا، وإلى توفيق صالح، أن نبدي رأياً بخصوص عدد من الأمور، بما في ذلك الجانب السياسي منها، إذا لم يكن مطمئناً إلى بعض الصياغات، مع الإشارة أن جبرا ضنين بإطلاع أحد على ما يكتب قبل أن يأخذ صيغته الأخيرة، وقبل أن يكون مطبوعاً.

إن حس الناقد لدى جبرا شديد الحضور، بالغ الرهافة، وهذا ما يجعله يقلّب الفكرة، بل وحتى الجملة، قبل أن تحتل مكانها على الورقة، وكان المشي يتيح له أن يناقش ويمتحن حالات واحتمالات عديدة، إلى أن تستقر على الصيغة التي يعتبرها ملبية لما يريد. وهذا ما يجعل كتابته صارمة، دقيقة، مُفكّر فيها كثيراً قبل أن تأخذ الشكل الذي أخذته أخيراً.

ثم هناك صفة أخرى تميّز جبرا، وهي أنه لا يكتب شيئاً مجانياً، بمعنى أن أي شيء يكتبه، فكرة أو مشهداً، أو حتى جملة،في أحد أعماله، قد لا يتوافق، مثلاً، مع السياق الروائي، لكنه يتوافق أكثر مع موضوع نقدي، لذلك لا يتردد في أن يخرجه من السياق الأول ليجد له سياقاً

مناسباً في مكان آخر. وهذا ما يجعل حرفة الكتابة لديه بالغة الإتقان، محددة المعالم، بلا زوائد أو ترهلات، وهذا ناتج عن الحس النقدي الصارم الذي يلزم نفسه به، وتالياً يطالب الآخرين بالتزامه.

كثيراً ما كان حضور الناقد في العمل الفني أحد عوامل كبحه، أي يمنع انطلاقته إلى المدى الأقصى، كما يحّد من انفعال اللحظة، لكن عند جبرا فإن حضور الناقد لا يقيد ولا يمنع، ورواياته شاهد على ذلك، كما أن شارع الأميرات يحفل بما يصطرع في داخله من شجاعة تمكّنه من قول أشد الأمور خفاء، وأكثرها حميمية، لكن دون ابتذال ودون مباهاة.

إن الفنان وهو يسلّم نفسه لعواصف خفية تشتعل في داخله، لا يعرف على وجه الدقة والوضوح ماذا تحمل تلك العواصف، أو إلى أي مكان يمكن أن تقوده. جبرا، رغم الجموح في العواطف والأفكار، لم يستسلم لجنون اللحظة، ولم تغره البروق الخلبية، إذ كان يأخذ نفسه بالشدة، لكن دون كبت أو خوف، ويتعامل مع الكثير من القضايا بصرامة الجرّاح، ولا شك أن هذا وليد حس المسؤولية الذي يحدّد له ماذا يقول أو كيف يقوله.

فإذا كان حجم العواطف والأفكار التي تجتاحه أكبر من أن تستوعبها الرواية، أو لا يرى أن قولها بهذه الطريقة هي الأنسب، كان يلجأ إلى الشعر أو إلى الرسم، وعن طريق إحدى هاتين الأداتين يمكن أن يقول أشياء كثيرة، وقد أشار إلى ذلك بوضوح في مواضع عديدة، وفي شارع الأميرات إضاءات تساعد على «قراءة» جديدة، وربما مختلفة، لكثير من الأعمال التي قدّمها في مجالي الشعر والتصوير.

فالكلمة، رغم عناية جبرا في اختيارها ووضعها في سياق يكاد يكون رياضياً، قد لا تكون كافية، أو لا توصل الشحنة التي يريد أن تصل إلى القارئ، وهذا ما يجعله يلجأ إلى الكثافة، وبعض الأحيان إلى

التجريد، مراهناً على ثقافة المتلقي، وعلى المناخ النفسي الذي يتولّد بفعل التمـاس، وأيضاً اعـتمـاداً على الإشـارات التي يبـثها هنا وهـناك، تاركاً للقارئ أن يعيد تجميعها ثم ترتيـبها ليصل إلى المجال الذي يعتبره أكثر ملاءمة.

إن الشعـر بما يحمل من كثـافة وتلخيص، يمـكن أن يُقرأ بأشكال متنوعة، وتبعـاً لكمٍ غير قليل من العوامل، أي أنه قابل لقـراءات متعددة. وهذه القراءات لا يشترط أن تكون متفـقة أو حتى متقاربة، لأن الصورة الواحدة يمكن أن ترى من زوايا مـتعددة، وأحياناً مـختلفة، ومهمـتها أن تخلق حالة شعورية أكثر مما تشرح أو أن تفسّر.

ولعل اللوحة التـشكيلية، بأسلوب جـبرا، أشد تجـريداً ، وبالتالي أكثـر قابليـة لأن «تقرأ» بأشكال أكـثر تعدداً ، مـقارنة بأدوات التـعبـير الأخرى، وهذا ما جـعله يلجأ إليها كوسيـلة تعبير، ليقول من خـلالها ما يعتلج في فكره وقلبه من عواصف ومـشاعر وأفكار، وقد أحس بالحرية القصوى في « القول» دون خشية من أي نوع.

اللوحة، فـي أحيان كـثيـرة، حوار مع النفس ومع الآخـر، وقد لا تحمل رسـالة من خارجهـا أو إلى خارجها، أي أنهـا محكومة بقـوانينها الداخلية كعمل فني، فإذا حملت رسـائل فهي كإشـارات، وغالباً ما تكون خاصـة، وربما سرية، لكن دون أن تقتـصر عليهـا، أي أن هذه الإشارات ليـست وحدها التي يراد لهـا أن تصل، لأن مبـرر العمل الفني، أي عـمل فني، ينبع من داخله بالدرجـة الأولى، وضمن الشروط والمـقاييس التي تحكمه، وبالتالي تمنحه الجدارة وإمكانية الاستمرار.

حين نضـيف إلى ما تقـدّم علاقـة جبـرا بالموسيـقى، كمـستـمع محترف ذي معرفة، دون ادعاء العزف، وما تحمله الموسيقى من تجريد، مقارنة بالفنون الأخرى، فلا بد عندئذٍ من الافـتراض أن جبرا في لوحاته

وبعض كتاباته استعان بروح الموسيقى ليقول أشياء هامة. أي أن الكثير من أعمال جبرا، خاصة في مجالات الشعر والرسم والرواية، يحتمل عدة قراءات، ويتسم بكثافة لافتة، وأيضاً قابلاً لأكثر من تأويل، وهذا ما يجعلنا، الآن، نتوقف عند شارع الأميرات، باعتباره سيرة ذاتية، ويحمل مقداراً غير قليل مما يمكن تسميته: لوحات من تجربة العمر.

III

الفصول الثلاثة الأولى من شارع الأميرات، تتناول مرحلة دراسة جبرا في بريطانيا، وأية تجارب عاشها. وكيف انتقل من بيئة لأخرى، ومدى التأثير والعوامل التي ساهمت في تكوينه.

فقد كانت تلك الفترة استثنائية من حيث الاستعداد الشخصي لاستقبالها، ومن حيث الظروف التي رافقتها. فإن يصل إلى بريطانيا في بداية الحرب العالمية الثانية، وبعد أن كوّن صداقات وبداية استقرار، جاءت الحرب، باتساعها وامتدادها واستمرارها، لتنتزع عدداً من زملائه إلى جبهات القتال، ولتولّد لديه أحاسيس جديدة: «... بدا كأن الإحساس بالخطر الجماعي، يضاعف من التعلّق بالحياة وأحاسيسها، ولو لذلك اليوم، ولو لتلك الساعة، هذا إذا كان لا بدّ من الموت. لكن الموت، على كل، كان سيقاوم بهذا الحب للحياة، وبهذه الكثافة في التفكير وهذه الحرارة في المشاعر».

هذه الأحاسيس تعتبر مركزية لفهم جبرا، لأن الشعور بدنو الكارثة، أو حتى العيش وسطها بعض الأحيان، يجعله شغوفاً لإيجاد معادل لها أو ما يوازيها، لأن الكارثة يمكن أن تؤدي إلى الهلاك فالعدم، وأحد مظاهر المقاومة عدم الخضوع، مما يستدعي تكثيف الإحساس

بالحياة، أي بالزمن المتاح، ومحاولة اخضاع هذا الزمن، أو ما تبقّى منه، إلى زمن نفسي مليء بالعنفوان والحيوية. لقد تولّد هذا الإحساس لدى جبرا منذ وقت مبكّر نتيجة الشعور بالخطر الذي لمسه قبل أن يضع قدمه على سلّم الباخرة، بسبب ما كان يدبّر ويجري لوطنه فلسطين.

فأن يولد جبرا في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وأصداء المدافع لا تزال تتردّد في الآذان، وأن يعيش طفولة صعبة، ثم يرى الخوف والانتظار في عيون الذين حوله تحسباً من الأيام الآتية، نظراً لما يدبّر لوطنه الصغير. وما أن يشب ويكبر قليلاً حتى تبدأ الاضطرابات تتوالى وتتسع، وقد أصبح الخطر ماثلاً، فيشعر أن كل إنسان مستهدف، ولا بدّ أن يتسلّح ويحارب للدفاع عن النفس وعن الأرض، وأن وسائل الحرب متعددة، بما فيها العلم، وحين تتاح له تلك المنحة الدراسية لانكلترا، بعد أن تأجلت أكثر من مرة، لا يتردد في قبولها، مؤملاً أن يعود من هناك أقوى وأكثر كفاءة، ليستطيع المواجهة وإثبات الجدارة، وهكذا تبدأ هذه المرحلة المليئة بالأفكار والاحلام والاستعداد.

في ظلّ الحرب، وقد اقتربت كثيراً من الجزر البريطانية، التي كان يُظن أن لا أحد يقوى على محاصرتها أو الوصول إليها، وبعد أن يتم سحب الطلبة وإلحاقهم بساحات القتال، يصبح الإحساس بالخطر، وبالتالي الكارثة، قوياً وعاماً. لذلك يندفع جبرا بكل قوته، للاستفادة من كل ثانية، وليجعل الحياة، أي الزمن الباقي، ممتلئاً قبل أن يأتي العدم، خاصة وقد تنبأ لنفسه أنه لن يعيش أكثر من ستة وعشرين عاماً، مثل بعض الشعراء!

وهكذا نجده في هذه المرحلة يغرف بنهم من الحياة، يغرف علماً وموسيقى ومسرحاً، وشتّى أنواع المعرفة، بما فيها الرحلات الخلوية تحت المطر وتسلّق الجبال، واكتشاف الحب والعلاقة مع الجنس الآخر،

ليؤكد، لنفسه بالدرجة الأولى إن مقابل الكارثة فالعدم اللذين يزحفان ويقتربان، هناك عبقرية الحياة بغناها وتنوعها، وهي وحدها القادرة على المواجهة، ومقاومة قوى الكبح التي تريد إلغاء كل شيء، أي الغاء الحياة ذاتها.

ولأنه يعرف ويحسّ بالكارثة التي تحيط به هنا، وتلك التي تنتظره هناك، حين يعود إلى وطنه الصغير، ولا يستطيع أن يبدد الحياة، أي الزمن، بالانتظار، فيلقي نفسه في خضم تجارب وجودية على كل صعيد، لتكون صيغة من صيغ المقاومة أولاً، ثم لتكون سلاحاً، على أكثر من مستوى، لما سيأتي من أيام.

أما بعد أن أنهى دراسته، وعاد إلى فلسطين، فلم يطل الأمر كثيراً حتى وقعت الكارثة الكبرى التي زعزعت كل شيء، ليس في فلسطين وحدها وإنما في المنطقة العربية كلها، وبمقدار ما أصابت جبرا أصابت الكثيرين، أصابت الجميع، وتركت آثارها الزلزالية في كل روح منذ ذلك الوقت وحتى الآن.

كان بإمكان جبرا البقاء في إنكلترا لمواصلة دراسته، كما عُرض عليه بالحاح، لكن هاجس العودة كان يسدّ عليه الدروب، لأن لديه الكثير ليفعله في الوطن، إذ بالإضافة إلى ضرورة المساهمة في تغيير عقل المواطنين، ليتغير سلوكهم، لكي يتصلوا بروح العصر، فإن لديه هواجسه الخاصة في مجال الكتابة، الروائية بشكل خاص. وهكذا عاد ليحاول من خلال التدريس، ثم العلاقات التي كانت له، وأيضاً التي تكوّنت بعد أن عاد إلى الوطن، في إيجاد مناخات تتلاءم وإيقاع العصر، إلاّ أن ما كان يدبّر للوطن الصغير والكبير معاً من الضخامة والخطورة بحيث عصف بكل المحاولات الفردية أو الصغيرة، وجعلها أثراً بعد عين، حيث تجسّدت الكارثة بكل معانيها وأبعادها، وأصبحت الهجرة أحد

الأبواب، وربما الباب الوحيد، لكثيـرين، وكان جبرا من هؤلاء، وألقت به المقادير في العراق.

العراق خـلال تلك الفتـرة، تحديداً بعد كـارثة فلسطين، وربما من أكثـر الأقطار العربيـة، مليء بالتفاعـلات والجيشـان، وتصطرع داخله القوى والأفكار والأحلام، بحثاً عن صـيغ وأشكال جديدة للحياة والفن. وان يصل جـبرا إلى بغـداد في ذلك الوقت، وأن يصـبح جزءاً من البنيـة العضـوية لذلك المخاض الكبـير، هذا التوافق التـاريخي، حيث تتـمازج وتلتقي الشروط ثم تتكامل، قليل الحدوث، فإن حدث تكون نتائجه كبيرة وبالغة الأهمية.

وصول جـبرا إلى بغـداد عام ١٩٤٨، مع بـزوغ الشعر الحـديث، ومع عودة الفنانين التشكيليين الذين ذهبـوا للدراسة في الخارج، ثم هذا المناخ من الحوار والبحث، وأيضاً الاستعداد، جعل البذرة ثم النبتة تلاقي أنسب الشروط للنـماء ثم الازدهار، وكانت مـساهمة جـبرا في كل ذلك أساسية وبارزة.

« شـارع الأمـيـرات» رغم أنه يتناول أحـداث سـنة أو سنتين من سيرة جبـرا العراقية، أو كما يقول في نهـاية ذلك الكتاب: «... ما تحدّثت عنه هنا ليس إلاّ السنة العجائبية ١٩٥١، والسنة الـتي تلتها.» مشيراً إلى علاقته بلميعة، زوجته، وتلك الأوقات الحافلة التي ميّزت هذه العلاقة منذ البداية حتى الختام، فإنه يضعنا في قلب الحدث الأدبي والفني، ويعرفنا على أجواء وشخصيات كان لها تأثير بارز في مسيرة الإبداع في المنطقة كلها، ويرسم طيفاً واسـعاً من الآثار التي احتضنت تلك المرحلة، وأعطت نتائجها فيما بعد.

فالحلقات الفنية ـ الأدبية التي تكوّنت في بدايـة عقد الخمسينات، وكانت تحـفل بالأفكار والأحلام الكبرى ، وضـعت الأساس لما تلاها من

حركات وابـداعات على أكثر من صـعيد ، وساهمت في خلق ذائقـة فنية جديدة. كمـا أن الجمعيات الفنية التي تـكوّنت في ذلك الوقت، وكانت لها رؤيتها، وتالياً إنجازاتها، هي حصيلة لقاءات مجموعة من الفنانين ونقّاد الفن، وقد ساهم المعـماريون في ذلك أيضاً. كما أن ثورة الشـعر الجديد، ويعتبر العراق مهداً لها، بزغت ثم تبلورت في تلك الأجواء.

إن الطيف الأدبي والفني الذي يرسـمه جـبرا لتلك المرحلة شـديد الدلالة، ولولا هذه الإشـارات، بالأسـمـاء والوقائـع والإنجازات، قـد لا نستطيع استيعاب التطورات اللاحقـة، ولذلك تعتبر شهادة جبرا في هذا المجال أساسيـة، خاصة وأن هناك محاولات لإعادة قـراءة المرحلة وفقاً لأهواء ورغبات مختلفة عما كانته فعلاً.

لم يكن جـبـرا، على الأقل فـي هذا الكتـاب، يؤرخ أو يـوثّق، لكن الهـوامش التي حفـل بها الكتـاب تلقي أضـواء على الكثـير من الوقـائع والمناخـات التي كانت سـائدة. وربما ضمـن هذا المنظور تتبـدّى أهميـة إضافـية للسـيرة الذاتيـة، أية سيـرة، لأنها بمقـدار ما يكون الشـخص محـورها، وتتابع مـساراً معـيناً، فهي تتطرّق، بالضـرورة، إلى أحداث وأشـخاص كـثيـرين، مما يساعـد على لملمة أجـزاء الصورة، ثم إجـراء مقارنة ، تمهيداً لإعادة بناء المشـهد ومعرفة الجوانب المختلفة.

عدا عن الوقـائع التي يتميّز بهـا شارع الأميرات، فـإن الجرأة في قول الأشيـاء، وبكثير من الصراحـة، ميزة أخرى، الأمر الـذي لم يتعوّد عليـه أدبنا، حـتى الآن، إلاّ بأمـثلة محـدودة، مما يجـعله قـدوة يمكن أن تحتذى.

الجرأة والصـراحة لا تعنيان تجـريح الآخرين، أو الإنتـقاص من أدوارهم ومساهماتهم، كـما لا تتكئان على النرجسية التـي تعتبر النفس مركز الكون. الجرأة والصراحة هنا تعنيان النزاهة والشعور بالمسؤولية

والخروج من لحظة الانفعال الآنية، وأيضاً رؤية المشهد من كل جوانبه، بحيث يستطاع من خلال السيرة الوصول إلى الحقيقة، أي إلى الصدق، حتى ولو بمنظور فردي. وهنا، كما يقال، تظهر الشجاعة الحقيقية، لأننا، كشهود أو كقرّاء، ليس لنا عواطف مسبقة، وبالتالي ليس لنا مواقف ناجزة ونهائية، وإنما نعتمد على الوقائع والقرائن لكي نحاكم ثم نحكم.

ربما لا يكون هنا مكان أو لحظة التطرّق إلى بعض «مدونات» السيرة الذاتية العربية التي كتبت في العقود الأخيرة، لكن جزءاً منها يعتمد على المبالغة أو النرجسية، وجزءاً آخر لا يرى إلاّ اللحظة التي يعيشها الآن، بحيث تكوّنت صورة خاطئة عن مفهوم السيرة الذاتية من خلال النماذج التي يراد لها أن تشيع.

إن من أهم مصادر غنى السيرة الذاتية: صدق الرواية، والتفاعل مع الآخر، وقيام العلاقات الإنسانية تبعاً لشروط الزمان والمكان؛ ولأنها تكتب، في الغالب، بعد فترة من وقوع الأحداث، فيجدر بها أن تتسم بالنزاهة، والقدرة على إصدار الأحكام بمعزل عن انفعال اللحظة، أو حساب الربح والخسارة.

وأعتقد أن جبرا ابراهيم جبرا، في شارع الأميرات، قدّم شهادة صادقة ونزيهة، إذ قال الكثير عما يعتلج في القلب والفكر، وقدّم نماذج جريئة، كما صوّر مرحلة كاملة بكل ما فيها من أفراح وأحزان وهزائم، أما ما يحزّ في النفس فذلك الفراغ الذي خلّفه بغيابه، في الوقت الذي كان عنده الكثير ليقوله... في السيرة وفي شؤون أخرى.

عبدالرحمن منيف

مقدّمـــة

حين فكّرت في وضع هذا الكتاب، كنت استجيب لطلب صديق لي يرأس تحرير مجلة اسبوعية رائجة، اقترح أن أكتب له عدداً من المقالات أتحدث في كل منها عن تجربة من تجارب العمر. ولذا استحضرت من ذاكرتي أحداثاً أروي تفاصيلها كحكايات من حياتي - وأية حياة لا تملؤها الحكايات الممتعة والمهمة، إذا عرف صاحبها كيف يرويها؟ ولم أبدأ بالحكاية الأولى إلاّ بعد أن وضعت قائمة، ولو قصيرة، بعدد من الأحداث الشخصية التي رأيت أنها تجارب دالّة، ويمكن وصل بعضها ببعض، فتكون في النهاية نوعاً من السيرة الذاتية.

كان كتابي «البئر الأولى» قد صدر يومئذ، وأدهشني ما لقي من صدى لدى القرّاء الذين راحوا يطالبونني بالاستمرار به - إذ كنت قد توقفت فيه عند بلوغي الثالثة عشرة من عمري، شاعراً أن طور المراهقة وبداية النضج لا بدّ لهما من خطة أخرى في السرد والمعالجة.

فوجدت أن «الحكايات»، إذا جعلتها في تسلسل زمني معقول، ستحقق بعضاً من غايتي. غير أنني في ذلك الوقت بالذات أُغريت بكتابات أخرى كانت تُلّح عليّ، ولا تخلو من وقائع ومواقف حياتية وفكرية تطالبني باستيضاحها وبلورتها على الورق. كما أنني شُغلت بأسفار ممتعة وندوات عربية ودولية أحسست بأن في مساهمتي فيها استمراراً لمحاولتي إكمال هذه السيرة الذاتية. ولم تكن روايتي «يوميات سراب عفّان»، ومقالاتي في «تأملاتٍ في بنيانٍ مرمري» و «معايشة

النمرة، وأوراق أخرى»، وحواراتي في «الاكتشاف والدهشة» - وهي التي جاءت جميعاً بعد «البئر الأولى» - إلاّ استكمالاً من نوع ما، بصورة غير مباشرة، لهذه السيرة.

غير أنني كنت أعي أن ثمة مرحلة لم يوفَ حقُّها، وعليّ أن أحاول استرجاعها، على صعوبة الخوض في كامل تفاصيلها : مرحلة مطلع الخمسينات التي جئت فيها إلى بغداد، وإذا بها المنعطف الأكبر في حياتي بكل معانيها، الخاصة والعامة في آن معاً.

وفجأة أدركت أن سنة ١٩٥١، وهي السنة التي التقينا أنا ولميعة في مطلع ربيعها، والأشهر التي تلتها، كانت فترة أحداثٍ وتواشجات في علاقاتي الشخصية بدت لي، بعد هذا العمق الزمني، مدهشة، عارمةً بروعاتها ومؤشرّاتها، التي انسحبت على بقية سنوات الخمسينات - وهي التي يذكرها الكثيرون اليوم ببغداد وكأنها، في تطلّعاتها الإبداعية وزخمها الاجتماعي، عصر ذهبي يحاولون تلّمس سحره قبل أن يتلاشى، وهو يتماثل في الذهن كحقبة من أغنى حقب المجتمع العربي المعاصر.

وهكذا جاء الفصل السادس من هذا الكتاب، لأتحدث فيه عن البعض فقط مما يمكن التّحدث فيه، والحياة ما زالت تتوالد كل يوم حكاياتٍ وروعاتٍ جديدة تأخذ منا النفس، والعقل، والقلب، ولا نعرف معها أين نبدأ بالضبط وأين ننتهي. أو أننا نعرف معها أنها تبدأ كل مرة، ولا تنتهي.

جبرا ابراهيم جبرا

حيّ المنصور، بغداد

١٨ اذار ١٩٩٤

الفصل الأول

الرحلة الأولى

الرحلة الأولى

كنت في التاسعة عشرة من عمري يوم وصلت إلى بور سعيد، بعد رحلة ليلية طويلة في القطار من مدينة يافا. وكانت تلك أول مرة أخرج فيها من بلدي إلى آفاق العالم العريضة. مليئاً بالحماس لكل ما يثير فيَّ العين والذهن.

أعلنت انكلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا يوم ٣ أيلول ١٩٣٩ - وبذلك بدأت الحرب العالمية الثانية، وذلك بعد نهاية الحرب العالمية الأولى باحدى وعشرين سنة فقط.

ويوم أُعلنت، كنت مع علي كمال (الطبيب النفساني فيما بعد) في القدس، نتسقّط الأخبار من المذياع. فتصورت اندلاعها في كل مكان من أوروبا في اسبوع أو اسبوعين، وأيقنت أن فرصتي للسفر إلى انكلترا في بعثة دراسية قد ضاعت دفعة واحدة. وكنت قد هيأت نفسي لها طوال ما يقارب السنة، أعلّم في مدرسة ابتدائية كئيبة، وأقضي بقية وقتي في المطالعة والكتابة والترجمة، وأعالج عينيّ علاجاً أليماً تخلّصاً من الرمد الذي كان العائق دون سفري قبل ذلك بسنة، حتى شفيت.

ولكن المسؤولين في «دائرة المعارف» في القدس، بعد أيام قلائل، طمأنوني بأن البعثة، رغم نشوب الحرب، ما زالت قائمة إن انا كنت مستعداً للسفر. وتصوّرت القنابل وهي تنهمر كالمطر الماحق على المدن الانكليزية والاوروبية ، مما جعل والديّ يصرّان على ضرورة رفضي السفر، إلى أن تنتهي الحرب. غير أنني لم أكن خائفاً. وأصررت على

السفر، وقلت : «في ويلات هذه الحرب المحتملة، ستكون حالي حال مئات الملايين من الناس. أنا لست أفضل منهم!»

وحدها أمي لم تقتنع بهذا المنطق، واستمرت في اعتراضها، وبكت. ولكنها حين وجدت أن أبي واخوتي وجدّتي كفّوا عن مقاومتي، رضيت مكرهة بما عزمت عليه، وتوقفت عن البكاء.

وعن طريق مكتب توماس كوك رتبت دائرة المعارف السفر إلى انكلترا لي ولاثنين آخرين من الطلاب، هما حلمي سمارة، وكان يصغرني بحوالي سنتين، وحامد عطاري، وكان يكبرني بثلاث سنوات. وكلنا أصلاً من خرّيجي الكلية العربية بالقدس، تلك المؤسسة المدهشة التي كانت سلطات المعارف تجمع فيها الفتية المتفوقين في المدارس الحكومية في فلسطين كلها، ابتداءً من سن الخامسة عشرة، فيدرسون فيها سنتين أو ثلاثاً على أساتذة قديرين باشراف عميد من أبرز من أنجبت فلسطين من مفكرين، هو الاستاذ أحمد سامح الخالدي، ليتخرجوا معلّمين أو طلاّب بعثات إلى الجامعة الامريكية ببيروت أو جامعات انكلترا - إذ لم يكن في فلسطين كلها يومئذ جامعة واحدة.

وكان منهاج الرحلة أن نذهب بالسيارة من القدس إلى اللد، ومنها نستقل القطار إلى يافا، وهو الذي سيحملنا منها في رحلة الليل إلى رفح فالقنطرة، ومنها إلى بور سعيد التي نصلها عند الفجر. وبعد يومين أو ثلاثة في بور سعيد، نركب سفينة يابانية تدعى «سوا مارو» تحملنا إلى نابولي فمرسيليا، ثم بوغاز جبل طارق، وبعده نصعد شمالاً في عباب المحيط الاطلسي، ثم نمخر مياه خليج بسكاي المشهورة بهياجها، إلى

القنال الانكليزي (بحر المانش) ثم إلى دوڤر، فلندن، حيث نتوزع كلٌ إلى مدينته الجامعية.

وقد اخترنا لسفرنا سفينة يابانية عن قصد، لأن اليابان كانت ما تزال محايدة في الحرب - كما كانت إيطاليا لم تدخلها بعد - وللسفن اليابانية أن تدخل أي ميناء تشاء. وكنا نعلم أن ذلك لن يمنع رحلتنا الخريفية من التعرّض لضروب من المخاطر خلال ما يزيد على خمسة وعشرين يوماً من حركة وابحار، ومجابهات للمجهول.

ولم ننتظر طويلاً قبل أن نفاجأ بالمجابهة الأولى على مرأى من مهندس فرنسي دخل التاريخ المصري، وبالتالي العربي، من بابه العريض في اواخر القرن الماضي : فردناند دو لاسبس.

ففي يومنا الأول في بور سعيد، ذهبنا إلى فندق قديم، ونحن قلقون على حقائبنا - على هزالها - لكثرة ما أوصانا الأهل والصحب بالعناية بأمتعتنا، خوفاً من النشالين والنصابين الذين زعموا أنهم ينغلون في موانىء البحر الابيض المتوسط، والذين سيحاولون حتماً استغلال براءتنا وجهلنا بأمور السفر. ولكننا لم نلق عند وصولنا إلاّ المتصايحين الكثيري الدعابة والنكتة، المعلنين عن فنادقهم، الذين يكادون يختطفون النازلين من القطار خطفاً في سيارات اجرة تنتظرهم، ليقلّوهم إلى حيث يريدون. ولم نعترض على ذلك، ما دمنا في النهاية وجدنا مستقراً لنا في غرف من نوع ما - رطبة، بائسة، ولكن بوسعنا أن نتحملها ليلتين أو ثلاثاً ريثما تحضر الباخرة «سوا مارو».

وأنا في الواقع لم أقلق كثيراً على حقيبتي، لأنها كانت صغيرة،

ومحشوة بالكتب والاوراق ، وكنت واثقاً من أن أحداً لن يعبث بمحتويات كهذه لا تغري إلاّ أناساً من أمثالي وأمثال زميليّ الاثنين. (عندما عدت من انكلترا بعد ذلك ببضع سنوات، وشحنت امتعتي على حدة في عدة حقائب، وصلت الحقائب كلها ، ولكن بعد أن أُفرغت من كل ما فيها من ثياب : أما ما فيها من كتب - وكانت بضع مئات - فلم تمسّه يد، اللهم إلا كتاباً واحداً لرابليه، لستُ أدري كيف أُغري السارق به!)

وأسرعنا ثلاثتنا بمغادرة الفندق ، لنهيم على وجوهنا في شوارع بور سعيد، ونجلس في مقاهيها . وفي اثناء الغداء في احد المطاعم، أخذنا نستعرض تاريخ المدينة بقدر ما تسعفنا الذاكرة. وكنت قبل أيام في القدس، تهيؤا للفترة التي سنقضيها في بور سعيد، قد راجعت تفاصيل كثيرة عن حفر قناة السويس، وهي التي أوحت بتأسيس هذا الميناء في عهد الوالي سعيد باشا، الذي أُطلق اسمه على المدينة. واكتشفنا اننا، يوم وصولنا، نكاد نستطيع الاحتفال بعيد ميلاد قناة السويس السبعين بالضبط : فهي قد افتتحت باحتفالات نادراً ما عرف التاريخ مثلها ترفاً وروعةً وإسرافاً، في أوائل اكتوبر عام ١٨٦٩، على يد الرجل الذي خلف سعيد في ولاية مصر، الخديوي اسماعيل باشا.

وكان اسماعيل آنئذ في عنفوان رجولته وهو على عتبة الأربعين من عمره، واراد أن يجمع ملوك وامراء أوروبا في مهرجان الافتتاح، ليعلن للعالم أن مصر ما عادت جزءاً من أفريقيا، وأنها منذ ذلك اليوم قطعة من اوروبا. ولكي يؤكد قدرته على استقلاله عن الأستانة، لم يدع إلى الافتتاح أحداً يمثل السلطان عبد العزيز، رغم حبل السرّة الذي كان لا يزال رسمياً قائماً بين الخديوي والصدر الأعظم.

وتوجهنا بعد الغداء نحو الميناء، والبحر يجتذبنا إليه، ودلّنا البعض على مكان نستطيع فيه أن نستقلّ قارباً يأخذنا إلى صدر القناة، حيث سنرى أيضاً نصباً تذكارياً كبيراً هو تمثال فردناند دو لاسبس، الرجل الذي كان بحذقه وسحر اسطورته الحية، قد أقنع الوالي سعيد باشا بأهمية حفر القناة التي ستجمع بين بحرين واسعين ، محدّثا إياه عن الرؤيا التي ظهر له فيها قوسُ قزحٍ عظيم يجمع بين الشرق المضيء والغرب المحمّل بالغيوم. فكلّفه سعيدٌ بتحقيق تلك الرؤيا، فصمّمها وهندسها ونفذّها بعبقريته . واستغرقه ذلك خمس عشرة سنة من العمل المتواصل، بدأت بسعيد، وانتهت بابن أخيه اسماعيل (ابن ابراهيم باشا) الذي كان أول من لُقِّب بالخديوي، وذلك قبل افتتاح القناة بسنتين اثنتين.

ووجدنا قارباً صغيراً، له شراع واحد - وتذكّرنا اغنية محمد عبد الوهاب عن «الفلوكة والملاّح»، وطلب الملاّح «عشرة صاغ» ليجذّف بنا في نزهة بحرية باتجاه القناة ومهندسها الفرنسي. ورضينا، ونزلنا إلى قاربه فرحين بجولة تجمع بين روعة البحر وروعة التاريخ معاً، والشمس تملأ الفضاء الفسيح، وتتراقص اشعتها وتتكسّر على الأمواج الرخيّة .

وإذ راح الملاّح يجذّف بقوّة ويسر، ويتمايل بنا القارب هيّناً مسترسلاً، استعرضنا في حديثنا المزيد من تاريخ القناة. لقد كان همّ الخديوي اسماعيل أن يثير إعجاب الدول الأوروبية بما حقق، وبخاصة إعجاب فرنسا لعلّها تكون سنداً له فيما يساوره من طموحات سياسية. وكان يهمه ان يحضر الافتتاح الامبراطور نابوليون الثالث وزوجته يوجيني. ولكن الامبراطور كان مريضاً فاعتذر، وجاءت الامبراطورة وحدها بأبهى حللها وزينتها، وهي ما زالت على قسط كبير من الجمال

رغم تخطّيها الأربعين. وكان للمهندس دو لاسبس دوره في اقناعها بالمجيء لأنه أصلاً من أقربائها، وكلاهما من عرق اسباني . وقد همّها أن تجيء إلى مصر لكيما تلتقي فيها بضيف كبير آخر هو امبراطور النمسا والمجر، مؤمّلة أن تبعده عن المانيا ليتحالف مع فرنسا إزاء الخطر الألماني الذي كان بسمارك في تلك الآونة يتهددها به - والذي تحقق فعلاً بعد عودة الامبراطورة إلى باريس بأشهر قلائل، حين دفعت زوجها إلى إعلان الحرب على ألمانيا، وهي الحرب الخاسرة التي نكبت فرنسا، وأدت إلى إنهاء عهد نابوليون الثالث وامبراطورته الحسناء، وفقدت فرنسا عندها اسم «الامبراطورية»، كما فقدت الألزاس واللورين لقرابة نصف قرن من الزمان.

وذكرنا الكثير من غرائب ذلك الافتتاح التاريخي المذهل، بما فيها القصور الاثنان والأربعون التي بناها الخديوي لضيوفه اللامعين، ولا سيما القصر الكبير الذي شيده خصيصاً لنزول يوجيني على شاطىء النيل في القاهرة (وهو الذي طُوِّر قبل سنين إلى «فندق ماريوت») ، ودار الأوبرا التي اراد افتتاحها بأوبرا يلّحنها خصيصاً أكبر موسيقي إيطالي في ذلك العهد، جوزيبي فيردي، حول موضوع مصري قديم، بعنوان «عائدة». ولكنها لم تحضر في الوقت المقرّر، فقدّم فيردي عوضاً عنها اوبرا «ريغوليتو» ، وموضوعها مستقى من رواية لفكتور هوغو. وكان من عقابيل تلك الحفلات العجيبة التي اثقلت كاهل مصر بالديون الباهظة، عزل اسماعيل نفسه بعد عشر سنوات، واحتلال بريطانيا لمصر في مسلسل من الأحداث يكاد اليوم لا يُصدَّق!.

غير أن الذي ركّزنا عليه في حديثنا نحن الثلاثة، وزورقنا المتهادي على الموج يدنو بنا من نصب دو لاسبس، كان فظاعة المهندس الكبير،

سواء بموافقة الخديوي أو بدونها، في سَوْق عشرات الآلاف من المصريين في أعمال الحفر كالعبيد. كان عليهم أن يعملوا سخرةً، دون مقابل، فيما عدا القليل من الطعام إبقاءً على طاقتهم في متابعة الحفر، في منطقة موبوءة رهيبة، تتداخل فيها الصحراء والأراضي السبخة والمستنقعات، بحيث مات الآلاف منهم من المرض والإعياء، والسنوات تتوالى. وطرحنا عندئذ ذلك التساؤل الذي يطرحه الشباب دائماً عندما يبدأون بمجابهة قضايا التاريخ الكبرى ، وما تحمل في ثناياها أحياناً من شر وجرائم بحق الانسانية يبقى مقترفوها بمنجى من العقاب : هذه المنجزات الهائلة التي ستسميها اجيال البشرية بعجائب الدنيا، هل لا بد لها من مثل ذلك الظلم وتلك القسوة لتحقيقها؟

كنا نتأمل التمثال الشاهق على قاعدته الضخمة، ونعلق بما يعنّ لنا، والملاّح يجذّف على مهل غير آبهٍ لما نقول . وذكر أحدنا أن دو لاسبس أضاف إلى مهرجان الافتتاح فرحته الخاصة بزواجه مجدداً، وهو في الرابعة والستين من عمره، من فتاة في ميعة الصبا في الواحدة والعشرين من العمر! والطريف أنه، بسحر ما، أنجب منها أحد عشر ولداً، بالتمام والكمال، قبل أن يموت عن عمر طويل . هكذا يتميّز العباقرة في كل شيء، حتى في طاقتهم الجنسية!

في تلك اللحظات انتبهنا إلى زورق بخاري يقترب منا، وقد كتب على جانبه بالعربية والانكليزية «خفر السواحل» . مرّ بنا أولاً مرور الكرام، ولكن بعد دقائق رأيناه يستدير ويعود، ويقف أحد الخفراء على الجانب المحاذي لقاربنا، ويصيح من خلال بوق وضعه على فمه :

- يا حاج! مين دول اللي معاك؟

فأجاب الملاّح بأعلى صوته :

- دول شوام يا بيه!

وجاءنا السؤال من خلال البوق :

- شوام، يعني إيه؟

فأسعفنا نحن ملاّحنا وقلنا له :

- طلاّب عرب من فلسطين.

فكرّر ما قلناه للخفير، وإذا الخفير يقول :

- قلت من فلسطين؟

واستدار نحو أحد رفاقه مستشيراً إياه فيما يبدو. ثم اقترب زورقه جداً من قاربنا، وخاطبنا نحن هذه المرّة، وبحزم ظاهر :

- اسمعوا! بتعملوا ايه هنا؟

أجبنا ثلاثتنا معاً :

- نتفرج على دو لا سبس!

- طيّب! تفضلوا معانا... وبلا اعتراض!

لم نفهم قصده أولاً، ولكنه كرّر الأمر، وبعد دقائق، وبشيء من الصعوبة - فنحن جبليّون لا نعرف ركوب الزوارق والانتقال من زورق إلى آخر عبر الموج - صعدنا إلى مركب خفر السواحل، مندهشين لهذا الموقف الذي لا مبرّر له. فمن الواضح انهم يلقون القبض علينا لأننا نتفرّج على تمثال دو لاسبس وننتهك حرمته.

وفجأة تذكرت أجر الملاّح، فصحت له :

- العشرة صاغ يا حاج ! مع الشكر!

وقذفت إلى قاربه بقطعة نقدية، التقطها ولوّح لنا مودّعاً، بينما أسرع زورق الشرطة بنا إلى حيث لا نعلم، والخفراء الثلاثة أو الأربعة صامتون، يرفضون الإجابة عن أي سؤال لنا، كأنهم لا يفهموننا، أو كأننا نتكلم بلغة أهل المريخ.

نزلنا في منطقة كثيرة المراكب والزوارق، وأخذونا إلى مبنى من ثلاثة طوابق يشرف على البحر، على جبهته لافتة كبيرة كتب عليها أيضا «خفر السواحل».

وقال لي حامد : «هذا جزاؤنا! دوّختموني أنت وحلمي بالكلام عن دو لاسبس... يبدو أنهم سمعوا كلامنا، فلم يرق لهم! أم أنهم ظنّوا اننا نريد أن ننسف تمثاله؟ الدنيا في حرب، والموقف معقد!»

دخلنا إلى قاعة عريضة كثيرة الدخان وملأى بمناضد جلس إليها رجال من كل نوع وعمر، معظمهم بادي التعب أو الملل، يقرأون الجرائد ويرشفون القهوة. وصعدوا بنا إلى الطابق الأعلى، حيث تكرر مشهد المناضد والبشر والجرائد، وفناجين القهوة رائحة غادية بينهم، ودخان السجائر يتماوج في الجو. ووقفنا عند باب مغلق. وهنا طلب منا الخفير الذي كان ناشطاً في اعتقالنا أن نسلّمه جوازات السفر. ثم قرع الباب ودخل، وتركنا وراءه، مغلقاً الباب دوننا.

فتلطّف أقرب موظف إلينا وقال : «تفضلوا يا جماعة. تفضلوا واجلسوا.»

ووجدنا بضعة كراسي قديمة، جلسنا عليها، والحيرة مستبدّة بنا : ما الذي يريدون من طلاّب فلسطينيين ثلاثة يغادرون وطنهم لأول مرة طلباً للعلم، وفي ظروف صعبة كهذه؟

لم يتحدث إلينا أحد. واستمر الفرّاشون يحملون صواني القهوة والماء جيئة وذهاباً بين المناضد المحملة بالأوراق المتهافتة، والموظفون يقرأون الجرائد، أو يتبادلون النكات، ولا يعيرنا شخص منهم أيّ اهتمام.

وانتظرنا.

ومرّت ساعة أو أكثر. وبدأت عتمة ما قبل المغيب تهبط على البحر الذي نراه من خلال النوافذ، وجعل الموظفون يشعلون مصابيح الكهرباء، ونحن في انتظار أن يفتح الباب السحري الذي اختفى وراءه الخفير بجوازات سفرنا.

وفجأة انفتح الباب وخرج شرطي غير الذي دخل، ولعله كان ضابطاً هذه المرّة، يحمل معه الدفاتر البنيّة الثلاثة، وتقدّم منا، وأخذ يفتح كل جواز ويقرأ اسم صاحبه بصوت عال، ويتمعّن في وجهه ثم في صورته في الجواز. وأخيراً، برقةٍ وجدناها عندئذ غريبة، قال :

- تفضلوا، خذوا جوازاتكم، مع السلامة.

ولما قلنا، متلعثمين، محتجّين :

- ولكن يا استاذ، ما معنى أنكم...

قال مقاطعاً، وهو يدفعنا دفعاً إلى الانصراف :

- ارجوكم، ما فيش داعي للسؤال، حصل سوء تفاهم بسيط. أنا آسف. مع السلامة، مع السلامة!

وأدركنا ازاء ذلك اللطف غير المتوقع أنه خير لنا ألاّ نطالب بأي تفسير... أخذ كل منا جوازه ووضعه في عبه، وانصرفنا.

لقد انصرفنا وبنا شعور بالمرارة: ففي اول يوم نغيب فيه عن وطننا (وفلسطين لم تكد بعد تخرج من ثورتها التي اندلعت عام ١٩٣٦ وبقيت على تأجّجها حتى إعلان الحرب العالمية)، لم يوقعنا حماسنا وحبنا للمعرفة وتوقنا إلى رؤية شواخص التاريخ، إلاّ في أيدي الشرطة! وكان الله هو الساتر. ما الذي سيوقعنا به هذا الحماس، وهذا الحب والتوق، في الأيام القادمة؟.

غير أن المرارة لم تدم طويلاً. وانطلقنا في شوارع بور سعيد، وجعلنا نضحك من المفارقة التي وجدنا أنفسنا فيها. فالأناس الذين حولنا، أينما نظرنا، أناس طيبون. وأنا، منذ سنتين أو أكثر، كان همّي الأكبر، أن أكتب عن تجربةٍ للحياة وخبرةٍ بالبشر. وكيف تكون الطريق إلى اكتساب هذه التجربة وتلك الخبرة، وقد بدأ انطلاقي إلى رحاب العالم الواسعة، إذا لم أكن مهيأً للدخول في المفارقات والتناقضات، بل وما هو ربما أسوأ من ذلك بكثير؟

وقال أحدنا: «وما هي حصتنا الشخصية منها كأفراد، إذا قيست بالمفارقات والتناقضات، دع عنك الخيبات والإحباطات، التي تملأ تواريخ الأمم؟»

ثم قلنا: «الفلسفة في آخر النهار مدعاة للجوع!»

ولما لم تكن نقودنا كثيرة، بحثنا عن مطعم شعبي، تناولنا فيه عشاءً لذيذاً من الكوشري، ونحن ما زلنا نعلّق بسخاء على كل شيء نراه، كأننا ما برحنا نتفرّج على تمثال فردناند دو لاسبس!

الفصل الثاني

أنا وهاملت وأوفيليا

أنا وهاملت وأوفيليا

قضيت سنتي الدراسية الأولى، من تشرين الأول ١٩٣٩ إلى حزيران ١٩٤٠، في جامعة اكستر بجنوب إنكلترا. واكستر من أجمل المدن البريطانية، تقع على سفح جبل ينحدر بها إلى واد عريض يجري فيه نهر الإكْس، ويرتفع بها إلى قمة مكسوّة بالاحراش المعروفة بـ «ستوك وودن»، فتجمع بين مباهج الطبيعة بأنواعها، إضافة إلى عراقتها التاريخية، وكاثدرائيتها القديمة، وكلية فنونها الملكية، وكليتها الجامعية المهمة التي كانت ايامئذ تابعة لجامعة لندن. وهي إلى ذلك قريبة أيضاً من البحر، ومحاطة ببعض من أجمل بقاع الريف الانكليزي الذي تفاخر به مقاطعة ديفونشر.

هذه كلها، في تلك الأشهر التسعة الأولى من حياتي في انكلترا قبل ان أكمل العشرين، كانت مسرحاً لانطلاقاتي الذهنية والحسّية. فيها بدأت اشتري الكتب اكاد أقول يوميا وبالجملة، وبخاصة بعد أن تعرّفت على شيخ رصين الكلام والحركة، يعشق الكتب، ويعمل في مكتبة رئيسية مسؤولاً عن الكتب المستعملة التي كان يشتريها في مجاميع كبيرة تعود إلى أناس جمعوها ذات يوم بحب وعناية، ولكن ورثاءهم راحوا يبيعونها الآن بأبخس الأثمان – فيطلعني على هذه اللّقى الثمينة، ويتهاود معي بالسعر بعد ان وجدني مثله أعشق الكتب، حتى ملمسها ورائحتها، والحديث المسترسل عنها.

وفي اكستر تعرفّت على طلابّ مثلي اتمتع بمناقشتهم ومحاججتهم،

وعلى طالبات يجمعن إلى متعة النقاش والمحاججة متعة الصحبة الجميلة التي كانت في معظمها جديدة عليّ، وهي لا تخلو من غزل يتفاوت براءة وعنفاً بتفاوت الظروف. وفيها تعلمت الرقص لأتخيّل أن في حركاته وايقاعاته موازياً من نوع ما لإيقاعات الفكر وحركاته . وفيها قضيت في شتاء تلك السنة ساعات بين القمم المكسوة بالغابات المحملة بالثلوج، انطق (بانكليزية مرصّعة بمجازات عربية) شعراً جنونياً على مسمع هذه الفتاة او تلك، والشمس تلملم اشعتها الحمراء قبيل المغيب من على الثلوج المترامية عبر الآفاق، والفتاة لا تصدّق ان بوسع عينيها وشفتيها إثارة هذه العواطف والصور جميعها في فتى عربي قادم من روابي القدس البعيدة، لانها لا تجد مثل هذا الوقع في أصدقائها من الفتية الانكليز، ولا تعلم أنني ما زلت احمل بين جنبيّ عطش الصحراء القديم.

وكان مقهى «دوليز»، في الحادية عشرة من صباح كل يوم، وبخاصة السبت، مشهداً للكثير من تلك اللقاءات الملأى بالمفاجآت ودسائس الغزل البريئة - التي لم أكن أعرف، والموسيقى تشحن الجو، من الذي يورّط الآخر فيها، الفتى ام الفتاة؟ وكانت لي قصة مع برناديت، ابنة الستة عشر ربيعاً، التي كانت تهرب من المدرسة، او الكنيسة (لأنها كاثوليكية)، من أجل ان نلتقي، فأشعر ان بطلة قصتي «ابنة السماء»، التي كنت قد كتبتها قبل ذلك بسنة واحدة في القدس - عن صبيّة حسناء من خلق خيالي تدرس وتقيم في دير عتيق تهيؤًا للرهبنة - تتجوهر فجأة بين يديّ، لدرجة الفزع ... والنشوة.

وكان لي في اكستر أن أعرف الحب من جديد، بعد تجربة عرفتها في القدس بقيت، رغم لذائذها ولياليها المؤرّقة، في نطاق الهوى العذري.

أما هذه المرة، فكان الحب عاصفاً كالريح، وجارفاً كالسيل، فضاؤه الحقول الخضراء والأشجار البواسق، يضجّ بالجسد كما يضجّ بالروح، اذا كانت الروح هي مطلقة ذلك الكلام الجامح اللامنتهي.

كنت في جامعة اكستر أتهيأ لدخول جامعة كمبردج في السنة التالية، للتخصص في الأدب الانكليزي . وكان تركيزي على الشعراء، ولا سيما المحدثين - إضافة إلى شاعِرَيَّ المفضَّلَيْن شلي وكيتس - مع اهتمامي الكبير بالروائيين أيضاً، يمدّني بالمزيد من الحساسية لجرْس الكلمة، وأهمية الصورة المجازية والكناية والرمز في مجالٍ كان قد ملك عليّ نفسي منذ أيام دراستي في الكلية العربية، حتى قال جفري وولتن، أحد اساتذتي، في توصيته بي في نهاية تلك السنة الأكاديمية، إنني «واسع الاطلاع جدا» بالنسبة لمن هم في سنّي، وأدهشني بذلك القول، لأنني لم أكن أحسب ان المطالعة المستمرة والمتنوعة إلاّ بعضاً من ضرورات الحياة اليومية.

ولعلني كنت محظوظاً إذ كانت غلاديس نيوبي، الفتاة التي تعلّقت بها منذ اواخر الشتاء في تلك السنة، طالبة من شمال انكلترا، تصغرني بسنة أو أكثر بقليل، تدرس الاغريقية واللاتينية، وتحفظ عن ظهر قلب آلاف الأبيات من الشعر الانكليزي، وتعرف الكثير عن الموسيقى الكلاسيكية، وتريد مثلي ان تعرف المزيد، وتضيف إلى حماساتنا الذهنية الكثير من سحر الآداب اليونانية والرومانية . وقد أدهشها أن من الأشياء القليلة التي جئت بها معي من القدس ألبوماً من الاسطوانات القديمة تحمل السمفونية التاسعة لبيتهوفن... كان شعرها الأصفر المسترسل يتطاير حول وجهها، المورّد دوماً بأجيج مشاعرها، فأرى فيها إلاهةً

Twitter: @ketab_n

تجسّدت فاختلطت في تكوينها اندفاعات مغامري الشمال النورديين، الذين لعلها كانت تنتمي دماً إليهم، بحرارة حضارات البحر المتوسط التي تدرسها عن حب، والتي ربما كانت بعض السبب في تعلقّها بي . وكنت اقول لها : «اتعرفين أن البحر المتوسط عربيّ في معظمه، وان تركة اليونان والرومان إنما مازجت الحضارات العربية وروحها منذ ان وجدت، فكانت هي التي أعطت الديمومة لكل ما هو متميزّ ورائع في هذا البحر، الممتّد من الساحل العربي الكنعاني شرقاً إلى الساحل العربي الاندلسي غرباً ...» فتناقشني في ذلك الرأي، كما تناقشني في اي رأي آخر، لساعات.

لم تكن الحرب قد اشتدت بعد في الأشهر الأولى، بحيث جعلت الصحف تتحدث عن «الحرب الزائفة» (ذي فوني وور). ولكن التعتيم كان سائداً وصارماً، فتغرق المدينة كل ليلة في الظلام، مما يجعل لخروجنا في الطرقات ليلاً رهبته وفتنته الخاصة. ثم قامت المانيا، في شهر آيار، بهجومها الصاعق على أقطار غرب اوربا، مشهرة سياسة الحرب الخاطفة (البليتزكريغ) التي استطاعت بها في أيام قلائل ان تحتل جزءاً كبيراً من غرب اوربا ، وشطراً كبيراً من فرنسا بعد اجتياح «خط ماجينو» الدفاعي. ومنيت الجيوش البريطانية التي كانت هناك بهزيمة مريعة دفعت بقاياها إلى ميناء دنكيرك، على الساحل الشمالي الغربي من فرنسا. وهناك جرت عملية انقاذ ما يمكن انقاذه من أفواج الجنود في سفن من كل ضرب وحجم، جاءت بهم إلى موانيء انكلترا الجنوبية بالآلاف. ورأينا ذات صباح طوابير الجنود المتعبين الذين قذفت بهم الأمواج على الساحل، في مسيرة كبرى في شوارع اكستر، لتستقبلهم

الجماهير بالموسيقى، ولكن الناس باتوا يتوجسون، ولأول مرة، من غزو ألماني مفاجىء لأنكلترا، وهي التي لم يجرؤ قط عدو على غزوها منذ قرابة ألف سنة.

غير ان الحياة الجامعية استمرت على حالها، رغم تناقص اعداد الشباب بدعوتهم للخدمة العسكرية، واستمرت علاقاتنا ونشاطاتنا في التنامي، رغم ظروف الحرب المتصاعدة شدّة وضراوة. بل بدا كأن الإحساس بالخطر الجماعي ودنو الكارثة يزيد من حدة الذهن واعتلاج العاطفة، ويضاعف من التعلق بالحياة وأحاسيسها ولو لذلك اليوم، ولو لتلك الساعة. هذا اذا كان لا بدّ من الموت. ولكن الموت، على كل، كان سيقاوَم بهذا الحب للحياة، وبهذه الكثافة في التفكير ، وهذه الحرارة في المشاعر . وكانت النتيجة ان ازداد النشاط على كل صعيد : في الدراسة، كما في العمل، كما في الفنون. ولم تكن بعد قد بدأت الغارات على المدن بحاملات القنابل المدمرة، مما كان سيقع بعد بضعة أشهر – ولكن دون أن يفلّ من تلك الشهوة العجيبة للحياة.

* * *

في مطلع الصيف ذهبت غلاديس إلى أهلها في مدينة هلّ، بشمال يوركشر، وذهبت أنا إلى اكسفورد لحضور دورة دراسية في الأدب الانكليزي أقيمت في كلية سومرفيل، أُعطيتُ فيها غرفة جميلة لبضعة اسابيع. وبعد انقضاء الدورة آثرت البقاء في اكسفورد بمباني كلياتها الرائعة، ومكتباتها العامرة، ولوجود نَصب اكرر زيارته في كلية «نيو كوليج» للشاعر الشاب شلي عاريا، غريقاً، تبكيه ربّة الشعر ... ولكني، لقلة مؤونتي، أقمت في نزل صغير في شارع قريب من محطة سكك

الحديد، فكنت اسمع طوال الليل جعجعة القطارات وصفيرها المتوالي وهي تدخل وتخرج من المدينة، وكثيراً ما أعجز عن النوم وأنا أتخيل ما تحمله هذه القطارات اللاهثة أبداً من أناس يمثلون البشرية في اشكالها ونشاطاتها كلها، وما تنقله من امتعة وسلع وأسلحة، من مواد للبناء وأخرى للدمار، وما تأتي به أو تأخذه معها من رسائل الأعمال والتجارة، ورسائل الحب والمآسي : ومن بينها تلك الرسائل التي تغدو وتروح بيني وبين غلاديس تقريباً كل يوم، والكثير منها يتضمّن محاولاتي الشعرية الجادة الأولى بالانكليزية.

كنت قد أُبلغت أخيراً بقبولي في جامعة كمبردج ابتداءً من الاسبوع الأول من تشرين الأول. وكان معنى ذلك انني قطعاً سأفارق غلاديس طوال سنوات الدراسة القادمة. وجاءتني عندها رسالة غريبة، ولكن دمثة، من طالب صديق اسمه ستيف دنكرلي، كان يدرس في اكستر، وهو على وشك التخرّج، ويقيم في مدينة هلّ، يقول فيها إنه متعلّق بالفتاة التي تحبني، ويريد الزواج منها. ولكنها تعرض عنه بسببي، مع انه لا يرى كيف نستطيع الاستمرار بعلاقتنا وهي وأنا على ذلك البعد الجغرافي الذي سيظلّ قائماً بيننا بعد اليوم. وعندما أصرّ كلانا على ان البعد الجغرافي لن يغيّر في الوضع شيئاً، برهن هذا الشاب، بعد ذلك بفترة قصيرة، على تضحيته الشخصية في سبيل سعادة الفتاة التي يحبّها .وكان برهانه مذهلاً...

حرُمنا اللقاء في أشهر ذلك الصيف : فسفري اليها شمالاً، او سفرها إليّ جنوباً، كان أمراً مكلفا لا تتحمله امكانياتي او امكانياتها المالية الضئيلة جداً.

وكنت إلى ذلك منصرفاً إلى مطالعاتي، ومتابعاتي الفنية، ومشاهداتي المسرحية، وكتاباتي الشعرية التي أخذت تستأثر بالكثير من وقتي.

وكانت مدينة «ستراتفورد اون آفون»، مسقط رأس شكسبير، والقريبة إلى اكسفورد بحيث يمكن الذهاب اليها والإياب منها بالقطار أو الحافلة في اليوم نفسه، تغريني بتكرار السفر إليها بعد أن قضيت فيها يوماً رائعاً بزيارة الدار التي ولد فيها شكسبير، حيث تحايلت على أمين الدار، واقترفت المحظور بأن كتبت اسمي على خشبة احدى النوافذ قرب اسم الشاعر بايرون، ثم طفتُ كمن يطوف في مكان مقدس في الاماكن العديدة الأخرى المتصلة بحياة شاعر الانكليز الأكبر، بما فيها «مسرح شكسبير التذكاري» المقام على النهر، ذلك النهر المنقّط بالبجعات البيضاء الشهيرة وهي تعوم دونما جهد، كأنها في حلم دائم منذ أن كتب شكسبير قصائده ومسرحياته.

كانت مسرحية «هاملت» في تلك الأونة موضع اهتمامي بشكل خاص، وتجعلني أشعر أنني، كأي شاب في ظروفي تلك، أحمل معي مآسي بلدي اينما ذهبت. ففلسطين لم تكن تغيب عن بالي لحظة واحدة، ولا كانت تغيب عن بالي هموم أسرتي في تلك الفترة العصيبة – ومتى لم نكن منذ يوم ولدت لا نمّر، أفراداً أو وطنا، في فترة عصيبة، وكأننا كل يوم نقهر قدراً لا يفكّ حصاره عنّا؟ ولعله كان يلذّ لي، كما للكثير من الشباب الذين تعرفت عليهم آنئذ، والحرب تتصاعد عنفاً وتدميراً، أن أرى معاني تهمّني شخصيا في بعض مواقف هاملت ومونولوغاته، كما في قولته المشهورة «أأكون ام لا أكون، ذلك هو السؤال»، وهو السؤال الذي

سأشحن به صدور تلاميذي في الكلية الرشيدية بالقدس ، بعد ذلك بأربع سنوات او خمس . أو عندما يقول :

ما أشدّ ما تبدو لي عادات الدنيا هذه

مضنيةً، عتيقةً، فاهية، لا نفع منها

... إنها حديقة لم تُعشّب،

شاخت وبزّرت، لا يملأها إلاّ

كل مخشوشن نتنت رائحته...

او حين يخاطب جمجمة يوريك، مهرّج الملك فيما مضى، وقد ألقى بها حفار القبور عند قدميه، ليتأمل هيمنة الموت على كل شيء. وباحساسي أنني، رغم كل شيء، قد اضطر إلى ان أهجر غلاديس، الفتاة التي شخّصت لي الحب أخيراً في أزهى أشكاله وأطراها، وأعنفها حساً ولذة، وأملأها بالجمال والشاعرية - كان يخالجني الشعور بأن امير الدانمرك يتوحدّ فيّ كلما ناجى نفسه او اختلى بحبيبته اوفيليا. ولكنني كنت إلى ذلك كله أغالب تلك الأحاسيس المظلمة بضرب من العناد الذي يصرّ عليّ بأن امتلك من الحياة كل ما يثير الخيال والحواس جميعاً، ولعل الحزن والفرح ما كانا إلاّ وجهين لتجربة وجودية واحدة أقتنصها، ولا أتنازل عنها، واريد التعبير عنها فيما اكتب، مهما تكن اللغة التي اكتب بها.

في اواخر ذلك الصيف كانت احدى الفرق المسرحية الكبيرة قد أقامت موسماً شكسبيريا في ستراتفورد، تقدّم فيه على مسرح شكسبير

التذكاري ثماني مسرحيات له كل اسبوع : اي مسرحية مختلفة مساء كل يوم، عدا الأحد، وتقدّم يومي الأربعاء والسبت مسرحيتين، إحداهما بعد الظهر (ماتينيه)، والأخرى في المساء . فذهبت الى ستراتفورد، حاجًا مرةً أخرى، لأشاهد في اسبوع واحد ثماني مسرحيات، وذلك بان أتردد على المسرح كل يوم. فكنت كل صباح أقرأ نصّ المسرحية التي سأشاهدها في ذلك المساء. وكانت آخرها، وتتويجاً لها، «مأساة هاملت» (وبقيت نسختها التي قرأتها يومئذ محفوظة عزيزة بين كتبي بشيء من «سنتيمنتاليّة» المحب.)

واتفق ان الاسبوع الذي ذهبت فيه إلى ستراتفورد كان نهاية الموسم الشكسبيري، ليبدأ بعده موسم من عروض الباليه. فمكثت فيها لأشاهد حفلات الباليه ايضاً – وكان موسمها سيبدأ يوم الاثنين . وكان على مقربة من المسرح مشرب «پَبّ » يدعى «ديرْتي دكّ»، مشهور بأن الكثير من روّاده، فضلاً عن زائري البلدة العديدين، هم من الممثلين، وكنت أنا ورفيق انكليزي تصادقنا هناك نتردّد عليه قبيل العرض، أو بعده. وعشية الاثنين، كنا في المشرب، واقفَيْن قرب «الكاونتر»، وفي ايدينا البيرة، عندما تقدّم مني شاب، متردداً، وحيّاني متلعثما، بلطف لم أعرف سببه، ثم سألني : «ألستَ راقص الباليه في حفلة الغد؟»

فذهلت وقلت : «يؤسفني ان أخيبك. هل تراني أشبه راقص باليه؟»

فاضطرب وقال : «العفو! المعذرة!» وطلب لنا جميعاً «دوراً» من البيرة، وانسحب . وقال رفيقي : «وجهك الضامر، وشعرك الطويل، وأصابعك الـ...»

قطعت عليه كلامه هامسا : «لا تنظر الآن ، ولكن راقصة الباليه قد أصبحت خلفك...»

ففي تلك اللحظات كانت قد دخلت إلى المشرب فتاة تبلغ الثامنة عشرة، فارعة القدّ، مرسلة الشعر، تلبس معطفاً خفيفاً مفكوك الأزرار، وهي بصحبة والديها. ووقفت قربنا، بينما طلب أبوها من «البارمان» ما يشربونه. كنّا قد رأيناها عصر ذلك اليوم في مقهى لشرب الشاي، وإثارت اهتمامنا عند دخولها المقهى بأناقتها المتميزة، ومشيتها الانسيابية، وغرابة جمالها. وحسبناها، بدورنا ساعتئذ، إحدى راقصات الباليـــه.

نظرتُ إليها الآن من فوق كتف صديقي، فالتفتت إليّ، ثم اشاحت بوجهها لحظتين، ثم عادت ونظرت إليّ بشكل صريح، وبشيء من الاستغراب. وعندما أخذت كأسها، وانصرفت مع والديها إلى مائدة قريبة، وجلستْ، وجدتُ أنها بقيت تنظر إليّ، معرضةً عن حديث والديها. فتململت في مكاني : هذه الحسناء الوافدة من فيافي الليل الانكليزي، هل تعرفني، ام ماذا؟

واذا هي تنتصب واقفة بقوامها المشوق، وتتقدم مني ، وبمزيج من الجد والابتسام تقول : «هل أنت هاملت؟»

لم أصدّق أذنيّ . «العفو ، ماذا قلت ؟»

قالت : «هل انت هاملت ؟ أعني ، هل انت الذي قام بدور هاملت أمس؟»

ماذا تقول لفتاة جميلة، شعرها الاسود المنسدل يغطي كتفيها، وشفتاها كالجمرتين، حين تسألك، عابثة أو جادة : هل أنت هاملت؟

امتلأتُ غروراً وقلت : «أنا هاملت، نعم، ولكنني لا امثّل دوره... هل أنت راقصة باليه؟»

فضحكت : «أنا ؟ ياليت!»

قلت : «أتسمحين ان اقدّم لك كأساً؟»

قالت : «نعم ،ارجوك . »

ولكن قبل أن اسألها ماذا تشرب، التفتت إلى «جوك بوكس» قريب منا، وقالت وهي ما زالت بين الجرأة والحرج : «أتختار لي اسطوانة؟» وفتحت حقيبة يدها تبحث فيها عن قطعة نقد تلقمها آلة الاسطوانات.

فقلت : «لا، بل انت تختارين، وأنا أدفع.»

ووضعت انا قطعة النقد في الشقّ، وضغطت هي على زرٍّ كتب قربه : «أحبك اكثر، اكثر مما يجب».

وضحكتْ ضحكةً ماكرة حلوة، وأسرعت إلى مائدتها، وأتت بكأسها. وبعد قليل أخذتنا وعرّفتنا على والديها. ثم تركتُ رفيقي معهما يحدّثهما عن عمله في لندن، وخرجنا أنا وجين هاريسون إلى ظلمات الليل الشكسبيري. وعلى الرصيف أوقفتها، وقلت لها : «لماذا سألتني إن كنت أنا هاملت؟»

قالت : «ألا تعرف؟ لأنها كانت طريقة لمفاتحتك بالكلام... أنا أصلاً رأيتك أمس في قاعة المسرح بين الجمهور!»

قلت : «أنت أوفيليا! اذكري في صلواتك خطاياي كلها!»

وأمسكت بها من ذراعها وانطلقت بها وهي تقول : «ولكنني لا اريد أن أموت غرقاً...»

فأجبت : «بل ستحيَيْن، وتعيدين إلى هاملت بعضاً من عقله.»

فقالت : «بل أريد له المزيد من الجنون... مثلي...»

وقضينا أياماً في احراش شكسبيرية ملأى بشموس متفجرّة، إلى ان ذهبت الى مدينتها بيرمنغهام، وعدت إلى غرفتي في اكسفورد.

* * *

وهناك وجدت ثلاث رسائل في انتظاري من غلاديس. وفي الرسالة الأخيرة منها تقول إنها ما عادت تستطيع الصبر، واننا يجب ان نجتمع في أقرب وقت، وفي أي مكان شئت أنا. ففرحت لهذا القرار المباغت، وقد بات يقلقني أن تشغلني «اوفيليا» الجديدة عن المرأة التي ما زالت الكلمة منها، ولو مكتوبة في رسالة، تشعل في صدري الحرائق.

وكتبت إليها مطولاً، وذكرت - ولو بإيجاز وحذر - لقائي بجين هاريسون، واقترحت ان يكون لقاؤنا في ستراتفورد نفسها : فهي تختصر الطريق نسبيًا عليها، واقامتنا في «فندق الضيافة» معاً ستكون ميسّرة، لأن أصحابه باتوا يعرفونني.

وبعد اربعة أيام او خمسة، جاءني جوابها برقيًا : «سأصل ستراتفورد السبت بعد الظهر. رجاء احجز ثلاث غرف. مع حبي.»

ثلاث غرف؟ ظننت ان في البرقية خطأً مطبعيا. أنا أفهم اننا

سنحتاج إلى غرفتين، واحدة لها وواحدة لي. اما الغرفة الثالثة؟ ومع ذلك، ابرقت إلى «فندق الضيافة» في ستراتفورد، وفعلاً حجزت ثلاث غرف، وذهبت إلى ستراتفورد يوم السبت. وكانت المفاجأة.

كان طقس أيلول قد بدأ بالتحول. وجاءنا يوم السبت ذاك ماطراً، عاصفاً، كيوم شتائي أقحمته الطبيعة غدراً، كعادتها في انكلترا، في ثنايا الصيف قبل ان ينتهي.

بعد تناول الغداء، رحت اتطلع إلى الخارج بين الحين والحين، غير عارف بالضبط كيف ومتى ستصل غلاديس من مدينتها البعيدة. وفي لحظات من انقطاع المطر، خرجت إلى الطريق، أمشي على الرصيف المشجّر، وقد جعل الانتظار والتوقع يفريان أعصابي.

وقطعت مسافةً طويلة، اخذت أفكرّ عندها بالعودة لئلاً تصل غلاديس الى الفندق ولا تجدني في انتظارها، حين رأيت عن بعد رجلاً يسرع باتجاهي على دراجة نارية، يلبس خوذة ونظارات واقية، وقفازات جلدية، وقد أردف على المقعد الخلفي فتاةً امسكت بصدره بكلتا يديها اتقاءً للسقوط، وهي تلبس مثله قفازات جلدية ونظارات واقية كبيرة، وبنطلوناً. ولكن شعرها الطويل يتطاير في الهواء العاصف رغم أنها شدّت معظمه بمنديل حريري معقود تحت ذقنها... ودنا الراكبان مني، وقللّ الرجل من سرعته، إلى ان توقف بدرّاجته الضاجّة بمحاذاة الرصيف عندي.

وقفزت غلاديس من مقعدها إليّ، ورفعت النظارات الكبيرة عن عينيها، واستقرّت هي ومعطفها المشمّعي المبللّ بين ذراعيّ. وكانت

شفتاها حلوتين كفلقتي فاكهة باردة نَديّة، تذوبان ولا تذوبان على شفتيّ.

أما الرجل، ومن يكون سوى ستيف دنكرلي الذي يريد الزواج منها، فقد ترجّل هو أيضاً، وانتظر ريثما فرغنا أنا وغلاديس من العناق، والتقطنا أنفاسنا بعد لأي، وسحب قفازّه وصافحني بحرارة، ثم قال : «سأسبقكما إلى الفندق...» وعاد إلى دراجته، وساقها في الاتجاه الذي أشرّته له، وعدنا أنا وغلاديس سيراً في الاتجاه نفسه.

لقد تبرّع ستيف بأن يأتي بها على دراجته النارية مسافةً تقارب أربعمئه كيلومتر، بادئيْن الرحلة عند انبلاج الفجر، ومخترقَيْن الأمطار والرياح، لكي تلتقيني غلاديس في البلدة التي أحبّها...

وما حدث في بقية ذلك النهار والليلة التي أعقبته، لا يمكن ان يروى بسهولة. فقد كان كالحلم : بعضه رعب، ومعظمه لذة، وكله أشبه بالمستحيل.

ولم يبق مكان لأوفيليا في تلك الساعات المكتظة بأحاسيسها وكلماتها المتهاوية من خلال زوبعة خليقة بشخصيات كنت أشعر أن أحداً لا يبرع في خلقها مثل شكسبير. وكان الوهم يشتّد بي بأننا، في كل ما نقول ونفعل، نتحرك كما في مسرحية من مسرحياته. وعسى الله ان يجعلها كوميدية. ولكن من يدري متى تتحول الأحداث بنزوة من «ربّة الدهر» ودورة من دولابها إلى مأساة، والفاجعة في الحقيقة، كما في الشعر، تتربّص بنا في المنعطف من كل طريق نندفع إليه ونحن لا ندري؟

الفصل الثالث

سيدة البحيرات

سيدة البحيرات

في عطلة ربيع عام ١٩٤٠، كان اول مكان خطر ببالي أن أقوم بسفرة إليه من إكستر، بعد أن كنت قضيت عطلة الشتاء السابق في لندن، هو «منطقة البحيرات.» لا لأنها من أجمل بقاع انكلترا فحسب، بل لأنها المكان الذي نشأت فيه بدايات الحركة الرومانسية في مطلع القرن التاسع عشر، وكان من قادتها الشاعران وليم وردزويرث وصموئيل كولردج، اللذان عاشا فترة مهمة من حياتيهما في تلك المنطقة، وكتبا فيها الكثير من وحي «سماواتها السخيّة». وقد تأثر بهما الشاعران الرومانسيان الآخران، الأصغر منهما سنًا، برسي شلي وجون كيتس. وكنت بدوري ما أزال تحت تأثير سحرهما العميق الذي جعل يفعل في نفسي منذ السنة الأخيرة من دراستي في الكلية العربية، عام ١٩٣٨، فاتسع اهتمامي ليشمل، إلى جانب الحركة الرومانسية بتفصيلاتها وأسمائها الكثيرة ، ما يسمى في تاريخ الأدب الانكليزي بشعراء البحيرات. وفي أشهري الأولى في جامعة اكستر قرأت الكثير لهم وعنهم، وعن الأمكنة التي كانت مهبط وحيهم، حتى باتت اسماء تلك البحيرات والأماكن مألوفة لديّ، فتصورتني سأكون في غنى عن خريطة للمنطقة إن أنا اردت الذهاب إلى وندرمير، أو هوكسهيد، أو أمبلسايد، أو غراسمير، أو داروينت ووتر.

وما إن نزلت في فندق صغير في بلدة وندرمير، القريبة من البحيرة المسمّاة باسمها، جاعلاً من الفندق منطلقي ومرجعي لجولاتي اليومية،

حتى ازدحمت في ذهني أخيلة ومشاعر وذكريات، بعضها يعود إلى أيام طفولتي الناضحة بتجربة الطبيعة في أولى أشكالها : التراب والصخر، الوادي والجبل، الأشجار والأزهار البريّة، «الحنّون» والشوك، مع زرقة السماوات الرحاب وانهمارات المطر، والغوص في الطين، والاستسلام للريح والرعد... والبعض الآخر يعود إلى قراءاتي الشعرية لوردزويرث نفسه قبل ذلك بسنة في القدس، وأنا رائح غادٍ بين دارنا في منخفضٍ مكتظ بالدور والبشر وبين الحقول القريبة من حيّنا حيث كانت المباني فجأة تنقطع، وتصبح شجرات الزيتون المتباعدة، والحشائش والنباتات البرية، سيدة الطبيعة المطلقة، وأنا مندمج في شعر وردزويرث الذي يجعل من تجربة الطبيعة والأناس البسطاء العائشين في أحضانها نشوة صوفية توّحد بينه وبين الطبيعة، ثم توحّد بينهما وبين الذات الإلهية...

بدأت التجوال في الطرق المتعرّجة بين تلال المنطقة وقراها، وقد حملت في جيوب معطفي أعمال وردزويرث وكولردج، أعود إليها كلما توقفت عند مرحلة من السير. ولم أنس هذه المرة أن أحمل أيضاً الكاميرة الكوداك، التي كان أخي يوسف قد أهداني إياها قبيل مغادرتي الوطن : وهي من نوع المنفاخ الذي كان شائعاً في الثلاثينات، بحيث تفتحها عند استعمالها، ثم تعود فتدفع جهازها نحو ظهرها، فتنطبق، ولا تأخذ حيّزاً كبيراً في قرابها الجلدي، أو إن شئت في جيب المعطف مع أحد الكتب المحشوّة فيه.

ومنذ الخطوة الأولى في مسيرتي، عادت إليّ رؤى وردزويرث التي أبدع في تصويرها في «التوطئة» (ذي بريليود) و «هواجس الخلود» والسونيتات التي مجّد فيها الابتعاد عن المدينة وعوالمها حيث «نبدّد نحن

قوانا»، مؤثراً مشاهد البحر أو الحقول التي فيها «تصرخ الرياح في كل ساعة، وقد تجمّعت الآن كالأزهار النائمة»...

وهو يتذكر طفولته يوم كان «كالغزال يتواثب فوق الجبال، على ضفاف الأنهر العميقة، والجداول المهجورة / أينما اقتادته الطبيعة.../ والشلاّل الصاخب يسكنني كالعشق : الصخرة الشاهقة / والجبل، والغابة الموغلة الظلماء / ألوانها وأشكالها كانت لي شهوة، / شعوراً، حباً، في غنىً عن أي حافز / غير حافز العين نفسها...»

وكانت غراسمير من أوائل القرى التي قصدتها، لزيارة المنزل الذي قضى فيه الشاعر سنيناً خصبة من حياته بصحبة أخته دوروثي، وصديقه كولردج الذي كان قد أصدر معه ديواناً مشتركاً عنوانه «القصائد الغنائية» (ليريكال بالادز) اعتُبِرَتْ مقدمته المهمة، التي كتبها وردزويرث، أشبه بدستور للشعر الرومانسي الجديد. وقد أعدت قراءة قصيدة كولردج القصصية «كريستابل» في تلك العشيّة، مستعيداً ذلك الغموض الخارق الذي كان كولردج الشاب بارعاً في الإيحاء به بشعره، وقد عُرف عنه في قصيدته الطويلة «البحّار القديم»، ثم حققه مرة أخرى في قصة كريستابل التي تلتقي في الليل، في بقعة مهجورة، فتاة رائعة الحسن تدعى جيرالدين كان قد تعدّى عليها أناس مجهولون ثم تركوها هناك، فأخذتها كريستابل إلى قلعة أبيها، وإذا هذه الحسناء الرهيبة تعمل فيها سحرها على نحو لا يفسّره حتى الجنون.

وفي تلك العشية أيضاً كتبت رسالة إلى صديقتي غلاديس نيوبي، أحدثها فيها عن هذه الفتنة المركبة اللذيذة التي أتمتع بها و أنا موزّع بين

تلك الطبيعة التي ما شاهدت مكاناً بروعتها، وبين ذلك الشعر الذي يملأني بسحره كأنه نهر فائض يحملني على أمواج نشوةٍ أعجز عن الحديث عنها بشكل معقول. كما كتبت رسالة إلى أخي يوسف في القدس، زاعماً أن الله قد خلق جنتين اثنتين، إحداهما في السماء للصالحين من عباده، وأخرى في الأرض لمن يعشق الطبيعة وتدعى منطقة البحيرات.

قبيل الظهيرة من اليوم الثالث، كنت قد بلغت بتجوالي سفح «سكافل بايك»، الجبل المشهور القائم على طرف من تلك التلال وما تحتضنه من البحيرات الزُّرق، وكان مهبطاً آخر من مهابط الوحي لشعراء وكتّاب عديدين. فارتفاعه يربو على ثلاثة الاف قدم و تستقرّ على قمته الغيوم، وتومض البروق فوق هامته فجأة، مرسلةً الرعد في دويّ يتصادى متباعدا بين التلال. ولكنه كان ذلك اليوم يبدو كالعابث المرح في صحوة السماء مع فيض من الشمس الحانية دونما حرّ، لأن ريحاً باردة منعشة تهبّ بين الحين والآخر، حاملة شذا الأعشاب البرية وأزهار أول الربيع. كنت أسير في طريق صخري عبّدته الأقدام طوال القرون، متجهاً نحو منعطف سأبدأ منه الصعود على سفح الجبل. وعلى كثرة المتجولّين مثلي في تلك الأنحاء، وجدتني ساعتئذ وحدي لا أرى أحداً حتى على مسافة بعيدة، أمامي أو حواليّ.

وعلى حين فجأة، خرجت من حول المنعطف امرأة، تسير قادمة نحوي، على الطريق الصخري نفسه. ولاحظت في الحال فستانها الأبيض الطويل، الذي لم يكن مألوفاً بذلك الطول في مكان كذاك، وهو يرفرف حول ساقيها، ومن على كتفها تتدلى حقيبة حمراء صغيرة. وخطر

لي أنها ليست مجرّد سائحة، مثلي، بل لعلها شاعرة اغتنمت فرصة الشمس الضاحية، وجاءت تستلهم صخور الجبل وزرقة البحيرات. وراق لي أن شعرها أسود، طويل، مرخيّ على كتفيها، بل ان الريح تتلاعب به، فيطير حول وجهها، ويتناثر في خصلات على صدرها، ولا تحاول إرجاعه إلى مكانه. ولكن وجهها يسطع بين ثانية وأخرى حين تبتعد الخصلات عن خدّيها، وترتفع في الفضاء لتعود فتستقرّ على كتفيها. ولعلها كانت قد نزلت عائدة من قمة الجبل الذي أنا سائر إليه، وفي جيوب معطفي أكثر من مجموعة شعرية، وكاميرتي القديمة.

واقتربت المرأة مني، واقتربت منها. ولم أكن لأحاول حتى السلام عليها، رغم أننا المخلوقان الوحيدان في ذلك الفضاء المترامي الغارق في الشمس والريح. بيد أنها كانت أجرا مني. فقد جعلت خط سيرها يمتّد باتجاهي بالضبط، بل إنها صوّبت عينيها نحوي، حتى اردت أن أحيد عنها لئلا أصطدم بها أو تصطدم بي.

ولكن أي غريب لا يرحّب بغريب آخر في أرض غريبة كتلك؟ وإذا كان الغريب الآخر امرأة مرسلة الشعر الأسود على ثوب طويل أبيض، وتلتمع في وجهها الورديّ عينان خضراوان ارسلتا بريقهما كشعاع إلى عينيّ ، هل كان لي، حين وقفتْ وجهاً لوجه أمامي، إلاّ أن اقف وأقول لها :

«هلو... صباح الخير.»

ولما ردّت التحية، ازددت دهشة لجمالها : قد تكون في الخامسة والعشرين من عمرها، أو اكثر بقليل. ما الذي تفعله شابة بمثل ذلك

الحسن، بتينك العينين الخضراوين، وذلك الشعر الغزير الأهوج، في مكان كهذا، وحدها؟ لم تبتسم الفتاة حين قلت لها، غير متقصّد إلا إثارة الحديث معها : «هل ضللت الطريق؟ أتعرفين أين أنت ذاهبة؟»

أجابت : «ضللت الطريق، وهذه ليست أول مرة. وأنت، أتعرف اين ذاهب أنت؟».

قلت : «نعم،أريد الصعود إلى هذا الجبل.»

صمتتْ، وركزّت عينيها الخضراوين في عينيّ، ثم قالت : «أنت غريب هنا؟»

قلت : «نعم، غريب، مثلك.»

قالت : «أقصد أنك من بلد آخر. انت لست انكليزيا؟.»

كانت لهجتي ما زالت تفضح ذلك فيّ، وأنا لم أقض بعد أكثر من ستة أشهر أو سبعة في انكلترا.

قلت : «نعم، أنا من بلد آخر.»

بان على وجهها مزيد من الاهتمام، بل خيِّل إليّ أنها سُرَّت لأنني من بلد غير بلدها، وسألتني : «من أي بلد أنت؟»

وقبل أن أجيب، أردفت : «دعني أحزر... أنت اسباني!».

- « لا . »

- «إذن، إغريقي!»

- «لا... أنا فلسطيني.»

واستغربت لدهشتها الزائدة، اذ هتفت : «لا! مستحيل!»

قلت : «أنا من القدس.»

فاقتربت مني، وارتفعت يدها كأنها تريد أن تلمس صدري، وهي ما زالت في دهشتها : «يا الله! هل أنت حقاً من المكان الذي مشى هو في طرقاته؟ من المكان الذي تكلّم فيه، وتعذّب، وصلُب؟»

لم أكن متوقعاً مثل ذلك السؤال، وحسبت أنها قد تكون متدينة بعض الشيء، وما أسهل ما يثير جوّ كذاك أحاسيس الوشائج الكامنة بين الذات وخالقها.

قلت : «نعم، سيدتي. وإذا كان الأمر يهمك –»

ولكنني أحجمت عن الإفصاح عن بقية ما اردت قوله، شاعراً أنني قد أغالي باستغلال الموقف، دون إنصاف.

وضعْت كفها على صدري وفي عينيها الخضراوين رجاء غريب، إذ قالت : «نعم، يهمني...»

فقلت : «وقضيت سنوات طفولتي كلها على بعد خطوات من المغارة التي ولد هو فيها...»

– «في بيت لحم؟»

– «في بيت لحم.»

ضمّت يديها في ضراعة المصلّي، وهمست، كأنها تخشى ألا تسمع ما تود لو تسمعه : «وتتكلم لغته؟»

فقلت : «اتكلم اللغة التي هي أقرب اللغات إلى ما كان ينطق به... العربية».

قالت : «يا إلهي! العربية؟ الآرامية؟»

فقلت : «نعم، والآرامية، التي تعلمت شيئاً منها في المدرسة في طفولتي.»

رفعت عينيها الواسعتين نحو السماء، والهواء ما زال يدّوم بشعرها المتطاير حول وجهها - ويعبث بشعري الطويل أنا كذلك، لأنها شغلتني عن إعادة شعري إلى مكانه. وهتفت : «يا إلهي! يا إلهي!»

عندها شعرت بالحرج. ما الذي أفعل، أو أقول، في موقفي ذلك، مع امرأة تصوّرتها أول الأمر شاعرة، واذا هي تسبح في بحران «إلهيّ» لم يكن مألوفاً لديّ؟ اردت تغيير مجرى الحديث، والنزول به الى مستوى الواقع العادي. فسألتها : «هل صعدت هذا الجبل؟»

إلاّ أنها بقيت في نشوتها، وقالت، متجاهلة سؤالي : «كان دائماً يقول : أنا الطريق... أرجوك، أسمعني العبارة بالآرامية.»

لحسن الحظ، كانت تلك عبارة أعرفها، فنطقت بها كما ارادت.

فأعادت ضمّ يديها الضارعتين بحرارة، وهتفت وعيناها الخضراوان الآن مثبتتان في عينيّ : «يا إلهي! وموعظته على الجبل، أتعرف شيئاً منها؟»

ضحكت، وقلت : «آسف، سيدتي ، إنها طويلة. وأنا الآن غارق في شعر وردزويرث وكولردج وجون كيتس.»

مرةً أخرى رفضت تغيير الاتجاه في حديثنا، وأعادت الكرّة : «قل لي بلغة يسوع : طوبى للمساكين لأنهم سيرثون الأرض.»

وهنا لم أجد بدا من المراوغة، فقلت بالعربية، مشبعاً النبرة ما استطعت في كل كلمة : «طوبى... للمساكين... لأنهم... سيرثون الأرض...»

- «ما أجمل هذه الكلمات!...» قالت ذلك، وتلفتت حولها، والريح تشتد في هباتها، وتجعل لفستانها الأبيض الطويل خفقاً كخفق الاجنحة. ثم رفعت الشعر عن عينيها، كأنها تريد التأكد من رؤيتي بوضوح، وقالت : «وكيف قال بتلك اللغة الجميلة : تعالوا إليّ ايها المتعبون، فأخفف عنكم اعباءكم...»

لا أنكر أنني في تلك اللحظة وددت لو أضمها إلى صدري، وأغمض عينيها بقبلتين وأهمس لها بلغتها العبارة التي ارادت سماعها : فهي ولا شك متعبة، متعبة جدا. غير أنني بقيت محافظاً على رصانتي، ونطقت العبارة بالعربية على طريقتي في العبارة السابقة : «تعالوا إليّ... أيها المتعبون... فأخفف عنكم... أعباءكم...»

وانتبهت إلى أنها تتأمل في شفتيّ وهما تنطقان الكلمات، وإذا هي تفاجئني، فتتلّمس بأصابع يمناها شفتيّ، ثم تمرّرها على خدّي، وترفعها نحو عينيّ، كأنها تبغي التوثق من أنني جسد حقيقي، لا وهمٌ من خلق هلوستها، وهي تكرر : «يا إلهي، يا إلهي...»

ولما رفعتُ يدي لأمسك بأصابعها التي تجوس وجهي، سَحَبَتْها برفق من قبضتي، وجعلت تجسّ بكلتا يديها كتفي وعنقي وصدري... ثم

تراجعت عني، واستمرّت في تراجعها ووجهها نحوي، ويداها مرفوعتان مفتوحتي الأصابع، وهي تمشي إلى الوراء، ولا تخشى التعثر على الحجارة.

أما أنا فقد جمدت في مكاني، مبهوراً ومذعوراً معاً، أرنو إليها وهي تبتعد، وتبتعد، والريح تهبّ حولنا وتدفع بها، حتى توارت في منعطف حجبها عني

هززت رأسي بعنف، اريد أن أدفع عني حيرتي. واستدرت إلى اتجاهي الأول، وسرت بضع خطوات. غير أنني بقيت مأخوذاً بصورتها، وبصوتها، لا استطيع ان انفضهما عني. وخطر لي أن أعود وألحق بها. ولكنني خشيت أن أعرف المزيد عنها. «يا إلهي، يا إلهي...» رحت اكرّر عبارتها. هل حسبتْني رؤيا تجلّت لها، رغم ملامسة يدها لوجهي وصدري، غير مقتنعةٍ بما لمست، وارادت الإبقاء على تجربة الرؤيا، متبعدةً عن اي تماسّ جسديّ آخر معي لئلاً تضيع نشوة الرؤيا؟ هل كنت وهما من اوهامها القدسية تجسّد لها بغتةً، وفارقته قبل ان يفارقها؟

وفجأة، تذكرت الكاميرة. فأخرجتها من جيب معطفي. ودرتُ على عقبيّ وركضت في الاتجاه الذي تراجعتْ فيه. وبلغتُ المنعطف، وأنا ألهث، متوقعاً أن اراها قد جلست على صخرة، ربما في انتظاري، فالتقط لها صورة او صورتين وهي في حالتها المتوفزة تلك.

يا إلهي! لم أر أحداً.

كانت الطريق الوعرة خالية، والريح تصعّد بهبّاتها غشاوات رقيقة من الغبار. أين اختفت؟ هل صعدت في ذلك الشق الصخري إلى الجبل؟

وبتلك السرعة؟ مستحيل! هل كنت أنا رؤيا لها، ام أنها هي التي كانت رؤيا تجلّت لعينيّ في ذلك الجو المشحون بالقصائد التي قرأتها، ثم تلاشت؟ هل كنت ضحية هلوسة غير متوقعة؟

انسحبتُ بسرعة، وعدت إلى ما كنت فيه من السير، لا أروم الخروج من حيرتي هذه المرة. وجعلت أحسّ براحة عميقة لعدم رؤيتي سيدة البحيرات في انتظاري. وتذكرت كريستابل والساحرة الفاتنة جيرالدين. وتذكرت «لابلّ دام سان ميرسي» - الحسناء التي بلا رحمة، التي صورها الشاعر كيتس وهي تجوس الحقول الخضراء بشعرها الطويل وغنائها الغريب، فيلقاها فارسٌ جوّال ويحملها على فرسه. فتأخذه إلى كهفها الجنّي، وهناك تتنهّد بحرقة وتبكي، ويغلق عينيها الهوجاوين بقبلات أربع. فتهدهده حتى يأخذه النوم، واذا هو يحلم بملوك وأمراء وفرسان لوّعهم العشق حتى تضوّروا وهزلوا وشحبوا شحوب الموت، وهم يصيحون به: «الحسناء التي بلا رحمة، جعلَتْك عبداً في أَسرها...» ولما اسيقظ وجد نفسه وحيداً، وراح يهيم على وجهه، وقد ذبل الورد في خديّه، وجبينه في شحوب الزنابق...

ضربت جبيني بقبضتي، غاضباً على نفسي: «لماذا لم أخرج كاميرتي حالما التقتني؟ لماذا لم التقط لها صورة وهي تخاطبني، وهي تغادرني ووجهها الرائع نحوي؟ من سيصدّقني عندما أروي عما رأيت، وما بين يديّ أيّ دليل عليه؟

ولكنني عدت فأقنعت نفسي بأنني حتماً سأراها في الجبل، وقد تسلّقتْ إليه من خلال ذلك الشقّ الصخري. حتماً...

قضيت بقية النهار صاعداً سفح الجبل، وبلغت قمته، ورأيت اناساً عديدين، وطلبت إلى بعضهم ان يصوّرني بكاميرتي. ومن على القمة، ارسلت بصري في اتجاه المنحدرات كلها، ورأيت رجالاً ونساء يتسلقون وينزلون فيها. أما سيدة البحيرات، ذات الثوب الأبيض الطويل، والشعر الاسود المرسل مع الريح، فلم تقع عيناي عليها اينما نظرت. وانقضى النهار ولم أعثر لها على أثر.

ولم أنسَها حتى اليوم.

الفصل الرابع

حكـايتي
مع أغاثا كريستي

حكايتي مع أغاثا كريستي

في اواخر أيلول من عام ١٩٤٨، بعد تفاقم النكبة الأولى في فسطين، انتُدبت رسميا للتدريس في «المعاهد العليا» (أي الكليات الجامعية) في العراق، فغادرت أهلي في بيت لحم وجئت إلى بغداد، وفي حقائبي قليل من الثياب، وكثير من الكتب والاوراق، وعدد من اللوحات الزيتية، التي جعلت أرسمها على قطع صغيرة نسبيا من الخشب المعاكس لسهولة نقلها من مكان إلى آخر.

وبعد أن عُيّنت مدرّساً للأدب الانكليزي في الكلية التوجيهية، التي كانت قد اسست للتو، ووصفت بأنها «نواة» جامعة بغداد المزمع آنئذ انشاؤها، أعطيت غرفةً للسكنى في الكلية التي اتخذت مقراً لها في مبنى ضخم حديث البناء في الأعظمية، قرب ساحة عنتر، صار فيما بعد ، مقراً لكلية العلوم . وكنت أحد اساتذة فلسطينيين ثلاثة أُعطينا غرفاً في مبنى الكلية، لقاء قيامنا ببعض واجبات الإشراف على القسم الداخلي الذي كان يحوي قرابة مئة طالب جاءوا من أنحاء العراق كله، بعد ان تمّ اختيارهم لأنهم الأوائل في مدارسهم، لكي نهيئهم بالدراسة والتثقيف لإرسالهم في بعثات إلى الجامعات الاوربية والأمريكية.

وكان زميلاي الآخران الشاعر محمود الحوت واللغوي فهد الريماوي. وكان يدّرس معنا أيضاً المؤرّخ الفلسطيني زهدي جار الله، اضافة إلى اربعة اساتذة انكليز، كان أبرزهم شخصيةً دزموند ستيوارت،

وقد جاءنا مباشرة بعد تخرّجه من جامعة اكسفورد في الآداب الكلاسيكية - وهو في الرابعة والعشرين من عمره، ومثلنا يكتب النثر والشعر، ويطلب شهرة الأديب. وبسبب الصداقة الحميمة التي قامت بيننا في تلك السنة، والسنوات التالية، اهتمّ بالقضية الفلسطينية*، ومن ثم القضايا العربية، اهتماماً كرسّ له فيما بعد جُلّ وقته، وتعلّم اللغة العربية، وكتب كثيراً، وحظي بشهرة واسعة في انكلترا وامريكا كروائي، وكخبير في القضايا العربية التي ناصرها بحراره وذكاء في كل ما كتب طوال سنيّ حياته اللاحقه.

في يوم من تلك الأيام الأولى لاستقراري في الكلية، كنت في «مكتبة مكنزي» استطلع آخر ما وصل إلى بغداد من كتب انكليزية، واتحدث إلى صاحبها كريم، وهو عراقي شديد اللطف ورث تلك المكتبة عن أصحابها الانكلين، لانه كان يعمل معهم في ادارتها منذ أيام تأسيسها قبل الحرب العالمية الثانية، وغدت له خبرة بما يستجدّ في عالم الكتب الأجنبية، مضيفاً إلى ذلك تعامله مع بعض الكتب العربية، التراثية منها والعراقية الحديثة. وقد أضحت مكتبته هذه في شارع الرشيد (الشارع الأهم في بغداد يومئذ) ملتقى للمثقفين من عراقيين وأجانب، وكلهم على صلة شخصية بصاحبها الذي يتابع اهتماماتهم الفكرية، ويحاول بعناية تلبية ما يطلبون من كتب. وقد أبقى على تسمية المكتبة بـ «مكنزي»، لشهرة التسمية وتميزّها، حتى بات هو نفسه، تجوّزاً ، عرف بكريم مكنزي، وبقيت المكتبة معلماً من معالم المدينة.

---

* في مقدمة كتابه «الفلسطينيون : ضحايا الانتهازية السياسية»، يقول دزموند ستيوارت إنني، حال وصوله الى بغداد للعمل مدرّسا فيها عام ١٩٤٨، كنت الشخص الذي ملأ فكره وأحاسيسه بالقضية الفلسطينية، فبقي يكتب حولها ويوحي منها حتى النهاية،والطريف ان كتابه هذا كان آخر ما كتب، وصدر بعد موته عام ١٩٨١.

رفعت عينيّ عن الكتاب الذي بين يديّ، واذا بي أرى الى جانبي رجلاً يمدّ يده إلى كتاب آخر، وينظر في الوقت نفسه إليّ متسائلاً. فهتفت : «روبرت!» وأجاب : «جبرا!»

- «ماذا تفعل هنا؟»

- «أنت ماذا تفعل هنا؟»

- «أنا أدرّس هنا في كلية.»

- «وأنا أعمل في الآثار.»

واستمرّ السؤال والجواب بيننا، فقد كان روبرت هاملتون باحثاً آركيولوجيا، وكان لبضع سنوات مديراً لمتحف روكفلر للآثار الفلسطينية في القدس، حيث كنّا نلتقي كثيراً، ويجمع بيننا ولع بالآثار الفلسطينية والتاريخ القديم، وكذلك حب الموسيقى والفن، وبخاصة النحت، أو ما كان متوفراً منه في متحف القدس القائم خارج الأسوار، قرب باب الساهرة، وبجوار الكلية الرشيدية التي كنت استاذاً فيها لأكثر من اربع سنوات حتى مقدمي إلى بغداد. ويبدو أنه في اوائل عام ١٩٤٨ غادر القدس، وانضمّ إلى بعثة الآثار البريطانية في بغداد، وهي مؤسسة تعود إلى بدايات العشرينات، كان من ابرز شخصياتها السير آرثر وولي الذي «اكتشف» في جنوب العراق مدينة اور - او بالأحرى ، «المقبرة الملكية» فيها، في حفريات تواصلت من أواسط العشرينات حتى اواسط الثلاثينات، وكانت من أعجب ما اكتُشف من آثار في العالم، بما فيها بقايا الملكة العجيبة شبعاد ووصيفاتها العديدات بكامل حليّهن الرائعة. وألفّ كتاباً مشهوراً عن حفرياته تلك بعنوان «اور الكلدانيين»فلفت انظار

Twitter: @ketab_n

العالم إلى أهمية تلك المدينة العريقة في تاريخ الحضارة الانسانية.

قال هاملتون : «اتعرف ماكس مالوان؟»

قلت : «لا.»

قال : «يجب ان تتعرف عليه، إنه شخصية فذة. لعلك لا تعرف الكثير عن الآثار العراقية. ماكس مالوان يعيد اكتشاف نمرود، وأنا أعمل معه.»

سألته عن نمرود، فأجاب : «عاصمة الآشوريين في وقت ما، في الشمال، كان اسمها القديم كالح... مكان ليس كغيره من الامكنة. تعال وزرنا هناك.»

قلت : «ياليت! ولكنني جديد هنا. وبغداد تشغلني بما يكفي.»

قال : «اسمع سنتعشى غدا في دار مالوان. لماذا لا تتعشى أنت أيضاً معنا؟ سأخبر السيدة مالوان اليوم. وسوف نتحدث كثيراً عن نمرود...»

ولما وافقت على دعوته، سألته : «اين الدار؟»

قال : «إنها دار الملك علي. أتعرفها؟ في كرادة مريم، على شاطىء النهر مباشرة. إنها دار تركية تعود إلى العهد العثماني ومن أجمل بيوت بغداد القديمة.»

وأعطتيه ورقةً رسم لي عليها خريطة تعينني في الوصول إلى هذه الدار القائمة على الضفة الأخرى من نهر دجلة، وقد كانت لمدةٍ ما في العشرينات مسكناً للملك علي، أخي الملك فيصل الأول، فأطلق اسمه على الدار، ملكاً بدون مملكة.

في الساعة الثامنة من مساء اليوم التالي دخلت بوابة الدار إلى باحتها المتميزة بطرازها البغدادي العثماني. والباحة محفوفة بالأشجار والاوراد في وسط بناء من طابقين، يُصعد إلى الأعلى منهما بدرج خشبي خارجي يؤدّي إلى شرفة ضيقة طويلة تمتد مع امتداد الواجهة الداخلية، وتطلّ عليها أبواب الغرف العليا، كان أحدها مفتوحاً ومضاءً في انتظار القادمين.

صعدت الدرج الخشبي، وعلى كل درجة أصيص مزروع، وفي الحال خرج إليّ واستقبلني رجل مربوع القامة في اواسط الأربعينات من عمره، نشيط الحركة، بادي الذكاء، وقال لي على الفور : «السيد جبرا؟ تمام؟ أنا ماكس مالوان.» وجرّني من يدي إلى الداخل ليعرّفني على سيدة الدار، المسز مالوان، التي صافحتني بدورها، وقدمتني إلى رجلين آخرين في الغرفة، قائلة : «المستر روبرت هاملتون، الذي تعرفه، وقد أفرحني أنه دعاك الينا هذا المساء... والمستر سيتون لويد، مستشار دائرة الآثار العراقية.»

وعندما صافحته، مأخوذاً بشيء من المفاجأة، سألته : «هل أنت زوج النحاتة هايدي لويد؟»

فأجاب : «عجيب! أتعرفها؟»

قلت : «إلتقيتها قبل اكثر من ثلاث سنوات في القدس، ولم أنسها، وقد قالت لي إنها تقوم بتدريس النحت في بغداد، وان زوجها أركيولوجي...»

قال ، والمسز مالوان ترمقنا مبتسمة، كأنها تنتظر فراغنا من

Twitter: @ketab_n

اوليات التعارف : «إنه حقاً عالم صغير! حدثتني هايدي عنك عند عودتها من القدس يومئذ، وقالت إنك تكتب الشعر... وترسم. صحيح؟ اعذرني لأنني لم أعرف أنك انت المقصود عندما ذكر لي روبرت اسمك. ولكن من كان يظن أننا سنلتقي هنا، في بغداد!»

وسألته : «أين السيدة لويد؟»

قال : «حاليا في لندن. كفتّ عن التدريس في معهد الفنون الجميلة منذ مدة.»

وسألتني المسز مالوان، وهي تأخذني إلى مقعدي : «ما الذي جاء بك الى بغداد؟»

فقلت بايجاز : «حب قديم، ومأساتنا في فلسطين.»

قالت : «آه، نعم، نعم... تعال حدثنا.أنت على الأقل شاهد عيان...»

وسألني ماكس مالوان ماذا أشرب ثم جاءني بالكأس، وقد عادت زوجته إلى كرسيها الوثير، وأرجعت النظارة المعلقة حول عنقها إلى طرف أنفها، والتقطت شلة الصوف والقطعة المحاكة التي ما كادت تجلس حتى راحت تعمل عليها بسنّارتيها، وقالت مرة اخرى :«نعم، حدثنا. ما الذي بالضبط جرى للقدس العزيزة؟»

خيّل إليّ أنها في اواخر الخمسينات من عمرها، على شيء من السمنة ومتانة الجسم، عريضة الوجه، وعلى ثقة من نفسها مع تواضع المضيّفة الكريمة، واسترسل الحديث بنا عن فلسطين، وركزّتُ على ما جرى فيها من قتل وتشريد واغتصاب للأرض من قبل الصهاينة، بحيث

اخذت السيدة الفاضلة تكرر، وهي تحوك الصوف : «هذا كله يجب ان يعرفه العالم... وبالتفصيل ... يجب ان يكتب المؤلفون عن هذه الفظائع، عن هذه اللاإنسانية التي كنا نقول إن الحرب العالمية ستضع حداً لها... اردنا من الحرب ان تنهي الحروب كلها - ولكن يبدو أننا رحنا من جديد نزرع البذور لحروب كثيرة قادمة. ما هكذا تصفّي الامبراطورية البريطانية نفسها...»

ولم تكن السيدة الفاضلة تعرف أنني وزميلي درزموند ستيوارت، بالاشتراك مع علي حيدر الركابي، نذيع في الليالي من اذاعة بغداد احاديث منتظمة باللغة الانكليزية عن هذه المآسي بالذات، ونستصرخ ضمير العالم. ومن له ضمير حي، فليسمع، وليقل كلمة حق معنا...

وتحدثنا عن علاقة فلسطين بالعراق منذ أقدم العصور. وحدّثوني عن اعمال الحفريات المستمرة في نمرود. وعلمت أن سيتون لويد كتب كتاباً عنوانه «أرض النهرين» تُرجم إلى العربية قبل سنوات، كما كتب كتاباً مشهوراً آخر عن العراق عنوانه «أُسسٌ في التراب» - اشتريت نسخة منه فيما بعد من مكتبة مكنزي، وتعلمت منه الكثير عن تُعاقب الحضارات القديمة في وادي الرافدين - وتبين أنه على وشك الرحيل لاستلام وظيفة آثارية أخرى في أنقرة، بعد أن قضى في العراق عشرين سنة ملأى بالأحداث، وملأى بالمكتشفات.

ووجدت أن علماء الآثار الثلاثة الذين كانت السيدة مالوان تبقي على الحديث بيني وبينهم متواصلاً وممتعاً، كلهم يكتبون الأبحاث الآركيولوجية التي تنشر في انكلترا، وبعضها ينشر في مجلة «سومر»

التي تصدرها دائرة الآثار القديمة ببغداد. وشعرْت أنني حتى تلك اللحظة، وقد دخلت التاسعة والعشرين من عمري، ما زلت اصارع تلك الحمّى الرهيبة، حمّى الكتابة، منذ مراهقتي، ولكنني لم انجز إلاّ روايتين قصيرتين لم أنشرهما، وبضع قصص قصيرة بعضها لم يتكامل بعد، وكثيراً من الشعر احتفظ بمعظمه لنفسي، وعدداً من المقالات، إضافة الى ما كنت اذيعه منها بالراديو، بدأت أنشرها في الأشهر الأخيرة، ولكنها لا ترضيني كثيراً. وقلت لنفسي حين شرعنا بتناول العشاء، إن الشخص الوحيد في تلك الغرفة الذي لا يعاني من حمى الكتابة، ولا يعرف تباريحها وعذاباتها، باستثناء الخادم الذي كان يأتينا بأطباق الطعام باحترام كبير، هو المسز مالوان. حَسْبُها أن تثير هذا النقاش حول الأحداث، المعاصرة والغابرة، وطبائع البشر، وتكتفي بأن تحوك «بولوڤر» لزوجها (الأصغر منها سناً، حتماً) تقيه البرد حين يتعرّض للطبيعة القاسية وهو يستخرج بعناد المحب شواهد التاريخ وأسراره المحجوبة في الأعماق من التلال الشمال - تلك التلال الجرداء التي انطوت احشاؤها على غوامض من منجزات الإنسان لم يبق لنا منها غالباً حتى ذكرها.

وكانوا جميعاً، بمن فيهم المسز مالوان، على وشك السفر إلى الموصل، لاستئناف التنقيب في نمرود، متممين بذلك أعمال الحفريات التي كان هنري لايارد قد بدأها قبل اكثر من مئة سنة، عام ١٨٤٥، ظاناً خطأً أن نمرود هي نينوى، وأدهش العالم بما اكتشف يومذاك من روائع النحت، وحقائق التاريخ.

* * *

التقيت ماكس مالوان وزوجته بعد ذلك مرة أو مرتين في مناسبات

عامة، ولفت نظري أن السيدة مالوان شديدة اليقظة لما يجري حولها، ولمن ترى من أناس.

وفي شهر نيسان من ذلك العام (١٩٤٩)، أقيمت حفلة تمثيلية باللغة الانكليزية في قاعة الملك فيصل الثاني (قاعة الشعب حالياً)، وفي مناسبات كتلك، كنت ترى حولك معظم مثقفي بغداد، من عراقيين وأجانب، لأن المدينة لم تكن بعد قد اتسعت كثيراً عمراناً وسكاناً، وكان المرء يشعر أنه يكاد يعرف كل من يستحق أن يُعرف في المدينة، وأنه بالمقابل معروف لديهم جميعاً. وكان اساتذة الكليات، والخرّيجون الجامعيون (القلائل بالنسبة لما تحقق بعد ذلك بعشرين سنة)، تجمعهم بأعداد كبيرة المناسبات الثقافية، كالمحاضرات العامة، أو المعارض الفنية (على ندرتها)، أو حفلات الموسيقى الكلاسيكية التي تقدّمها الفرقة السيمفونية العراقية الناشئة، أو المسرحيات التي تقدّمها، بوجه خاص، الفرق الزائرة.

وفي تلك الحفلة، في فترة الاستراحة، خرجت مع رفيق لي إلى قاعة المرطبّات كغيري من المتفرجين، وإذا نحن أمام مالوان وزوجته نشرب القهوة (لم تكن البيبسي أو الكوكا كولا قد دخلت العراق بعد)، وعلّقنا على ما رأينا من تمثيل تعليقاً عابراً، وتساءلنا عن نقطة أو نقطتين. ولما عدت إلى «الكاونتر» لأضع عني فنجان القهوة، قابلني دزموند ستيورات وسألني متفكّهاً : «هل وجدتم حلاً للجريمة؟»

لم أفهم قصده، وقلت : «أي جريمة؟»

أجاب : «جريمة من اختراع السيدة التي رأيتك تتحدث إليها.»

- «آسف، ما زلت لا أفهم قصدك.»

- «ألم تكن تتحدث إلى أغاثا كريستي؟»

أدهشني سؤاله، وحسبته ما زال يتندّر، وقلت ببساطة : «كنت أتحدث إلى ماكس مالوان وزوجته.»

وهتف : «ظننتك تعلم! المسز مالوان هذه هي كاتبة الروايات البوليسية أغاثا كريستي...»

- «مستحيل!»

- «اذهب إليها، وتأكد!»

ولكن أفراد الجمهور، بانتهاء فترة الاستراحة، كانوا قد عادوا إلى مقاعدهم في المسرح، وعدت إلى مقعدي، وأنا لا أصدّق ما سمعت. أهذه حقاً أغاثا كريستي التي قرأت لها الكثير من الروايات البوليسية منذ سني حداثتي؟ أزورها، وأناقشها، ولا يخطر ببالي لحظتين أنها أمسكت يوماً قلماً بيدها؟ لم أستطع متابعة النصف الثاني من المسرحية، في انتظار نهايتها، وبدت وكأنها لن تنتهي. إلى أن أسدل الستار أخيراً، وتحرّك الناس مغادرين مقاعدهم بعد التصفيق، بينما تركت رفيقي وأسرعت من بينهم، باحثاً عن المسز مالوان، إلى أن لمحتها عند الباب الخارجي واقفة مع زوجها بانتظار سيارتهما. ذهبت إليها، وسألتها مباشرة : «هل أنت حقاً أغاثا كريستي؟»

ضحكت السيدة الفاضلة، وأجابت ببساطة : «نعم.»

قلت : «يؤسفني جدا انني لم اكن أعلم ذلك.»

قالت : «أحسن، أحسن! متى ستزورنا في نمرود؟»

* * *

بعد ذلك عرفت ان مؤلفة الروايات البوليسية المشهورة كانت قد احتفظت بالاسم الذي اكتسبته منذ ما قبل العشرينات عن زوجها الأول، الكولونيل كريستي. وبعد أن هجرها، ثم مات، كانت شهرتها اوسع من ان تجعلها تتنازل عن هذا الاسم كلما اصدرت رواية اخرى من رواياتها التي راحت تتوالى بانتظام وسرعة، وتترجم إلى لغات العالم، وتدرّ عليها ارباحاً طائلة. ولما تزوجت العالم الآثاري ماكس مالوان، بعد لقائهما في العراق، وبالتحديد في أور، اخذت ترافقه إلى أقطار الشرق العربي حيث كان يعمل، وقيل إنها كانت تنفق من اموالها الخاصة على بعض مشاريعه الآركيولوجيه. وجعلت من بعض تجاربها في هذه الاسفار خلفيات لعددٍ من «الجرائم» المثيرة في رواياتها التي كان يحلّ ألغازها بين حين وآخر البطل الذي ابتدعته لأول مرة عام ١٩٢٠، المفتش البلجيكي هركيول بوارو - كما في «جريمة في قطار الشرق السريع» (١٩٣٤)، و«موت على النيل» (١٩٣٧)، وغيرهما.

وكان الموسم الذي تقضيه مع زوجها في العراق منذ سنوات يبدأ في اواخر الشتاء، وينتهي بعد أشهر ثلاثة او اربعة في اواسط الربيع. ولم تكن تطيل البقاء عادة ببغداد، بل تفضلّ الوجود بين الحفريات وتلالها واكوام ترابها، والعمال والباحثين واللقى الأثرية التي يعثرون عليها بين آونة واخرى. وهناك تكتب، وقد عزلت نفسها، بشكل غريب وغير متوقع، عن المدينة المعاصرة وحياتها، لتحيا في جو من العلاقات والأماكن والشخصيات التي يختلقها خيالها بعيداً عما يحيط بها كل البعد، مكاناً وزماناً وأناساً، بحيث بقي عالمها الروائي عالم سنوات العشرينات - بل شكلاً معينا منه، رفضت ان تغيرّ شيئاً فيه، رغم

التغيرّات الكاسحة والسريعة التي عرفتها المجتمعات والعادات في لندن وعواصم العالم كلها، طوال الثلاثينات والعقود التالية، ذلك لأنه العالم الذي يخدم حاجتها الخيالية، وهذه الحاجة الخيالية الملحّة عليها استطاعت أن تجعل منها متعةً مطلقة ولعبة ذهنية مثيرة للملايين من الناس.

وقد قرأت لها ايامئذ روايتين تقع احداثهما في العراق، هما «جريمة في وادي الرافدين» و «جاؤا الى بغداد»، فوجدت أن الأجواء والشخصيات في كلتيهما لا تختلف كثيراً عنها في رواياتها الأخرى ذوات الخلفيات الانكليزية، اللهم باستثناء بعض الوصف لأسواق البصرة في الواحدة، وبعض الوصف «لفندق زيا» وصاحبه ببغداد في الثانية. فهي لا تدّعي أن همها في ما تكتب همّ اجتماعي أو سياسي أو تسجيلي: انما هي الحبكة البوليسية البارعة تطالبها بتحريك شخوصها ضمن حدود لعبتها الذهنية الأساسية، ولا يبقى للجو المحيط بالحدث شأن يتعدّى ما يقدّمه من دور الخلفية غير المحددة لهذه اللعبة، التي تكاد تكون رياضية صرفاً في تركيبها ومنطقها. على العكس بالضبط مما فعل دزموند ستيوارت في سنوات الخمسينات وما بعدها في رواياته التي جعل احداثها في العراق، ثم لبنان، وأخيراً مصر، فضلاً عما فعله في متابعة الخلفيات المكانية المتباينة جدا في ثلاثيته السلالية «تعاقب الأدوار».

بعد سنتين، وبالتحديد في ٢٢ آذار ١٩٥١، أتيح لي أخيراً أن أرى نمرود / كالح، عاصمة الآشوريين في إحدى فتراتهم العظيمة في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، وكانت قد تأسست قبل ذلك بحوالي اربعة قرون، وقضى عليها الميديون نهائياً حرقاً وتدميراً، عام ٦١٢ ق.م، حين سقطت نينوى، عاصمةالآشوريين التالية، على يد القائد البابلي

نابوبولاصر، والد الملك نبوخذنصرّ، وكان قد مضى على نمرود/ كالح حوالي ستمئة سنة من العمران.

وما زلت اذكر تاريخ تلك الزيارة بالضبط، لأنها جرت في اليوم التالي لأول ايام الربيع، واقترن اليوم في ذاكرتي بتجربة عميقة الأثر في نفسي عند مشاهدتي اطلال حضارة من اروع حضارات التاريخ العربي القديم فناً وعمراناً. وكان رفيقي ودليلي في تلك المنطقة الجميلة من العراق، الصديق المرحوم زيد أحمد عثمان، الذي توثّقت عرى المودّة بينه وبيني، عن طريق الشاعر بلند الحيدري، ومحمود، أخي زيد الأصغر، منذ عام ١٩٥٠، واراد لي ان ارى الشمال برفقته، فهو يعرف كل زاوية فيه، وكل بلدة وقرية، معرفة المواطن الخبير والعاشق لوطنه. وكان أحد النوآب الشباب في المجلس الوطني. وقد كان والده قبله شخصية مرموقة من شخصيات الأكراد، ورئيساً لبلدية أربيل، وعضواً في مجلس الأعيان. وقد شعرت أن زيد أحمد عثمان يقتفي خطى أبيه، مع المزيد من حسٍّ للمعرفة والمعاصرة.

عند وصولنا إلى موقع الحفريات، استقبلنا روبرت هاملتون بحرارة، وبدا في حالة غريبة من الإثارة والفرح. وبادرته بالقول بأنه على غير حاله المعتاد، فقال وهو يقتادنا إلى بقعة من العمل : «طبعا... لقد عثرنا هذا الصباح على لوحة («ستيلا») هائلة... إنها صورة شلمانَصرُ الثالث، واقفاً بامتداد قامته... ها هي . انظرا! تحفة، تحفة ثمينة جداً... أترايان هذه الرموز؟ هذه الكتابة؟...»

كان شلمانَصرالثالث ابن آشور ناصر بال الثاني، الفاتح الكبير

الذي نقل العاصمة من مدينة أشور إلى نمرود في القرن التاسع ق.م. وكان اول من دأب على تخليد اعماله في جداريات من النحت الناتىء في الرخام المحلي، وقد حفرت ببراعة مذهلة بتفاصيها الدقيقة، لكي تبطنّ جدران القصر واروقته بمساحاتها الكبيرة المسترسلة، اضافة إلى التماثيل الضخمة. واستمرّ ابنه على غراره، بحيث امتلأت نمرود بأعمال فنية متفرّدة، تصورّ حياة تلك الفترة. ومنها العاجيات البديعة النقش التي اكتشف الكثير منها ماكس مالوان في بئر عميقة في ركن من احدى باحات القصر، يبدو أنها كانت قد ألقيت فيها، حفظاً لها من أيدي الأعداء الميديين عندما هاجموا المدينة.

لم تكن اللوحة الرخامية التي اكتشفت ذلك الصباح كبيرة، ولكنها في حالة ممتازة، فضلاً عن دقة وجمال نحتها، والتراب ما زال عالقاً على حوافها. وما كدت أمدّ يدي طالباً لمسها، حتى منعني هاملتون ، هاتفاً : «لا،لا، أرجوك! يجب معالجتها علميا قبل ان يلمسها أحد...»

سألته مازحاً عن قيمتها، فأجاب : «لا تُثمنّ بمبلغ... مليون دينار على الأقل، وستكون في الأرجح من حصة المتحف العراقي ببغداد.»

في هذه الأثناء جاءنا ماكس مالوان، مبتهجاً ومنفعلاً كزميله، وقال: «انتما اول مشاهدين «علمانيين» لهذه اللقية المدهشة... والآن، تفضلا معنا. فالمسز مالوان في الانتظار.»

وتحت ظليلة معدنية السقف ممتدة، وجدنا أغاثا كريستي، ومعها سكرتيرتها، واثنان او ثلاثة آخرون من الآركيولوجيين، من ضمنهم الاستاذ وايسمن، الخبير بالمسماريات، وكان قد قرأ الكتابة المنقوشة في

لوحة شلمانصر. وتبينّ انه يقرأ النقوش المسمارية كمن يقرأ العربية او الانكليزية. وكانت الروائية الكبيرة قد هيأت الشاي الانكليزي، مع شيء من الحليب البارد والمعجنّات والزبدة والمربىّ، كأي سيدة في منزلها في لندن، وشاركناهم جميعاً في الاحتفال باكتشاف مهم آخر يضيف تفصيلاً جديداً إلى معرفتنا بتاريخ هذا الوادي العظيم.

ويومها رأيت الغرفة الصغيرة، المبنية من اللبن المجفف بالشمس، التي جعلت منها اغاثا كريستي مكتبتها وملجأها بين الاطلال وتماثيل الثيران المجنّحة، والجداريات الرخامية المنحوتة التي كانت بعض بقايا القصر الملكي، وعلى مرأى من رأسٍ مرمري هائل الحجم ملقى على الأرض ، قال مالوان إنه كان من اول ما اكتشف لايارد من تماثيل هناك عام ١٨٤٥، حين راح العمال الحفّارون يقفزون ويتصايحون حال إخراجه من التراب، قائلين إنهم اكتشفوا رأس نمرود الجبّار...

ولا بد من القول إنني، يوم زرت نمرود للمرة الثالثة او الرابعة في صيف عام ١٩٨٦، اي بعد هذه الزيارة بخمس وثلاثين سنة، وفي عزّ شمس «آب اللهّاب»، مع أعضاء رابطة نقاد الفن في العراق، اصبت مع زملائي بالنشوة القديمة نفسها لرؤية بقايا تلك المنحوتات المذهلة أبدا. وزرنا غرفة مغلقة، فتح لنا بابها الخشبي البدائي احد حراس الموقع، واذا هي غرفة أغاثا كريستي الصغيرة إياها، وقد حُفظت كما كانت في الاربعينات والخمسينات، وقد جعلتها المؤلفة غرفة انكليزية، رغم ضيقها الشديد، بما فيها الموقد الانكليزي (فاير پليس) مع رفه التقليدي (مانتل پيس) ، وفي الموقد تحرق الأحطاب في الليالي الباردة، وهي تخترع في ضوء مصباح نفطي تلك التداخلات والعلاقات الخفية والظاهرة في

«جرائم» تجعل لحبكاتها المعقدّة سحراً يتخطى الزمان والمكان.

وأغلب الظن أنها، في ربيع تلك السنة بالذات (١٩٥١)، كتبت في تلك الغرفة الطينية الصغيرة، مسرحيتها التي سمتّها «المصيدة»، والتي افتتح موسمها بعد ذلك بسنة واحدة في لندن، فنجحت نجاحاً عجيباً، وبقيت فيما بعد تمثُّل كل ليلة طوال خمسة وثلاثين عاماً، فحطمت كل رقم قياسي في العالم بهذا الشأن.

* * *

في أوائل الستينات، وقد تخطت الكاتبة السبعين من عمرها، وكانت زياراتها لبغداد قد جعلت تتناقص، سألتها يوماً : «كم رواية كتبت حتى الآن؟»

فقالت : «أحصيتها منذ مدة، فوجدت أنها ستٌ وخمسون رواية، ولكنني قبل أيام قرأت مقالة عني، يقول فيها صاحبها إنني كتبت اثنتين وستّين رواية... أعتقد ان صاحب المقالة أقرب الى الصواب مني.» ثم اضافت، مستضحكة : «في الواقع، عندما تتخطى الرقم الخمسين، لا يعود للرقم أهمية.»

فقلت : «سيدتي، المهمّ هو ان يكون لدى المرء دائماً ماهو جديد يريد ان يقوله، ويستحق القول. »

وعندها سألتني بمكر لطيف : «وأنت، كم كتاباً كتبت حتى الآن؟»

هززت رأسي ضاحكاً، ولم أجب.

كنت في الواقع قد أصدرت حتى ذلك التاريخ ثمانية كتب، بين موضوع ومترجم، ولكن عندما يتحدث المرء إلى كاتبة ما عادت تحصي كتبها بعد الرقم الخمسين، يكون الصمت على القليل الذي أنجزه المرء فضيلةً لابدّ منها.

الفصل الخامس

شارع الأميرات

شارع الأميرات

لا أشك في أن كل حضارة في التاريخ شهدت أناساً يُعرفون بالمشّائين، من شأنهم أن يحبّوا السير على القدمين كرياضة بدنية ورياضة عقلية معاً، ويجعلون الأولى وسيلة لتنشيط الثانية، فتنطلق افكارهم وهم يسيرون المسافات اثنين اثنين، أو أكثر. وقد يقصرون سيرهم على مسافة داخلية محدودة، في حديقة أو بستان، يقطعونها روحةً وجيئةً، طلباً للمزيد من الأفكار التي يناقشونها من شؤون العقل والعاطفة والمسلكة الإنسانية، ويدركون في مناقشاتهم المشّاءة ما قد لا يتوصلون إليه وهم قاعدون في حجراتهم.

وقد يكون من دأب بعض هؤلاء المشّائين ان يترّيض سيراً على القدمين بمفرده، فتأتيه الأفكار على ايقاع السير، وتتهادى الذكريات، وتتسارع الخواطر، غريبةً أحياناً، جريئة أحياناً، مذهلة كاشفة، مقلقة – بقدر ما لها أن تكون أيضاً مجرّد تداعيات أقرب إلى أحلام اليقظة، التي ما ان يتوقف المرء عن السير حتى تتلاشى.

ونحن نعلم أن الكثير من الأفكار الفلسفية اليونانية تبلورت في أذهان أصحابها وهم يتمشّون ساعات طوالاً في أكاديمية أفلاطون وأرسطو. ولا أشك في أن سقراط، أباهم جميعاً، كان من أعظم المشّائين.

يسعدني أن اقول إنني، منذ بداياتي، من عشيرة هؤلاء المشائين. ففي طفولتي وحداثتي، حتى سن الخامسة عشرة، لم أركب عربةً او سيارة إلاّ مرات معدودات متباعدات، وكانت روحاتي وعوداتي بين الدار

والمدرسة على القدمين، مع زملاء مثلي لا يكفّون عن الحديث والمشاكسة، ونبلغ بيوتنا دائماً منشّطين (ولا أقول متعبين أبداً)، وفينا شهية هائلة للطعام، ما تيسّر منه، وللمزيد من الحديث والمشاكسة، والمزيد من السير في أيما اتجاه.

ولئن كان يقال إن الطرقات التي مشيناها، وملأناها أحاديث من كل نوع، هرّأت احذيتنا دون رحمة، فقد كنا نقول إننا نحن الذين هرّأنا الطرقات بأحذيتنا، بل وفي يوم ما بأقدامنا الحافية، التي ما انقطعت عن السير صعوداً ونزولاً وفي كل صوب.

نشأتي المشّائية هذه أسعفتني كثيراً يوم دخلت الكلية العربية في خريف عام ١٩٣٥، بعد أن انتقلتْ إلى مبانيها الجديدة على جبل المكبّر، في ظاهر مدينة القدس، على مسافة غير قصيرة من طريق بيت لحم. فاذا ركبتُ الباص من موقف قرب بيتنا في «جورة العنّاب» - لا بدّ من قطع مسافة لبلوغه - كان عليّ أن أنزل من الباص عند المفترق، وأمشي قرابة الكيلومترين لأبلغ الكلية. ولا بدّ من قطع المسافة نفسها ظهراً لأبلغ أقرب دكان اتناول فيه الغداء، ثم أعود، وفي المساء يتكرر السعي على القدمين لبلوغ الباص رجوعاً إلى البيت. وكثيراً ما يفوتني الباص، فأمشي الطريق كلها محمّلاً بكتبي ودفاتري.

وفي ربيع عام ١٩٣٦ انقطعنا عن الدراسة، في مدارس فلسطين كلها، بسبب الاضراب المشهور الذي أعلن فيه الفلسطينيون ثورتهم مجدّدا على الانتداب البريطاني، ودام الإضراب قرابة أحد عشر شهراً.

لم تَسِرْ يومئذ في الطرقات مركبة أو عربة أو عجلة من أي نوع. حتى الدراجات الهوائية ساهمت في الاضراب. وهات يا مشي على الأقدام... ولما كان أخي الأكبر مراد ما زال مقيماً في بيت لحم، في الطابق العلوي من منزل بشارع النجمة، يشرف على تلال بيت لحم ووديانها الشرقية، أصبح من دأبي في كثير من الأيام أن أمشي قرابة الكيلومترات العشرة من دارنا في القدس إلى دار أخي في بيت لحم، برفقة أخي يوسف أو بعض اصدقائي، ونحن نتكلم ونتكلم، ونعيد النظر كلَّ مرة في ما نراه في طريقنا من أناس، ومساكن، وصخور، ونباتات وزهور. وقد ألقى في بيت أخي فتاة صبية من الجيران جعل قلبي المراهق يهفو إليها.

وفي إحدى تلك الروحات، صعدت إلى السطح المفتوح، وعلى «الصبّة» الاسمنتية للحاجز الحجري العريض، وبكل براءة، رسمت شاباً يعزف على الاكورديون (كما كنت أعزف في تلك الأيام)، وأمامه غجرية ترقص، وهو «يغني» عبارة خططتها بالانكليزية حوله، تقول ما معناه: «أحلى ما في الحياة، الأغاني والنبيذ والحسان.» ولكن اتفق ان التي رأت الصورة وقرأت الكلمات قبل غيرها، لأنها تعرف شيئاً من الانكليزية التي تعلّمتها في احدى مدارس الراهبات، كانت ابنة مالك الدار، وهي غير التي قصدتُها. فنزلت في الحال إلى زوجة أخي، واحتجّت على ما أسمته بـ «رسالة الغرام» التي نقشتُها على حاجز سطح الدار!

بحكم الضرورة، أو بحكم الاختيار، بقي المشي متعتنا (أنا وبعض رفاقي) وبعضاً من حيويتنا الجسدية والذهنية سنيناً طويلة. ولعلنا، أنا وعلي كمال، في الأيام الأولى من صداقتنا في عامي ١٩٣٨ و ١٩٣٩، مشينا في طرق القدس مئات من الأميال كلما جاء من طولكرم، أو من

بيروت حيث كان طالباً في الجامعة الامريكية - وأنا ما زلت في انتظار الذهاب إلى انكلترا لدراستي - ونحن لا نكفّ دقيقة واحدة عن النقاش والجدل، والكتب العربية والانكليزية في أيدينا وجيوبنا، والأفكار تتقاذف وتفرقع على اللسان، رائعة، جريئة، حول كل ما في الدنيا مما تراه العين ولا تراه، ونَعِدُ أنفسنا بأننا سنحوّلها كلها إلى كتابات لم يعرف مثلها كاتب، ستغيّر الحياة والفكر، وتجعل أيدي البشر تطال أنجم السماء...

وبقيت هذه النزعة متحركة فيّ أينما ذهبت، والاعوام تمرّ. فأنا لست من هواة الرياضة وألعابها، واللعبة الوحيدة التي أحببتها ومارستها وأنا طالب في الكلية العربية كانت التنس، غير أنني ما كدت أترك الكلية وأنا في الثامنة عشرة من عمري، حتى تركت التنس أيضاً، رغم اقتنائي مضرباً جيداً بقي عندي عدة سنين وهو يتحدّاني، ولا أمدّ إليه يدي، حتى في انكلترا بلد عشّاق الرياضة. فالمشي بقي يعوّضني عن كل رياضة أخرى. ولعل السبب هو أنني وجدت منذ صباي أنه يأتيني بالأفكار دون وقفة، فأكتشف ليس فقط جمالات الطبيعة وتفاصيلها الصغيرة الماتعة، لا سيما اذا كان المشي في الحقول (آه ياحقول القدس ووديانها الساحرة!)، بل العلاقات بين الأشياء، بين المجرّدات، بين التجارب التي أمرّ بها كل يوم، قديمها وحديثها. وتنشأ بيني وبين بعض الأمكنة التي اكثر المشي فيها، في كل مرحلة من مراحل حياتي، علاقة حبّ يصعب الحديث عنها كاملاً، كأي علاقة حبّ.

وأذكر يوم جاهرت بحبي للمشي في صباح يوم بارد من أيام الريف الانكليزي، اذ كنت في فندق «دار الضيافة» في ستراتفورد أون آفون، مسقط رأس شكسبير، أتحدث إلى نزيل آخر قال إنه من هواة المشي.

فاتفقنا - وأنا في العشرين من عمري وهو في الخامسة والأربعين أو أكثر - على الخروج بعد الغداء للسير معاً. وفي الموعد المضروب رأيته ينزل من غرفته وقد لبس معطفاً ثخيناً، وحذاءً ضخماً، وتلفّع بلفاف صوفي، وقال لي: «هيا!» أما أنا فلم ألبس إلاّ حذائي العادي، وآثرت ترك معطفي في غرفتي خشية ثقله على كاهلي. وانطلقنا. وسرنا. سرنا بسرعة، ورفيقي الانكليزي اللعين لا يخفف من سرعته، ولا يكفّ عن الكلام. وجعلت، أنا عاشق المشي، انتظر كلمة العودة منه، والأمر لا يعنيه. ونظرت إلى ساعتي، وقلت يائساً: ها! مضت ساعتان ونصف الساعة!» فأجاب: «في النهار بعد بقية.» واستمر في المشي. وما كان لي إلاّ أن أتحجّج بأن عندي موعداً في الفندق يجب ان ألتزمه، فقبل بالتوقف، وضرب على صدره بقبضتيه، آخذاً نَفَساً عميقاً، وقال: «أشعر بأنني رائع! وأنت؟» قلت: «وأنا أيضاً!» واستدرنا عودةً، ومشينا لأكثر من ساعتين أخريين، وصلت بعدهما منهكاً، جائعاً، عطشاً - فقد كان ذلك من أطول المشاوير التي قمت بها حتى ذلك اليوم على نَفَس واحد وبسرعة دونما وقفة. وما زلت اذكر كم كان طيباً الشاي الذي شربته والعشاء الذي التهمته ذلك المساء.

* * *

في ربع القرن الأخير، في مرحلة النضج من حياتي، بعد أن نشأت بيني وبين عدد من الأمكنة علاقة الحب التي ذكرتها، قامت علاقة حب عميق بيني وبين شارع الأميرات في حي المنصور، ما زلت أتمتع بنبضها وإيحاءاتها.

كان من السهل أن أتعرّف بهذا الشارع المتميز بين شوارع بغداد

كلها. فقد كان الشارع الموازي، وعن قرب، للشارع الذي اخترت عام ١٩٥٦ أن اشتري فيه أرضاً (ضمن مشروع سكني، وبأقساط ما انتهيت من دفعها إلاّ بعد واحد وعشرين عاماً)، لكي أبني فيها بيتاً على قدر حاجتي العائلية يومئذ. كان الاستاذ علي حيدر الركابي، رحمه الله، رئيس شركة اراضي المنصور صديقاً حميماً، وهو الذي نصحني بابتياع تلك الأرض - ولم تكن يومئذ إلاّ رسماً صغيراً على خارطة كبيرة - إذ كانت في الأصل جزءاً من بستان فسيح تحوّل إلى منطقة سكنية عصرية، محكمة التخطيط، أنشئت على طرف منها ساحة السباق الجديدة (فتحوّل سباق الخيل بالتدريج من «بغداد الجديدة» إليها)، وأنشىء فيها كذلك يومئذ نادي المنصور، الذي تمّ افتتاحه في مطلع الخمسينات، برئاسة علي حيدر الركابي أيضاً، وكنت من أوائل الأعضاء المشتركين فيه.

لأسباب مادية صرفة، لم استطع إكمال بناء دارنا إلا بعد مرور ست سنوات. ورغم أنني كنت ربما اول من اشترى أرضاً في هذا الشارع، أيام كان مرصوفاً رصفاً بدائيا، وتنتشر فيه الصرائف، وتسرح فيه الأبقار والأغنام، فأنني وجدت أن بيوتاً متباعدة اخذت تنهض على جانبيه بسرعة، وأشجار النخيل المتساوقة في خطيّن طويلين قد نمت واكتملت على حافتي الرصيفين العريضين. وما إن تحولنا إلى دارنا أخيراً في أيلول ١٩٦٢، إلاّ وكان للشارع شخصيته المتميزة، ولا سيما أنني يومئذ آثرت أن أجعل رصيف الدار مزروعةً بالثّيل والاوراد وأشجار الصنوبر، واذا بالجيران يقتلعون الاسمنت الذي كانوا قد بلطّوا أرصفتهم به، ويزرعونها بالثّيل والاوراد. وكانت تلك بداية النهج الذي اتبعه بعد ذلك كل من بنى في حي المنصور في جعل الرصيف جزءاً متصلاً بالحديقة

الأمامية، بأعشابه وأزهاره الموسمية وجهنّمياته.

ويسعدني أن أذكر أن الذي رسم اول تخطيط لداري كان المهندس قحطان عوني، أحد أصدقائي القدامى، وتعود علاقتي الحميمة به إلى أول الخمسينات، قبل زواج أيّ منا، فضلاً عن اشتراكنا معاً في تأسيس «جماعة بغداد للفن الحديث» مع جواد سليم في ربيع عام ١٩٥١. ولكن تخطيطه بقي بلا تنفيذ، لتأخري في الشروع بالبناء، واذا بالصديق المهندس رفعة الجادرجي، في عام ١٩٦٠ يقدّم لي تخطيطا آخر من تصميمه يختلف كل الاختلاف عن تخطيط قحطان عوني. غير أنني (ويا للجرأة التي أخذها عليّ أصدقائي المعماريون!) آثرت في النهاية أن استفيد من التخطيطين، وأحقق تخطيطاً ثالثاً من تصميمي، أقرب إلى ما أبغيه أنا من دار لي ولزوجتي وولديّ الصغيرين، وضمن امكاناتي المالية التي كانت، لسوء الحظ، محدودة، جاعلاً الخطة كلها تعتمد قاعدة من الخطوط المستقيمة المتقاطعة، دون مبالغة في اتساع النوافذ التي كان قحطان عوني، بشكل خاص، يميل إلى جعلها باتساع جدران كل غرفة ارتفاعاً وامتداداً، كأننا في مدينة بيركلي بكاليفورنيا، التي درس في جامعتها فن العمارة، والتي شاءت الظروف أن أذهب إليها استاذاً زائراً، برفقة زوجتي، بعد ذلك بأربع عشرة سنة.

حال استقراري في دارنا الجديدة، عدت إلى هوايتي الرياضية، المشي، واكتشفت أن قربنا من شارع الأميرات جعل الكثير من الناس يطلقون على شارعنا التسمية نفسها. ولكن عن غير حق، بالطبع، سوى ما اعتاد أهل بغداد من إطلاق تسمية يحبونها على شارع ما، وسرعان ما يروحون يطلقونها على الشوارع المجاورة أيضاً. فقبل ذلك ببضع

سنوات كنا نسكن في الأعظمية في شارع يدعى «شارع طه» - قرب جامع ومخفر فاروق - وأدركت يومئذ ان شارع طه الحقيقي كان في الواقع على مسافة من شارعنا، وقد سُمّي باسم الفريق طه الهاشمي الذي سكن فيه سنيناً طويلة، ثم «انتشرت» التسمية على عدد من الشوارع المجاورة له، بما فيها شارعنا. والطريف في الأمر أن شارع طه نفسه كان اسمه الرسمي، حسب لافتة أمانة العاصمة المعلّقة في بدايته، «شارع الخنساء». ولكن الاستعمال الشعبي كان أشدّ التصاقاً به من كل تسمية رسمية، حتى اليوم.

وشارع الأميرات بالذات، انما اكتسب اسمه شعبيّاً من الأميرتين الهاشميتين اللتين كانتا من أوائل من بنى فيه داراً سكنية، وهما الأميرة بديعة، ابنة الملك علي، وهي الأخت الصغرى للأمير عبد الإله، الذي كان وثيق الصلة في الأصل بتحويل البستان الكبير في منطقة الداودي إلى الحيّ الذي أطلق عليه اسم حيّ المنصور. وكانت الأميرة الأخرى هي الأميرة جليلة، ابنة الملك علي أيضاً، وزوجة الشريف حازم. والداران كلتاهما ما زالتا قائمتين، بلونهما المميّز المائل الى الصفرة، وقد اشترى اكبرهما (بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨) تاجر أغنام مشهور حافظ على رونق المدخل والواجهة. أما الدار الأصغر، المجاورة لها مباشرة، فقد تقلّبت عليها الأيدي إلى أن غدت اليوم محلّ مزادٍ علني معروف.

وتسمية الشارع، فيما أرى، موفقة جداً . فهي مأخوذة عن أوائل من سكن فيه أو أشهرهم (وهذه قاعدة اتبعتها مدن كثيرة في أقطار أخرى في تسمية شوارعها الجديدة)، وهي تليق بشارع جميل هو من أجمل شوارع بغداد وأشدّها وقعاً في النفس، يتميّز بانفتاح معظمه من ناحيته

الغربية على امتداد الأراضي المكشوفة التي انشئت فيها ساحة السباق وملحقاتها، كما يتميّز بمبانيه السكنية الأنيقة القائمة على الناحية الشرقية منه، والجزء الجنوبي من ناحيته الغربية. ولئن تظلل أشجار النخيل قسماً من امتداده الجنوبي، فإن معظم رصيفيه مظلل بأشجار اليوكالبتوس الوارفة، وقد علت وكبرت مع الزمن، وما زالت بخضرتها الدائمة على مرّ الفصول تعطي الشارع مهابةً ونضارةً هو أهلٌ لهما، إضافة الى ما يتمتع به من هدوء هو أقرب إلى هدوء الريف، لأن المركبات العامّة تكاد لا تدخله، مما يجعل هواءه - مع انفتاح أحد جانبيه على حقول السباق الخضراء - رقيقاً، عذباً. وفي ذلك مزيد من الإغراء بالتنزّه فيه، فضلاً عن جمال منظوره المستقيم من خلال الأشجار، وهو لا يتعدّى الكيلومتر الواحد إلاّ بقليل، وكونه عريضاً ذا مسارين، وبين المسارين «جَزْرة» تتمايل فيها الجهنميات المتفجّرة بألوانها الحمراء والبنفسجية في أغلب أيام السنة. والمعروف أن مهندساً هنديّاً في البستنة كان يعمل في الحبّانية في الاربعينات ساهم في بستنة هذه المنطقة، واستورد لها من الهند اليوكالبتوس، طارد البعوض، وضروباً شتى من أشجار الزينة الاستوائية التي غدت فيما بعد جزءاً ظاهراً من حدائق المدينة. وكان ذلك استمراراً بتقاليد استيراد فسائل الاشجار والنباتات من الهند بكثرة منذ العشرينات.

ولقد ذكرت شارع الأميرات باعتزاز كبير أيام زيارتي للهند وباكستان عام ١٩٨٨، حين وجدت أن العديد من الشوارع الحديثة في نيودلهي وإسلام أباد، وارفة الأفياء، لأن أفنان الاشجار السامقة على كل رصيفين متقابلين تلتقي في قوس مفتوحة في سماء الشارع، فتوحي

للمرء وسيارته تمخر فيه، بأنه يخترق طريقاً تتهادى من خلال حديقة مترامية.

وما دمنا نتحدث عن الحدائق، فإن في الطرف الجنوبي من شارع الاميرات حديقة كثيفة الخضرة، وعلى شيء من الاتساع، تصله عرضاً بشارعنا، ولها بوّابتان إحداهما تؤتى من شارعنا، والأخرى من شارع الأميرات. وهي ما زالت، رغم إهمالها في الآونة الأخيرة، تجتذب الصبية من محبّي كرة القدم، فيلعبون في إحدى ساحاتها المحاطة بأنواع الورود بعد الظهر من بعض الأيام، وبين الموسم والموسم قد تقيم بعض الفئات الشابة مخيّما فيها، فتضج بالحركة والصياح.

اذكر هذه الحديقة لأنني كنت في أوائل تحولّنا إلى دارنا كثيراً ما آخذ ولديَّ للعب فيها. وآخذهما كذلك إلى شارع الأميرات أيام السباق، وأرفع كلاً منهما على كتفي ليرى، من فوق السياج الحديدي، الخيول وهي تستعرض رشاقتها للمتفرجين، الذين لهم طريقتهم في المراهنة عليها فيما بينهم وهم على الرصيف دون الدخول إلى مباني السباق الرسمية. ونستمتع جميعاً بانطلاقها ووقع سنابكها كلما بدأ شوط جديد، إذ تثير غيمةً من الغبار تسبح معها، وهي تستدير في الحلبة لتكمل شوطها، فيتعالى صراخ المراهنين المحتشدين على الناحية الأخرى في مدرَّجهم، بالغاً ذروةً رائعة من الضوضاء، ثم متلاشيا بسرعة وقد حمل بين ثناياه حسرات الخاسرين ونشوات الرابحين في آن معاً.

ثم جاء زمن، في اواسط الثمانينات، حين بدأت آخذ حفيدتي ديما للتمشي معي في شارع الأميرات، والتفرّج على الخيل برفعها على كتفي، كما كنت أرفع أباها من قبل. ولما بلغتْ العاشرة، أخذت ترافقني في

مشاويري عصر كل يوم تقريباً، ولكن على دراجتها: فترافق سيري أنا على القدمين، وهي تسبقني قليلاً على العجلتين، ثم تعود إليّ لترافقني مسافة ما، ثم تسبقني قليلاً، وهكذا، إلى ان نعود إلى الدار معاً، كل على طريقته.

وكان هذا دأبنا معظم أيام العدوان الثلاثيني، التي شاء الله، ونحن في محنتها، أن يحبونا فيها بطقس مشمس مذهل، يغري بالخروج إلى الهواء الطلق. وقد هجر الكثيرون من سكان الحيّ دورهم إلى القرى البعيدة الأكثر أمناً، بينما بقيت وأسرتي في دارنا. كثيراً ما خرجت بعد الثالثة عصراً للتمشي، وزجاج النوافذ المحطّم بفعل الغارات الليلية يلتمع طوال الأرصفة، فوجدت أنني اذا اتجهت يميناً لأبلغ نهاية شارعنا وأدخل شارع المنصور، كان كل شيء على ما يرام. اما اذا اتجهت يساراً لأبلغ الحديقة التي أسير بمحاذاتها لأدخل شارع الأميرات، انطلقت صفارات الانذار. ولكنني استمر بالسير لوحدي في شمس صاحية رائعة، والسماء زرقاء الأديم أرى أحياناً طائرات الأعداء تعبرها كذبابات كريهة تسعى الى غاياتها القاتلة.

ولن أنسى، وأنا غارق في أفكاري المشّائية كعادتي، في أثناء إحدى الغارات النهارية، كيف فاجأتني شجرة ورد على رصيف قرب دارنا بوردة حمراء كبيرة على ساق ممشوقة باتجاهي، انتفضت تائهة بجمال ما تحمل، وأوقفتني للتأمل فيها: رائعة، جريئة، تتأوّد بحيويتها، وتطالبني بإعجابٍ وحبّ هما من حقها. هنا الحياة النضرة، والوعد بالمزيد من النضارة والحياة، ومن فوقنا الذبابات اللعينة، القادمة من أقاليم الكراهية والموت، تطنّ بنُذُر القتل والوحشية، وتطالب بدمائنا...

لم اكن أنا بالطبع الوحيد الذي تعلّق بجمال شارع الأميرات وشارعنا الموازي له. فقد كان هناك الكثيرون ممن لهم المكنة المالية لشراء قطع كبيرة من الأرض فيهما او في الطرق المتفرعة عنهما - من ١٦٠٠ إلى اكثر من ٣٠٠٠ متر مربع لكل منها - وإقامة دور تلفت النظر بهندستها وحدائقها. وقد أفرحني أن عدداً من أصدقائي المقرّبين، بعد أن تحولنا إلى بيتنا، راحوا يسعون للحصول على أرض بجوارنا او في الفروع التي راحت تتشعّب عن شارعنا وتزدهر. وما أطلّت السبعينات بأوائلها حتى كانوا قد استقرّوا في بيوتهم الجديدة، كل على مسيرة بضع دقائق منا، فنخرج معاً بين الحين والحين في مشاوير رخيّة، هيّنة. فأنا أرفض الهرولة في رياضتي هذه، وأفضل مشي الهوينا، لأن السير السريع، الذي يطلبه الرياضيون، انما هو رياضة تستهدف ذاتها. وأنا أريد من السير الى جانب رياضة البدن، رياضة الفكر والنقاش وتوليد الرأي، وهذا لا يتمّ إلا اذا مشينا على رسلنا إلى ما لا نهاية.

وكان ثمة آخرون لا نعرفهم قد اكتشفوا متعة التمشي في حيّنا هذا، وقد جمع بين الرونق والهدوء وقلة الحركة والمرور. ففي اواخر الستينات وطوال السبعينات بشكل خاص، لاحظت أن ازواجاً من الرجال والنساء يختلفون إلى شارعنا، ولا سيما في العصاري الطويلة، وقد بان عليهم أنهم «غرباء» قادمون من أحياء بعيدة، وأنهم وجدوا هنا مكانا يختلون فيه في تنزههم، حيث لا يعرفهم أحد، ويتجرّاون على السير فيه يداً بد، أو ذراعاً بذراع. ومن حيث لا ندري بتنا نسمع ان شارعنا صار يسمّى بشارع العشاق، يأتون إليه احياناً بسياراتهم، وينزلون منها للسير معاً، او ينتهون الى الحديقة ويضيعون في متاهتها الوردية. ويبدوا أن هؤلاء

العشاق، حال زواجهم، لم يخطر ببالهم أن يعودوا الى مشاويرهم عندنا – والحمد لله. والأرجح أنهم بعد الزواج ما عادوا يتمشون أبداً. وهكذا بقي حينا قليل الحركة، كثير الهدوء، وعشّاقه يتبدلون ولا يتراكمون.

وواقع الأمر أن المتمشّين مع زوجاتهم في شارع الأميرات او شارعنا نادرون جدا، إلاّ اذا كانوا أجانب، نعرفهم من شقرة الشعر وزرقة العيون، وزيّ «التراك سوت» الذي هم أميل الى الهرولة فيه. فزوجاتنا نحن، مهما يحببن الطبيعة، قلما تفكر الواحدة منهن بالمشي على طريقة المشّائين، حتى وإن ارتدت أحياناً «التراك سوت» في أثناء حركتها المنزلية. وزوجتي العزيزة لم تشذّ في ذلك عن الاخريات، وكانت تُعرض عن المشاوير الطويلة، شأنها شأن زوجات أصدقائي كلهم. فكانت كأنها تطلق سراحي كل مرة لكي استوحد على طريقتي، ثم أعود اليها وفي رأسي فكرة جديدة أخذت تتبلور.

وما اكثر ما تبلور، مع مضيّ السنين، من أفكار، مع ما يصحبها من أخيلة وصور، بل وعبارات أحاول بها اقتناص هذا كله، أو بعضه، وأنا أسير في ظلال أشجار اليوكالبتوس، في شارع الأميرات، او في ظلال النخيل في شارعنا التوأم، حيث لا استطيع يوماً أن أغفل عن أن جانبي الطريق يحملان صفين طويلين من أشجار النخيل، ليس فقط تأكيداً على استقامته بل، أكاد أقول، على طراوته، والسّعف تنحني كثيفةً برشاقة المظلاّت الشمسية لتلقي بأفيائها المتعاقبة على عرض الشارع وعرض الأرصفة. وفي الصيف تتوهج من القمم الخضراء «عثوق» التمر، خضراء اولاً، ثم صفراء كعناقيد الذهب، متدلية بسمنتها وسخائها، لتتحوّل في نهاية الصيف إلى ذلك اللون البنّي المغري الذي يعلن أن التمر

قد نضج وحان قطافه. ولكن ليس من يقطفه. فسكان المنازل هنا لا يأبهون له كثمرة تؤكل، ربما لأنه ليس من «البرحي» أو «البَرْبَن» او «الأشرسي» او «المكتوم» أو «سرّة الخاتون»، بل من صنف «الزُّهْدي» المتوفرّ في العراق اكثر من غيره - مع أن تمرته كبيرة وجميلة، واذا ما نضجت كان لها حلاوة ومذاق «التوفي» الانكليزي. فيأخذ بالتساقط على الأرصفة بغزارة، إلى أن تأتي أيام في تشرين يسير فيها المارّة على أرصفة مفروشة بالتمر من اول الشارع حتى آخره، وفي فروعه، وليلتقطه من يريد!

ومع أن القليلين فقط من أهل الحي يهمّهم فيما بعد أن يلقّحوا النخلات التي تظلل بيوتهم، فإن الطبيعة تبقى لها حيلها البارعة في التلاقح والتكاثر، وتعود العناقيد في الصيف مرة أخرى لتتدلّى، خضراء، صفراء ذهبية، لتفرش الأرصفة فيما بعد بسخائها التمري من جديد.

في أول الثمانينات، حين بدأت العمل مع مجموعة من الأصدقاء الأعزّاء، رئيساً لتحرير مجلة «فنون عربية»، ازداد تردّدي على شارع الأميرات، مشياً أو راكبا سيارتي، لإن مكتب المجلة كان في شارع مجاور له. وفي تلك السنوات توالت الكتابات التي، قصيرة كانت أم طويلة، لعلني ما امتحنت معدنها إلاّ في تلك الغدوات والروحات، وظهر الكثير منها في كتبي اللاحقة : «الفن والحلم والفعل» و «تأملات في بنيان مرمري» و «معايشة النمرة».

وروايتي «الغرف الأخرى» كانت ولادتها ونشأتها واكتمالها في شارع الأميرات، وكذلك فصول سيرتي الذاتية، «البئر الأولى»، التي كانت كل مرة تحملني إلى أيام طفولتي ومرابعها، كما بين ذراعي جنّي من

«الف ليلة وليلة» اعتاد اختراق الأماكن القصيّة والأزمان الغابرة. وكنت كلما رجعت إلى الدار لأكتب كالراجع في الوقت نفسه من وديان بيت لحم وتلال القدس، مليئاً بشذا ورؤى تلك الوديان والتلال، مع شذا ورؤى يوكالبتوس شارعنا ونخيله وجهمنيّاته. وروايتي الأخيرة «يوميات سراب عفّان» لم تكن فقط من نفحات هذا الشارع، بل إنها جاءت محمّلة بالكثير من تفاصيله، وألوانه، وأمطاره وشموسه. أما «البحث عن وليد مسعود»، فإن فيها صفحات كاملة ما اتخذت مضمونها وشكلها إلاّ وأنا هائم بين شارعينا.

ولا يقلّ عن هذا أهمية ما راحت الأيام والليالي، منذ اواخر الخمسينات، تتقاذفه من أحداث في حيوات بعض المقيمين في منازل هذا الحيّ، بشارعيه المتوازيين، منها المفرح، وهو كثير، ومنها المأساوي المزعزع، ولعله الأعمّ والأعمق فعلاً في النفس. هناك من استُشهد في الحرب، وهناك من تحطمت حياته الزوجية، ومن هاجر يأساً، ومن جُنّ، ومن قُتل، ومن انتحر. فأن ترى أحداثاً كهذه تتوالى لأناسٍ جاورتهم وعرفتهم وزرتهم وزاروك – فضلاً عن أناس أحببتهم وأحبّوك، يذكرك دائما بأن هذا الجزء الصغير من الحي الذي تسكنه، إن هو إلا خلية واحدة من مجتمع قد يبدو ساكناً على السطح، غير أنه في العمق يفور كالمراجل، والعواطف الانسانية فيه كالبراكين في أعماق المحيط، لا تراها العين، ولكنها بين آنٍ وآخر تنفجر، وتقذف الأمواجَ طوفاناً فجائياً يغرق فيه من يغرق. وكل طلعة للتمشي في نهار مشرق أو ملبّد بالغيوم، انما هو تأمل مستعاد في هذا العالم الأصغر الذي احتوى في قلبه العالم الأكبر مركزًا، بكل تقلبّاته ونشواته وجنونياته. واذا السكّان يتبدلّون في

بعضهم، واذا الدور تباع في بعضها لمشترين جدد، ثم تُهدم ليعاد بناؤها وفقاً لأذواق الأثرياء المحدثين. وتبقى الأعماق في فورانها كالمراجل.

مع كل ما رأيت وأرى من الأيام في حياتي الخاصة من مسرّات وآلام، من أفراح وأحزان وحب وقلق، تنسج لي جميعاً على نَوْلها كل مرة قماشةً جديدة / قديمة، فإنني أبقى أطلب الرياضة الذهنية والترويح الخلاّق في مشاويري المتتابعة. لعلني مع الزمن قد غدوت أبطأ في السير مما كنت فيما مضى، ولكنني ما زلت من المشّائين إياهم، ما دام للساقين عضلاتهما التي لا تخذلني الخذلان كله.

وهنا لا بدّ لي من ملاحظة صغيرة، ما كنت لأسجّلها على ذوي الأمر لو لم يكن لي هذا الحب المقيم: لماذا، بحق السماء، بُلِّطت أرصفة شوارع الحي بأجمعها تبليطاً جيدا ناعماً يسهل المشي عليه، ولما جاء دور شارع الأميرات، في أواسط الثمانينات، أعيد تبليط متن الشارع بتقنية وكفاءة عاليتين لسير السيّارات، ولكن أرصفته عوملت بجفاء وغلظة، وبأقل ما يمكن من المبالاة؟ فقد قُذفت هذه الأرصفة بمزيج من الاسفلت والحصى - ولكن أي حصى! لقد رُصفت في رُقَعٍ عشوائية غير متساوقة، كلها تكتّلات ونتوءات واضطراب في المستوى، لن نجد مثلها إلاّ في الطرق الجبلية الوعرة، ويصعب السير عليها. فنضطر نحن المشاة، تجنبّاً للأذى، أن ننزل من الرصيف إلى حافة الشارع الملساء المريحة، ونشاطر السيارات طريقها، محاذرين خطرها الداهم.

وإلى هذا كله، اكتسبت هذه الأرصفة العريضة مع مرور الزمن ركاماً من اوراق اليوكالبتوس اليابسة وأغصانها الساقطة ولحائها

المتهافت، فضلاً عن شظايا الزجاجات، والصفائح الفارغة، ونفايات من كل نوع يخلّفها المراهنون على الخيل بعد الظهر من أيام السباق الثلاثة كل اسبوع، وليس من يهتمّ فيما يبدو، إلاّ اذا أسقطت الريح في يوم عاصف شجرةً كبيرة نخرتها السنون، وسدّت الطريق بكاملها. أوليس للسابلة والمشاة، بمن فيهم طلبة احدى المدارس الكبيرة المجاورة، من حق في سير مريح على أقدامهم، كما للسيارات والحافلات على عجلاتها؟

* * *

في يوم مضى كنت أتساءل، كلما فرغت من تهيئة كتاب جديد: كم فنجاناً من القهوة شربت على هذا الكتاب؟ وكم غليوناً دخّنت، وكم اسطوانة وشريطاً من الموسيقى سمعت؟

وفي السنوات الأخيرة ادركت أن عليّ ايضاً أن أتساءل: وكم كيلومتراً في كم طلعة وطلعة مشيت في شارع الأميرات لأكتب ما كتبت؟

الفصل السادس

في اثني عشر مقطعاً

لميعة والسنة العجائبية

أحاولُ ، أحاول كل يومٍ
أن استعيدك من مملكة الغيبِ
منتفضةً، ضاحكةً، كما
كنت دوماً تنتفضين وتضحكين
أيام جنونك معي وجنوني،
كأنما الحياة، رغم فواجعها، بقيت
نكتةً هائلةً لا تستحقُ منّا
بعد البكاء إلا الضّحِك .

بلمسة سحرٍ من يديكِ
تجعلين من سبع وَرَداتٍ
حديقةً تهلهل،

ومن البيت الواحد، بيتِنا،
تجعلين قصيدةً للعين
تتجدّد كلّ ضحىً
إيقاعاً ومعاني .

فلتعودي بين يديّ وأنتِ
تغنّين وتصفقين
وتقرأين لي شعراً
والردنان من ثوبك ينحسران
من على كتفيك ليُبرزا
عُنُقــاً أسميّه
أروعَ عُنُــقٍ ببغدادَ على
أروعَ كتفين حلم يوماً بهما
نحّاتٌ عبقريٌّ في بابلَ أو أثينا .



لميعة

تخطيط بالحبر بريشة المؤلف (١٩٥٢)

لميعـــة
والسنة العجائبية

(١)

كانت السنة الأكاديمية ١٩٤٩ - ١٩٥٠ هي الثانية بعد مجيئي الى بغـداد للعمل استـاذاً للأدب الانكليـزي في كليـة الآداب والعلوم، التي أُنشئت في تلك السنة بالذات . وقد شهدتْ تلك السنةُ انفتاحي العريض على بغداد، او انفتـاح بغداد عليّ، بشكل مـا كنت أتوقعـه، أو أحلم به. ففيها رحت أتعرّف على أناس كثيرين، رجالاً ونساءً، في شتى مجالات الحياة الثقافية والاجتماعية - امتداداً لما جرى في السنة التي سبقتها. ولكن الحلقات اتسعت الآن، والمسالك تشعّبت في كل اتجاه.

لقد جعلني ذلك في نشاط دائم، موزّع بين مهامّ التدريس وبين متعات اللقاءات، إضافةً إلى الكتابة والرسم والمحاضرات العامة في اماكن مختلفة، والترجمة أحياناً، وبخاصة لمجلة المجمع العلمي العراقي.

كنت أقوم بالتدريس في قسم الأدب الانكليزي في كلية الآداب، وهو القسم الذي أسستـه منذ بداياته في خريف ١٩٤٩ مع زميلي دزموند ستيوارت، بإشراف العميد يومئذ الدكتور عبد العزيز الدوري وكنت أحاضر كذلك في دار المعلمين العالية، أيام عمادة الدكتور عبد الحميد كاظم، وفي كلية الملكة عالية للبنات، أيام عمادة السيدة أمت السعيد،

ومباني هذه الكلية عبر الشارع من مباني كلية الآداب . أما دار المعلمين العالية، فكانت على شيء من البعد : فكنت حالما انتهي من محاضرة لي في «الآداب» او «الملكة عالية»، استقلّ عربةً بحصانين من العربات التي كانت ما تزال تملأ شوارع بغداد وطرقاتها، فأستلقي على مقعدها الجلدي العتيق وهي تخبّ بي بايقاع منعش إلى دار المعلمين، حيث أصل في أقلّ من عشر دقائق، ولا يطلب الحوذيّ مني اكثر من خمسين فلساً (أي درهم واحد، والدينار عشرون درهماً)، وكثيراً ما يقترح أن ينتظرني ريثما أفرغ من محاضرتي ليعيدني إلى قاعدتي في «الآداب» لقاء درهم آخر.

في كل من هذه الكليات كنت اساهم في نشاطات الطلبة، الذين أنشأت لهم جمعيةً للمناظرات، بالعربية وأحياناً بالانكيزية، وأخرى للمسرح، وثالثة للموسيقى. وكثيراً ما يأتينا ضيوفاً عليها مثقفون من المدينة، وطلاب واساتذة من كليات أخرى. وأشرفت يومئذ على مرسم جديد في كلية الآداب لهواة الرسم من الطلاّب ارسم فيه أنا أيضاً معهم، إلى ان استلمه مني الاستاذ حافظ الدروبي حال عودته من دراسته الفن في انكلترا (وكوّن من هؤلاء الهواة بعد سنتين أو ثلاث «جماعة الانطباعيين»، التي ضمّت من الذين بدأوا معي في المرسم فنانين اشتهروا فيما بعد، كمظفّر النوابّ، وحياة جميل حافظ ، وعبد الأمير القزاز، وانتمى اليهم لاحقاً فنانون، بعضهم هواة، اشتهروا هم أيضاً، كالدكتور علاء بشير وياسين شاكر).

في أثناء ذلك كنت أواصل نشر ما أكتب من قصة او مقالة او قصيدة في مجلة «الأديب» البيروتية (لصاحبها البير أديب)، التي كانت

آنئذٍ ببغداد مثار اهتمام كبير، لاستقطابها الشباب والمجددين من الوطن العربي . ولست ادري كيف كان يتسع لي الوقت أيضاً، في تلك السنة، لاعطاء دروس خصوصية لبعض الفتية والفتيات في غرفتي في «فندق بغداد» -وكان يومئذ فندقاً من الدرجة العاشرة في شارع الرشيد، على طرف من حي «المربّعة»، قرب سينما الزوراء الشعبية، التي يأتيني منها في الليالي ضجيج موسيقى وحوارات الأفلام التي تعرضها بأبخس الأسعار.

تلك الغرفة الصغيرة، المطلّة على حوش الفندق الداخلي،وهي تكاد لا تتسع لفراشٍ (ضيق)، وكنبة قديمة، وكرسي مستقيم الظهر، ومنضدة للكتابة (كنت اشتريتها بنفسى بدينارين ايام بدئي العمل قبل سنة)، مع مدفأة من نوع «علاء الدين»، استعملها أيضاً لصنع الشاي والقهوة في ابريق معدني كبير - تلك الغرفة التي زينت جدرانها بلوحات زيتية كنت رسمتها في القدس وبيت لحم، مع لوحات جديدة أخذت تتزايد، كانت ملتقى للعديد من أنبه أدباء العراق وفنانيه واساتذته في تلك السنة، ممن تتراوح أعمارهم بين الثانية والعشرين والثانية والثلاثين، ولا تخلو يوماً من نقاش ساخن حول ما يكتب ويرسم، في بغداد، بل العواصم العربية كلها - بقدر ما يأتينا منها من أخبار.

كان من بين هؤلاء بلند الحيدري، وعدنان رؤف، وحسين مردان، وحلمي سماره، وجوادسليم، ودزموند ستيوارت، وخالد الرّحال، ونزار سليم، وعبد الملك نوري،ونجيب المانع، وزهدي جار الله، ويوسف عبد المسيح ثروت، وغيرهم كثيرون . وكنّا أيضاً على مرمى حجر من «المقهى السويسري»، الذي يقدّم القهوة مع الحليب ، ودندرمة «كاساته»، وتتردد

عليه السيدات من كل الأعمار، على غير عادة المقاهي في تلك الأيام. وفيه غرامفون كهربائي وضعت على جانب منه اسطوانات لباخ وبرامز وتشايكوفسكي لمن يريد أن يسمعها. وبجواره «المقهى البرازيلي» المشهور، وهو اكثر تقليدية من «السويسري»، ويتسع لروّاد كثيرين معظمهم من مثقفي البلد وشخصياته الفكرية والصحفية. كان يديره سوري عريق يسرّه أن يخالط الجلساء، يعرفهم باسمائهم واحداً واحداً، ويقدّم أفضل قهوة تركية في المدينة من بنّ برازيلي سُمّي المقهى به. بل إن عنده أيضاً من يحمصّ البنّ ويطحنه لمن يريد أن يشتريه، فكانت رائحته المسكرة تعبق في حي «المربّعة»، على امتداد شارع الرشيد. (ولعله كان الوحيد ببغداد الذي يتعاطى بيع البن الطازج، إلى ان شاركه في ذلك «قبطانيان» في حانوت قريب، بقيت أشتري منه البن وتبغ الغليون لسنوات طوال.)

وكان بعض الأدباء لا يرتاح، حين يأتي إلى «البرازيلي»، إلاّ إذا جلس في الصف الأمامي من الكراسي مواجهاً الشارع، الضاجّ دوماً بمشاهده وبشره وألوانه، المتغيّرة أبداً، بعرباته وسياراته، وصيحات بائعي اوراق اليانصيب: «خمسة آلاف دينار! خمسة آلاف دينار!» ولا تنقطع فيه الجلبة حتى قرابة منتصف الليل، ولا سيما أن بجواره ملهى ليليا مشهوراً تغنّي فيه عفيفة اسكندر*.

وقد عرّفني عليها، بطلب منها، في هذا الملهى، دزموند ستيوارت، إذ

* من يرجع إلى قصيدتي «بيت من حجر» (في مجموعتي «تموز في المدينة») يجد بعضاً من هذا الجو، وبعضاً من الحالة النفسية التي حاولت يومئذ الإيحاء بها في هذه القصيدة، وقصائد أخرى زامنتها.

كان يعطيها دروساً خصوصية بالانكليزية، فوجدتها - لدهشتي - شابةً نيّرة الذهن، توّاقة للمزيد من المعرفة والثقافة. وكنّا نتباهى، أنا ودزموند، ضاحكينْ بأننا الرجلان الوحيدان ببغداد اللذان، اذا ذهبا إلى الملهى، كانت «الفنانة» التي تجالسهما هي التي تسقيهما على حسابها، وليس العكس!

في اوائل حزيران من ذلك العام ١٩٥٠، أي عند نهاية السنة الأكاديمية، تهيأت لمغادرة بغداد، وفي حضني كيسان ورقيان، قدمهما لي أصدقائي، من التفاح العراقي الأخضر الصغير، المتميزّ بحموضته البابلية التي كنت أحبها، وانطلقتُ في رحلة الصحراء الشاقة الطويلة عن طريق الرُّطبة، لقضاء الصيف في دارنا ببيت لحم، والضفة الغربية يومئذ قد غدت جزءاً من المملكة الأردنية الهاشمية. ولكن قبيل مغادرتي، كانت كلية الآداب والعلوم قد جدّدت عقدي معها لسنةٍ ثالثة، بل زادت راتبي أيضاً زيادة سخية، ودفعت لي مقدّماً رواتب أشهر الصيف جملةً واحدة. فتأكدت عندها من أن وضعي المادي قد تحسّن بما يكفيني لأن استأجر، على مسافةٍ قصيرة من فندقي العتيق، غرفةً كبيرة ذات شرفة خاصة على الشارع في بنسيون أنيق شديد النظافة تملكه سيدة يونانية تدعى أثينا، دمثة جداً ومحافظة جدّاً. والبنسيون في الطابق الأعلى من عمارة حديثة، ومجاورة لأحد فنادق بغداد المعروفة، تايكرس بالاس، وعلى بعد خطوات من اكبر وأهم فندقين عرفتهما بغداد في تلك الآونة، هما «سمير اميس» و«السندباد»، المطلينّ كليهما على نهر دجلة. وهناك، وبخاصة في «السندباد»، كنت أتناول معظم وجبات الغداء والعشاء، واستضيف اصدقائي كلما دعت الحاجة.

ولكن أهم ما تحقق في تلك السنة هو أنها، بعد عودتي من بيت لحم، في مطلع تشرين الأول لاستئناف العمل، مهّدتْ بنشاطاتها ورجالها ونسائها، للسنة اللاحقة، ١٩٥١ - تلك السنة التي جاءت مذهلةً، في وسط اجتماعي كثير الفوران، بثرائها الفكري وسخائها العاطفي، تلك التي كانت في حياتي، وعن حق، «أنوس ميرابيليس» annus mirabilis السنة العجائبية، وقد بلغتُ فيها من العمر الحادية والثلاثين.

غير أنني هنا سأركّز على خيط رئيسي واحد من خيوط كثيرة تواشجت في نسيج تلك السنة، يستحق كل منها، لو أتيح للمرء زمن لا ينتهي، متابعة خاصة لإبراز جمال النسيج الكلي وتعقيده. وهذا الخيط هو التقائي بالمرأة الأروع في حياتي، تلك التي جعلت لكل ما حدث لكلينا آنئذ، وفي السنين اللاحقة، سحراً تتمحور فيه معاني الحياة، ليس فقط كأناس وعلاقات متداخلة يُغني بعضها بعضاً، وليس فقط كتجارب متواترة تعاش بكل لذاتها وعذاباتها وتناقضاتها، بل كابداعاتٍ أيضاً تعطي التجربة كل مرّة قيمتها العميقة، وتفرّدها الدائم.

* * *

إلى ا -

إلى كلماتي تصغين أنطقها

بلسانٍ أجنبيّ، وتحاولين

فهم معانيها : وعيناك المسحوبتان

تتسعانِ وتلتمعانِ عند كلّ حركةٍ مني:

وأعلمُ أنك تُصغين مشغولة الذهن
بما أصف من «نغماتٍ ترتعش»،
و«الروحُ بكل لوعاتها»،
و«أزرقُ الآفاقِ النائية» - فتحدوكِ
أحياناً على ان تبتسمي ابتسامةً
طريّةً، نقيةً، لن تصدر إلاّ
عن سنيك الثماني عشرة من حسنٍ
كأنه البلّور .

ولكم تمنيتُ لو انك انتِ التي
تتكلمين، وأنا الذي أصغي،
رغم علمي ان كلَّ حركةٍ من شفتيكِ،
وخصلاتُ شعركِ تدفعينَها
بيدٍ بيضاء كزهرة، ستُغَيِّمُ
عليّ فهمي : وعندها
لن أفهمَ إلا بعينيّ، فأحاولُ
بكل نظرةٍ مني أن أحلَّ مسألةً أخرى
من مسائلِ الجمال التي
لن تنتهي.

بهذه الكلمات وصفت، بالانكليزية، جمال إحدى تلميذاتي في اواخر

عـام ١٩٤٩، ولست اذكـر إن كنت أعطيـتـهـا القـصـيـدة. والأرجح أنني «عقلت» واتخذت الحذر، فلم أطلعها عليها إلا بشكل موارب، كأن أكون قرأت القصيدة لجمع من الطلاب هي فيه - والغزل العربي إذا جاء شعراً (ولو بالانكيزية) أمـر مغفور، وكثيـراً ما رايت حتى الشيـوخ المعـممِّين يتلّمظون به أمام الآخرين، لعل الحسناء المقصودة يبلغها شيء منه.

وقبل هذه القصيدة بأيام كنت قد كتبت أخرى، على عكسها تماماً، شديدة المرارة، أشكو فيها :

هذه الوجوه المائجة، هذه العيون التي

لا يُعدُّ عديدُها، لرجالٍ، رجالٍ، رجال

أينما تلفتُّ : يا لرُعبها!

واشكو التـبـجحّ الذي اسـمـعه، والقبح الذي يـهاجـمني، من كلمـاتٍ طنينها دوماً مستمرّ، فأقابلها بصمتٍ تعلمتُ أن املأ به نفسي، «صمتٍ عميقٍ عمق مياه دجلة الجارية».

وكان عليّ أن أَنشُد حسناً رافقته في سنواتي الماضية، ثم وجدتني لقرابة سنتين اثنتين، وأنا في محنة الشتات والغربة، قد كدت أنساه.

ولا ريب أنني طوال السنة اللاحـقـة رحت أتمتع بوهـج مـا، بسـبب إحساسي بما راح يحيط بي أخيراً من هذا الجمال الفتيّ الذي يتبدىّ لي في حالة غَسَقيّة بين الوهم والحقيقة، المسه ولا المسه، ويتيح لي أن أعرف فيه ذلك الجموح الحسّي المتأججّ شباباً ونضارة - ذلك الجموح الذي لم أكن أدري هل أنا فيه المطارِد ام الطريد .

* * *

كانت تضحك، تضحك، كأنها تعلم أنّ في ضحكتها سحراً لن يقاومه أحد، وحملت تحت إبطها مضرب التنس، مرتديةً تنوّرة بيضاء قصيرة تبرز حسن ساقيها وركبتيها، وقميصاً أبيض قصير الردنين مفتوح العنق، وحذاءً مطاطيًا، وكان في يدها كيس ورقي صغير مليء بحبات النبق الذي ينضج لونه الأصفر البرتقالي وتشتد حلاوته في الربيع، ونحن في آخر يوم من شهر آذار ١٩٥١: وهل أنسى ذلك التاريخ الذي حسم لي مسار حياتي؟ لقد ملأتْ عينيّ كما لو ان سيدات لوحات النهضة الإيطالية والاهاتها، كما لو ان نساء رسامي العالم كله، الطائرات الخصلات في الهواء، العابثات بين الاغصان، الراكضات حول أشجار الورود، تجسّدن أخيراً في امرأة واحدة، امرأة واسعة العينين السوداوين، مع عقصتين من شعرها القصير تعبثان على جبينها، منحوتة الشفتين المرجانيتين، وأسنانها تعطي ضحكتها وهج اللآلىء التي تغنىّ بها الف شاعر عربي، فملأت عينيّ، وملأت صدري، وملأت كياني كله، بفتنةٍ لم أكن مهيّاً لها. كانت تأخذ نبقة واحدة من كيس الورق، وتقذفها رأسيا في الفضاء، ثم تفتح فمها والنبقة تسقط لتتلقّفها بين أسنانها الضاحكة وأنا أرقبها مأخوذاً، وهي تكرّر قذف حبّات النبق عالياً في الهواء وتلقُّفَها بين اسنانها الرائعة.

«لميعة!لميعة!» صاحت ساهرة . «كوني جادّة، ولو لحظة واحدة ... ولأقدّم لك – »

فتوقفت لميعة عن العبث بالنبق، لتقول : «أعرف، أعرف... الأستاذ...

أراه كل يوم في دار المعلمين والطلاب والطالبات يحيطون به كالطوق. وبخاصة الطالبات... تشرّفنا، استاذ... هلو عدنان.. أين نهاد؟»

وتبين أن صديقي عدنان رؤف كان رفيق عامر، أخي لميعة في الدراسة بكلية الحقوق حتى تخرجهما معاً، وهو صديق العائلة منذ تلك الأيام . أما نهاد فكانت فتاة مسيحية جميلة، وإحدى صديقات لميعة المقرّبات منذ أيام الدراسة الجامعية، وقصة عدنان معها يومئذ مشهورة بحزنها.

بسرعة، بسرعة عجيبة، التأم جمعنا : أنا وعدنان، ومعنا ثلاثة أصدقاء او أربعة آخرون، أحدهم أيضاً يدعى عدنان، وهو قريب العهد بالعمل في المحاماة، والآخر محمود الحوت، الشاعر الفلسطيني الذي كان من زملائي في كلية الآداب والعلوم، وفي مركز الاهتمام منا لميعة وساهرة، نوجّه اليهما كلامنا وتعليقاتنا، وتجيبان بطلاقة وخفّة ظل. ولما كانت كلتاهما تحمل درجة الماجستير في الأدب الانكليزي، وتقوم بتدريسه جامعيا، وعدنان رؤف يتمتع بإظهار قدرته بالانكليزية التي تعلم دقائقها بجهده الخاص ، فقد رحنا نتطارح العبارات والنكات بالانكليزية – الأمر الذي ولا ريب أزعج زملاءنا الآخرين.

ولم نتردد طويلاً، واقترحنا بصوت منخفض، وبالانكليزية، أن نذهب أنا وعدنان رؤوف ولميعة وساهرة للعشاء في فندق السندباد – دون الآخرين، بالطبع . وتحايلنا، بما ظننّا أنه براعة المتآمرين، في الخروج بالآنستين إلى بيت لميعة الذي كان على مسيرة خمس دقائق من ساحة عنتر (التي بنُي عليها النادي الأولومبي)، لكي تبدل ثيابها، ثم انطلقنا في سيارة أجرة باتجاه شارع الرشيد.

وما إن دخلنا فندق السندباد، وأخذنا امكنتنا في قاعة الطعام، حتى رأينا إثنين من الرفاق الذين غادرناهم في النادي يدخلان، ويتوجهّان نحو غرفة البار، ويجلسان قرب المدخل يراقباننا، وملؤهما الغيظ! ولكن من مناسيقلقه أمر كهذا، في لحظة كتلك، وقد استطعنا أن ننفرد بمن نريد حول مائدة الطعام؟ وكان عشاءً هائلاً : أول وجبات العشاء والغداء التي سنتناولها فيما بعد معاً، أنا ولميعة، في هذا المطعم، ومن أيدي هذين النادلين بالذات، الياس وحنا، أشهراً طويلة، بل سنوات.

كانت ساهرة قد عادت منذ أسابيع من أمريكا، وهي إحدى مدرّسات الأدب الانكليزي في كلية الملكة عالية، حيث التقيتها بحكم ظروف العمل، وبعد بضعة أيام من رجوعي من سفرةٍ مثيرة إلى شمال العراق ، تجولت فيها لأول مرة بصحبة زيد أحمد عثمان، بين عدد من مدنه وقراه ومعالمه الآثارية، بما في ذلك اربيل والموصل ونينوى، ونمرود حاضرة الآشوريين القدامى، وشاهدت حفرياتها المذهلة بصحبة أغاثا كريستي وزوجها مالوان، وكنت مهيئاً للمزيد من المشاهدة والكشف، والاستغراق في متعة العين ومتعة الذهن . سألتني ساهرة، حين علمت أنني أحاضر أيضا في دار المعلمين العالية (إضافة إلى عملي في كلية الآداب والعلوم) : «هل التقيت صديقتي لميعة العسكري في دار المعلمين العالية؟» ولما أجبت «لا أظن»، قالت : «مستحيل ان تفوتك... فتاة سمراء، واسعة العينين، سبقتني في العودة من الدراسة ببضعة أشهر، وتعينّت هناك».

وفجأة سألتها : «هل تقصدين تلك الاستاذة السمراء، جهمة الوجه، التي لا تبتسم لأحد، حتى للرغيف الساخن؟»

ضحكت ساهرة مندهشة : «جهمة الوجه؟ لا تبتسم؟ إنها أمرح فتاة أعرفها!»

وتذكرت كيف أن هذه الاستاذة الشابة كانت تجلس، ذات مرة، على مقربة مني في فترة الاستراحة بين محاضرتين، في غرفة اساتذة القسم الانكليزي، في دار المعلمين، وأنا أتحدث إلى رئيس القسم، البروفسور زبَدي، عن قاصّ امريكي مشهور كان توفي قبل مدة، اسمه ديمون رَنْيون، وكتابه الطريف (Guys and Dolls).

فالتفتُ إلى السيدة الجالسة على يميني وسألتها بالانكليزية، وبكل براءة، رايها فيه، لأُشركها في الحديث، فما كان منها إلاّ ان زادت عبوساً، ودون ان تنظر إليّ أجابت : «لاأعرف عنه شيئاً» ولهجتها توحي بأنها تقول «لا تتشاطر عليّ!» ونهضت ، وتركتنا.

رويت هذه الحادثة لساهرة، فضحكت مرةً أخرى، وقالت : «تمثيل، استاذ، تمثيل! لميعة رفيقتي من أيام الدراسة، وذهبنا معاً إلى امريكا – ولكنها سبقتني في العودة، لأنها أشطر مني . »

وانتبهت إلى ان ساهرة شقراء، ملوّنة العينين، في حين أن رفيقتها سمراء سوداء العينين، وبدا أنها أحسّت بما جال بخاطري، وقالت : «كنا مترافقتين أبداً، فيسمّوننا «بلاك اند وايت» (باسم أحد اصناف الويسكي المشهورة)... اسمع. غداً نفاجئها في النادي الأولومبي، فهو اليوم الذي تلعب فيه لميعة التنس هناك، أتأتي معي؟ ستجد هناك الكثير من أصدقائك أيضاً ولا شك...»

* * *

أثرنا هذا الموضوع، ونحن على مائدة العشاء فقالت لميعة : «أكثر

الطلاب الذين أقوم بتدريسهم شباب، بعضهم يقاربني سناً، إن لم يكونوا أكبر مني . وعليّ أن اكون شديدة الحذر، وأنا بعد في سنتي الأولى في التدريس الجامعي. والكثير مما هو مقرّر من نصوص انكليزية، قصائد وسونيتات غزلية. ولذا عليّ أن أبالغ في الرصانة، وألبس قناعاً فوق قناع من الجهامة، حتى مع الاساتذة... وأنت يا استاذ، آراك كلما خرجت من محاضرة تعابث الطلاب، وتسرح وتمرح معهم؛ والطالبات، اينما تحركت، يحاصرنك بإلحاح يبدو أنك تتمتع به... فقلت لنفسي، حين رأيتك لأول مرة محاصراً هكذا : «هذا رجل يجب أن اتجنبه، لئلا يتصوّر أنني أنافس هؤلاء السخيفات باهتمامهن به...»

وهذا بالضبط ما فعلتْ، بعد ذلك اليوم، وأوقعتني في محنة جميلة. فالفتاة التي كانت تستأثر بهميّ حتى تلك اللحظة، منذ شهرين او ثلاثة، كانت طالبة في العشرين من عمرها، هي أذكى وأبرز الطالبات في الصف الذي ادرّسه الشعر الانكليزي والترجمة، وتتميّز عن اترابها جميعهن بجمالها، وقوة شخصيتها. وهي من أسرة عريقة، محافظة، يأتي بها السائق كل صبح إلى الكلية في سيارة فخمة، ثم يعود بها في نهاية الدوام، لئلاّ تركب السيارات العامة وتخالط الناس العاديين. وكان ذلك مما زاد من افتتاني بها، وقد أعادت إليّ ذكريات الشاعر الذي عشقته في مطلع شبابي، وبقي لحياته وشعره أثر دائم في نفسي : برسي بيش شلي، الشاعر الانكليزي الذي - وهو متزوج بماري غودوين - تعلّق بفتاة ارستقراطية ايطالية في جنوى، اوحت إليه بأنها سجينة أهلها، فتخيّل أنه يريد انقاذها من سجنها، وتحريرها... إيطاليا مطلع القرن التاسع عشر، وبغداد منتصف القرن العشرين : ها هما تلتقيان في هذه العلاقة، المكتومة جداً، المثيرة جدا لكلينا.

فجأةً وجدت نفسي في نقطة تتجاذبها قوتان في اتجاهين متناقضين : تلميذتي هذه ، ولميعة. أما لميعة، حاملة الماجستير من جامعة وسكانسن في ماديسون، فسيدة نفسها عن حق : في الخامسة والعشرين، وتعرف بالضبط ماذا تريد، وأين تتجه، وحريّتها كنزها العزيز، وأصدقاؤها وصديقاتها كثيرون، ومتميزون . ومنذ وفاة والدها، محمد برقي العسكري، آمر اللواء سابقاً، والنائب في مجلس الأمة لاحقاً، غدت موضع تعلّق والدتها بشكل استثنائي، رغم وجود أخيها الأكبر عامر، الذي كان في هذه الأثناء قد أضحى مدير ناحية زمّار - وهي ناحية في الشمال من أعمال الموصل. وكانت لميعة أيضاً ابنة أخي الفريق بكر صدقي العسكري، اول من قام بانقلاب عسكري في بلد عربي في التاريخ الحديث، وذلك في عام ١٩٣٦، من أجل الرجل الذي كان يحبّه ويجلّه، الملك غازي بن فيصل الأول، وقدّم حياته ثمناً لذلك، حين اغتالته الفئات المعارضة قبل ان تمضي سنة واحدة على الانقلاب . وقد أبقى ذلك كله على هالةٍ ما حول لميعة، توحي بتنائيها عن معظم الناس، وربما باستعلائها عليهم، منذ ان كانت طالبة في دار المعلمين العالية تلفت الأنظار أينما تحرّكت - ولن أنسى يوم اندهش أحد زملائي في الكلية، وهو خرّيج جامعة اكسفورد، حين علم بأن ثمة علاقة صداقة بيننا، أنا الغريب القادم من فلسطين، وهي المشهورة بجمالها وكبريائها وخلفيتها الاجتماعيّة، فقال : «لميعة برقي العسكري! ما الذي أوصلك اليها؟ كنا أيام التلمذة في «العالية» لا نحلم بأننا سنستطيع يوماً ان نقول لها، ولو من بعيد : صباح الخير...»

في تلك الأيام اكتشفت ما كان من ديمقراطية في اساليب التعليم

العالي الذي غدا ميسّرا، مبنيًا على قواعد علمية راح يطبّقها أساتذة عراقيون أخصّائيون بالتربية وعلم النفس، درسوا في معظمهم في الولايات المتحدة وتتلمذوا على الفيلسوف ديوي ونظرياته، وتميزوا بتطلعاتهم الوطنية . غير أن المجتمع كان أبطأ حركةً من اولئك المثاليين، بحكم الضرورة، حيث للفقر حضوره الظاهر في كل مكان، وحيث الهجرة من الريف الى المدينة لا تعني دائماً التحضّر والتحلّي بروح المدينة العصرية بين عشية وضحاها . وقد لاحظت إقبال الشباب على دخول الكليات، وبخاصة دار المعلمين العالية، طلباً للشهادة التي تضمن لواحد منهم عند التخرج وظيفة براتب يُعدّ جيدًا في تلك الظروف، وينقذ صاحبه من الفاقة وييسّر له الزواج، وبخاصة اذا كانت الزوجة أيضاً خريجة جامعية تستطيع الانخراط في العمل الوظيفي.

وكان من السهل أن أرى معظم الطلاب الذكور يلبسون ثياباً عتيقة، قد لا يبدلّونها طيلة أيام السنة . فهم من الفئات الكادحة، سواء في المدينة او المحافظات، صمموّا على متابعة تعليمهم مهما وجدوا في ذلك من مشقة. وقد كان ظاهراً أن النظام التعليمي في العراق يومئذ يتيح لصبيٍّ ولد في صريفة من طين، وقضى طفولته حافيا، ان يكمل دراسته الجامعية، بل وينال شهادة الدكتوراه من أية جامعة في العالم كطالب بعثة، إن هو أبدى الذكاء والقدرة على المثابرة، دون أن يتكبّد فلساً واحداً من عنده.

هؤلاء الطلابّ كانوا يلتقون في الكليات طالبات هن في الأغلب من طبقة اجتماعية أخرى. فالأُسر الغنية، نسبيا، كانت هي التي تريد لبناتها أن يتعلّمن، ويتثّقفن، في حين أن الأغلبية من بنات العائلات الفقيرة يكتفي

أهلوهن بتعليمهن في المدارس الابتدائية، وربما الثانوية أيضاً في حالات نادرة – هذا إذا لم يبقوهن أميّات دون تعليم. في حين كان الذكور من شباب العائلات المتمكّنة إقتصادياً، إذا لم يدخلوا كلية الطب ببغداد، يذهبون في الأغلب، لمتابعة دراستهم العالية، إلى بيروت، او دمشق، او القاهرة – هذا اذا لم يذهبوا إلى انكلترا أو أمريكا.

ولذا فإن الواضح وضوح الشمس في الكليات، وكلها مختلطة – بإستثناء كلية الملكة عالية التي انما وجدت لتعليم بنات العائلات الميسورة، ولكن المصرّة على بقائها تقليدية ومحافظة، والرافضة اختلاط الجنسين – أن الطالبات ينتمين في الغالب إلى عائلات مرفهة . ويبدو ذلك جليّا من ملابسهنّ، وتصرّفاتهن، وثقتهن بأنفسهن، إزاء زملائهن من الذكور، الأفقر حالاً، والذين لم تفارقهم بعد سيماء العيش البدائي الذي ينتمون أصلاً إليه.

ورغم ما تطبقّه ادارة كل كلية من أساليب الديموقراطية والمساواة بين الجميع، فإن الفارق الطبقي كان يجعل اختلاط الجنسين في الواقع قليلاً وصعبا، بحيث تبدو الفتيات بالنسبة للشباب كأنهن في عالم قصيّ حلميّ يصعب بلوغه . مما أوجد أرضاً خصبة للشعر الغزلي الجميل الذي عرف عن طلاب الكليات المختلفة منذ اواسط الأربعينات حتى اواخر الخمسينات في بغداد. وكان هذا الشعر سريع الانتشار في اوساط المثقفين، نُشر في الصحف ام لم يُنشر، ومعظمه من نتاج طلابّ دار المعلمين العالية وكلية الحقوق، ولو أن الشاعرة فطينة النائب عُرفت كذلك بشعرها العذب في تلك الأيام، وكانت احدى تلميذاتي في كلية الملكة عالية، رغم كونها اكبر سنا من زميلاتها جميعاً ببضع سنوات.

وإلى هذا كله، أي فوران ثقافي كان يتصاعد في المدينة يومئذ! فوران تختلط فيه الأوراق، وتتخذ فيه الحماسات مسارات سياسية واجتماعية مثيرة ودائبة الحركة، وجدتُ نفسي في خضمها، ربما في اللحظة التاريخية المناسبة. كانت هناك النساء الشابات وقد تململن طلباً لحريتهن، وعرفتُ العديد منهن . وكان هناك الشعراء والقصاصون يبغون خلق الأشكال الجديدة في كل ما يكتبون. وكان هناك الرسامون الذين عادوا من دراستهم في الخارج، وعلى قلتهم النسبية، استطاعوا أن يجعلوا من التعبير عن تجربتهم بالخط واللون نظريات جديدة للفن العربي أينما وجد . كما كان هناك أصحاب الفكر الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، والفلسفي، والتاريخي، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وقد تمثلّوا في عدد من الأساتذة البارزين في كلياتهم، وكلهم لا يقلّون شأناً عن رفاقهم من الأدباء والفنانين في زعزعة القديم والتبشير بحداثة ستغيِّر الوطن العربيّ برمّته، ليس فيما يخصّ المواقف السياسية والاجتماعية وحدها، بل فيما يختلج في دواخل الأفراد رجالاً ونساءً من تطلعٍ ورؤية، وتأكيد على الحرية في كل أشكالها.

في تلك السنة، في كلية الآداب والعلوم، وهي بعد في عامها الثاني، كُلِّفتُ بتنظيم موسم ثقافي - جرياً على تقاليد الكليات الأخرى - كان اعتمادي فيه على اساتذة الكلية أنفسهم، وذلك بإعطائهم منبراً حرّاً، مرةً كل اسبوع أو اثنين، يتحدثون منه إلى الجمهور العريض في قاعة كلية الملكة عالية ، التي كان مبناها الكبير مقابلاً لمبنى كلية الآداب، وكنت في كل مرة أقدّم المحاضر، وأرأس الاجتماع.

وكان من بين الذين ألقوا المحاضرات الدكتور ألبير نصري نادر،

استاذ الفلسفة، الذي تحدث عن «الوجودية»، وأصلها الفلسفي وتنظيرات سارتر فيها. وكانت الوجودية قد اكتسحت عالم المثقفين بنارها السحرية، وإنْ فهمها الكثيرون فهما خاطئاً، فطالت المناقشة الحارة حولها، بعد انتهاء المحاضر، لاكثر من ساعتين.

وتحدّث الدكتور أحمد صالح العلي، استاذ التاريخ، عن الحياة المالية في مدينة البصرة في صدر الإسلام حديثاً دقيقاً بارعاً. وما كاد ينتهي، وطلبت من الجمهور كالعادة ان يتقدّموا بأسئلتهم، حتى اندفع نحو المنصة شيخ معمم، عرفنا فيما بعد أنه الاستاذ محمد الصوّاف، ودون أن يحيي رئيس الجلسة او يستأذنه انبرى بهجوم عنيف على المحاضر، وكاد يتهمه بالكفر، بصوت عال ولغة قاسية ما اعتدنا مثلها في مثل تلك المواقف الفكرية، وانا احاول تهدئته، وإقناعه بتلطيف لهجته، والحاضرون مشدوهون...

وبعد تلك المحاضرة باسبوعين، قدّم استاذ علم الاجتماع، الدكتور علي الوردي - ولم تمرّ بعد إلاّ فترة قصيرة على عودته من الولايات المتحدة التي نال فيها شهادة الدكتوراه - محاضرةً عن «الازدواجية في الشخصية العراقية»، أثارت بين المحتشدين لسماعها نقاشاً طويلاً ممتعاً استمرّ حوالي ساعتين، ورددت الصحف في الأيام التالية الكثير من محتوى المحاضرة والنقاش، وبدأت بذلك شهرة للدكتور علي الوردي لم يعرف مثلها في تلك الأيام إلاّ نفر قليل من الاساتذة الجامعيين، أعطته شعبية خاصة استمّرت في ما كتب لاحقاً من مقالات وكتب لأكثر من ثلاثين سنة.

في هذه المحاضرات جميعاً كان الحضور من الرجال والنساء،

والغالبية من الشباب، مذهلاً بأعداده، ولا تكفي مقاعد القاعة الكبيرة لجلوس الجميع، فيبقى الكثيرون واقفين، وتنتهي المحاضرات ليخرج الناس دائماً وهم ما زالوا في نقاش مستمر، وبحيويّة ظاهرة.

وكان لي بالطبع حصتي في ذلك كله، عدا التنظيم ورئاسة الجلسات : فألقيت محاضرة بعنوان «بايرون والشيطانية»، قدّمني فيها أحد الزملاء مؤكدًا على موقعي يومئذ من الكتابة بروح جديدة (كما قال) لم تعهدها جرائدنا ومجلاّتنا. ولست ادري إن كان زميلي يعلم أنني كنت للتوّ قد وصلت إلى قاعة المحاضرات، وهي في باب المعظمّ في الشمال الأقصى من شارع الرشيد، قادماً من قاعة في الطرف الجنوبي الأقصى من الشارع ذاته - قاعة متحف الأزياء القديمة، الكائنة في البابْ الشرقي، حيث حضرت افتتاح المعرض الأول لـ «جماعة بغداد للفن الحديث» . كان ذلك يوم ٢١ نيسان ١٩٥١ . وكان جواد سليم قد أصرّ، رغم تمنّعي بادىء الأمر لأنني لست رساماً محترفاً، ولأنني فلسطيني، على أن اساهم في ذلك المعرض بلوحاتي الزيتية، وجاء إلى شقتي ليأخذها بنفسه في سيارته الـ «فيات» الصغيرة - وعملنا كثيراً، ومعنا شاكر حسن وقحطان عوني وآخرون، لجعله معرضاً يلفت النظر.

كانت إحدى لوحاتي الستّ فيه تمثل ثلاث قرويات فلسطينيات، رسمتهن أيام ١٩٤٨ الشاقّة في بيت لحم، وقد جلسن أرضاً بأثوابهن الزرقاء والخضراء والحمراء حول سلّة من الفاكهة - وهنّ أشبه بثلاث ربّات للكبرياء والبقاء الأبدي، ثم أعدت العمل على اللوحة بالمزيد من كثافة الأصباغ بالفرشة والسكينّ في اوائل ١٩٥١ .

وقد قُدّر لهذا المعرض، دون أن نعي آنئذ، أن يمثّل البداية من مرحلة

جديدة في تاريخ الفن العراقي : لقد كان منطلق الحداثة ببغداد، لا في الرسم والنحت فقط، وما رافقهما من كتابات وتنظير حول الفنون التشكيلية، بل في المواقف الفكرية والاسلوبية التي راحت تعمّ فنون القول أيضاً، في العراق، ثم في الوطن العربي بأجمعه . والخطاب الذي ألقاه جواد سليم في الافتتاح عصر ذلك اليوم كان بعضه كلاماً كتبته أنا خصيصاً له*.

في هذه النشاطات العامة، كان هميّ الحقيقي أصدقائي أنفسهم، وهم الذين أكاد أراهم كل يوم، في لقاءات وأحاديث لا تنتهي. غير أن لميعة، منذ لقائنا الأول، غدت هميّ الأكبر، وحلقتنا تتسع، شئنا ام أبينا، ونحن نحاول تقليصها لئلا تستحيل علينا الخلوة، التي كنا نطلبها بشكل أو بآخر، ولا نحظى دائماً بها. كنّا جميعاً عُزّاباً، ونلتقي بادىء الأمر كجماعة من الأصدقاء، ولكن التجاذب والتنافر بين الجنسين بات أمراً حتميا، إلى ان استقرت الثنائيات بيننا جميعاً على وجه ما.

وأخذت لميعة، بين حين وحين، تدعونا إلى منزلها لتناول الشاي، وتعرّفت بذلك على والدتها - سيدة تخطّت الخمسين وتوحي، بوقفتها وكلامها، رغم وفاة زوجها قبل خمس سنوات، بأنها عرفت العزّ في معظم حياتها . والمنزل جديد، لمّا يمرّ على بنائه عام واحد، وأعجبت بتخطيطه الحديث على غير ما اعتاده البغداديون حتى تلك الآونة في بيوتهم التقليدية. فقد وضع تصميمه المهندس المعماري حازم نامق، وكان خريّج جامعة ويلز، ومن أصحاب مدرسة معمارية صغيرة في العراق عرفت

* للتفاصيل حول الدور الذي قام به جواد سليم و «جماعة بغداد للفن الحديث»، راجع كتابي «جواد سليم ونصب الحرية»، من منشورات وزارة الثقافة والاعلام ببغداد، ١٩٧٥ .

بتخطيط مبانٍ للدولة تتميز بجرأة في الرؤية والتصميم. وكانت زوجته عالية العمري أشبه بأخت للميعة، منذ صغر كلتيهما في الموصل، بل كانت أقرب إليها من أي أختٍ او أخ طوال أيام حياتها . وسرعان ما اكتشفت أن نجيّة لميعة الوحيدة، وكاتمة اسرارها، ومرجعها الأهمّ في أي أمر تريد، عاطفيا كان أو غير عاطفي، هي عالية العمري. ومن أين لي أن أعلم في تلك الأيام، وأنا ما زلت في علاقاتي بالآخرين أراوح بين الجد والعبث، ولا أعرف في تجربتي تلك، كفلسطيني، أين سأجد نفسي في اليوم التالي، أن عالية، وأخويها الاثنين، بل آل العمري بأفرادهم الرائعين جميعاً رجالاً ونساءً، سيلعبون دوراً أساسيّا في حياتي وحياة لميعة، منذ تلك اللحظات الأولى المبهمة، القلقة، ويهيئون لنا انتماءً نفسيا لكُنّا لولاه ضعنا في متاهات قاسية وجائرة.

في اول حفلة شاي أقامتها لنا لميعة في حديقة دارها، كنا أربعة رجال او خمسة وثلاث نساء، حين جاءت أم عامر، والدة لميعة، ونظرت إلى ضيوف ابنتها من خلال النافذة، وهم يشربون الشاي، تخدمهم أم شاكر وابنها بإشراف لميعة . وفجأة – كما قالت أم عامر فيما بعد لابنتها – أجفلت حين وقعت عينها عليّ، أنا دون الآخرين، وأنا منهمك بالحديث، وأخذ قلبها يخفق بسرعة. تحرك في صدرها هاجس غريب، وتساءلت : من هذا الشاب؟ فتحت باب الشرفة، وقبل ان تتقدم نحونا نادت لميعة إليها، وأغلقت الباب وراءها، وسألتها : «من هذا الرجل؟» مشيرة إليّ من خلال النافذة. فضحكت لميعة وأخبرتها أنني أحد زملائها، كبقية الضيوف. فقالت أمها : «لماذا «لعب» قلبي عند رؤيته؟» ففهمت لميعة قصدها، وأجابت مستمرة في ضحكتها : «هذا رجل غريب، ماما،

فلسطيني، لا تخافي، ومسيحيّ أيضاً ... هدّئي روعك . »

«آه، طمأنتني» قالت أم عامر ، «طمأنك الله!» فالشيء الذي كان يقلقها دائماً، لسبب ما، هو أن تتزوج لميعة، وهي متعلقة بها على نحو لا تستطيع معه أن تتصورها تستقل عنها، لا سيما بالزواج . أي حدس عجيب حدست به في تلك اللحظة، وليس فينا من يفكر يومئذ بشيء من هذا الأمر!

عادت لميعة الى الحديقة مع أمها، وعرّفتنا عليها واحداً واحداً – وكانت تعرف بعضنا – وشاركتنا الحديث بعض الوقت، بطلاقة السيدة الواثقة من مكانتها الاجتماعية المتميزة. وجاء ذكر الرسم، ورسم الأشخاص، وكيف أن الرسام البارع أحياناً يغيرّ، بل قد يشوّه، ملامح الشخص الذي يرسمه طلباً لقوة التعبير. ولما ذكرت انني أتمتع برسم الأشخاص بالقلم، وأحياناً بألوان الزيت، اذا وجدت وجوههم مثيرةً للاهتمام، اقترحت ام عامر، ضاحكة، أن ارسم لها لميعة . فاستجبت بحرارة لاقتراحها، وقلت : «سأرسمها، وأجعلها كأنها العروس!»

واذا بها تعبس بوجهي وتقول : «فال الله ولا فالك! ارسمها كما هي، واترك العرائس لغيرها!»

* * *

ولقد تركت العرائس لغيرها، حقّاً، ولو لبضعة أشهر ، وأصبت بذلك البلاء الذي عرفته زمناً وأنا طالب في انكلترا : حب اثنتين أو أكثر في الوقت نفسه، دون أن استطيع الفكاك من أيّ منهن. والمصيبة أن ثمة ثلاثاً منهن هذه المرة، كل واحدة تعرف أو تشك بأنني موزّع على الأقل بينها

وبين واحدة أخرى.

وعاد إليّ حلم كنت قد حلمته مراراً في اواسط الأربعينات وأنا في القدس، فأجد نفسي نازلاً درجاً لولبيّا لا قرار له، ومعي امرأتان، واحدة عارية وأخرى لابسة، ومن حولنا أناس مزدحمون لا أرى منهم إلاّ الوجوه، وتستدير كلها نحوي وعيونها جاحظة وأفواهها فاغرة، وكأنها ليست إلا أقنعة تتحرك، وتصعد الدرج مروراً بي، وتتنزل الدرج، وأنا غير مبالٍ بها، محتضناً العارية واللابسة بانسجام تام. وكنت أعي إبّان الحلم أنني اتساءل : هل نحن في ردهة مسرح كبير، أم أننا ننزل شيئاً فشيئاً دركات الجحيم؟ وفي عام ١٩٤٦، بالقدس، رسمت أخيراً في لوحة كبيرة هذا المشهد المتكرر، وأنا لا أعلم ما الذي يعنيه - وتوقفت عن رؤية الحلم. واذا بي الآن بعد خمس سنوات تعاودني رؤى كتلك، ويتكرر من جديد حلم المرأتين، اللابسة والعارية معاً، احتضن كلتيهما، ومشهد الأقنعة البشرية حولي يتغيرّ كل مرة، وكل مرّة انتبه إلى نفسي وأنا أتساءل : هل نحن في مسرح كبير، هل نحن ننزل درجات البهو المرمري في اوبرا باريس - التي لم أكن زرتها بعد حتى ذلك اليوم - أم أننا ننزل شيئاً فشيئا دركات الجحيم؟

وفي حفلة كبرى أقامتها احدى الكليات في قاعة الملك فيصل الثاني، في باب المعظمّ، كنت مع عدد من أساتذة وطلاب كلية الآداب جالساً في أحد مقاعد الطابق الأرضي، وقد ازدحمت الألواج العليا بجمهرة من الاساتذة والطلبة من كليات مختلفة. فانتبهت إلى لميعة، وقد جلست في مقصورة تتألق بين زميلاتٍ لها، وحييتُها برفع يدي وأنا في مكاني البعيد، وردّت التحية بهزّ يدها مع ابتسامة عريضة. وبعد قليل،

انتبهت إلى ان تلميذتي الوفية جالسة في مقصورة أخرى قريبة منها - والمقصورات مفتوحة بعضها على بعض - وهي ترنو إليّ من فوق بتركيزٍ جميل جعلني ارفع بصري نحوها بين حين وآخر . وغفلت عن انني كلما رفعت عينيّ نحوها، رأتني لميعة أرسل بصري في اتجاه مفضوح : وهذه غريمتها، وليس بينهما إلاّ بضعة مقاعد، وهي تراها تبادلني النظرات. فراحت تشيح بعينيها عني بازدراء مفتعل كلما حاولت لفت نظرها... وادركتُ ما حدث.

في نهاية الحفلة، تقصدت الإسراع في الخروج لإلتقاء لميعة، ولكنها ما كادت تبلغني حتى عَبَستْ، وادارت وجهها عني، وانطلقت مع صديقتها في الاتجاه الآخر دونما كلمة. وأحسست أن الأرض إنشقّت تحت قدميّ... وبعد ثوانٍ وصلت التلميذة مع رفيقة لها، ولم تجرؤ على إعطائي اكثر من نظرةٍ ولهى، وإيماءة خفيفة من يدها لم يرها غيري - وما همّها إن كنت في انتظار لميعة او غيرها...

وكان لي في تلك الليلة مشهد جنوني مع لميعة، وهي تتهمني بأشنع ما يُتّهم به المحبّون . ولم أحدثّها عن حلم المرأتين الذي يطاردني في النوم كل ليلة.

(٢)

كان عدنان رؤف* يثير الانتباه أينما ذهب بارتفاع قامته ووسامة محيّاه، وبدماثته المهيأة دوماً للتفاهم والمزاح.

ومنذ أن اطلعت على مخطوطتين أو ثلاث لقصص له مميزة الاسلوب، ولمست في تفكيره اختلافاً جريئاً مع ما هو سائد، توقعت له شهرة أدبية وشيكة، لا في العراق وحده، بل في الوطن العربي أيضاً، والمخيّلة العربية يومئذ في بداية توثب رائع تريد تحقيق الجديد والأصيل، وكلّ ما يعطي الأمة أملاً في مستقبلٍ لا يتخطى فقط الموات الذي ابتليت به لأكثر من سبعمئة سنة، بل يتخطّى حتى ما أنجزته النهضة التي جاءنا بها التنوير منذ أواسط القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الثانية. وكان ذلك ولا ريب بعض الرابط الذي جمع بين عدنان وبين بلند الحيدري، الذي شاءت الصدف أن يكون جاراً له في شارع طه، يقاربه سنّاً ويجازف كل يوم بكتابة قصيدة لم يعتد القرّاء مثيلاتها في العراق.

وقد شاءت الصدف كذلك أن أتعرّف عليهما معاً في منزل درموند ستيوارت، في أوائل عام ١٩٤٩، يوم دعاني إلى العشاء، وهو زميلي في تدريس الانكليزية في الكلية التوجيهية. والذي جرى هو أنني وصلت إلى منزله في البتّاويين، وكان قد انتقل إليه مؤخراً بعد إقامته في فندق جبهة

* هكذا يفضل عدنان كتابة اسمه، رغم شيوع الصيغة الأخرى «رؤوف». وكلتا الصيغتين صحيحة.

النهر لشهرين أو ثلاثة (في حين خُصصت لي أنا غرفة مع حمام في مبنى الكلية نفسها). فوجدت رفيق دزموند في السكنى، هنري بيكر، ينتظرني ويعتذر لي عن خروج زميله، وتأخره في العودة لسبب ما، مؤكداً لي أنه سيعود قريباً. وعندما عاد، مكررا الاعتذار، كان معه شابّان عراقيان - كانا بلندوعدنان. فوصفوا كيف أنهم التقوا في سينما غازي، المعروفة آنئذ بأنها من ملتقيات المجتمع العراقي المثقف. وجلسوا في السينما متجاورين. ويبدو أن دزموند، كعادته كلما التقى غرباء يروق له شكلهم، فاتحهما بالكلام. وهو في الرابعة والعشرين من عمره، جديد التخرّج من جامعة اكسفورد. وما هي إلا دقائق حتى راحوا في حديث قطعته عليهم مشاهدة الفلم. لم يطل بهم الموقف حين قال دزموند إن لديه ضيفاً على العشاء في تلك الأمسية، هو زميل له يكتب بالعربية والأنكليزية، فهلاً رافقاه إلى داره للعشاء؟ وقرروا في الحال مغادرة السينما قبل انتهاء الفلم، والسير إلى حيث كنت أنا في الانتظار مع زميلنا الآخر.

كان تعارفنا سريعاً، ومباشراً، حالما سمعا اسمي (الذي لم يفهماه من مضيفهم بسبب سوء تلفّظه انكليزيّاً)، وكانا قد سمعا عني، وقرآ لي - أو هكذا زعما - كما كنت قد قرأت لبلند شيئاً من الشعر في مجلة «الأديب» اللبنانية. وتبيّن أن عدنان مكبٌّ على دراسة الانكليزية بجهده الخاص، ويتمتع بالحديث بها، بينما يحاول بلند أن يخفي عنّا عدم تمكنه منها. وعندما خرجنا معاً في نهاية السهرة، وسرنا في اتجاه موقف الباصات قرب سينما غازي، أدركنا أننا ثلاثتنا نطلب الباص نفسه، الذاهب إلى الأعظمية، ولن ينزلا قبلي إلاّ بمحطة واحدة، عند شارع طه،

لأن الكلية التوجيهية، حيث أقيم، كانت في أول الأعظمية. واكتشفنا أن سميرة أخت عدنان، وأفسر أخت بلند، كلتيهما من تلاميذي في الكلية، ومن الطلبة المتميزين. ولا عجب : فهذه الكلية، التي تحولت في خريف تلك السنة إلى كلية الآداب والعلوم، كانت قد جمعت قرابة مئة طالب وطالبة من المتفوقين في امتحان البكالوريا الأخير، لكي نهيّئهم للذهاب في بعثات دراسية في جامعات مختلفة في انكلترا والولايات المتحدة، وذلك بإعطائهم المزيد من «الكورسات» المتقدّمة في الانكليزية والعربية والرياضيات والفيزياء.

وبعد ظهيرة اليوم التالي، جاء عدنان وبلند لزيارتي في الكلية، وبدأت بذلك بيننا صداقة حميمة تكاد تجمعنا كل مساء، اذا لم أكن مرتبطا بموعد، فنقضي الكثير من أوقاتنا - مع بضعة أصدقاء آخرين سرعان ما تزايد عددهم - في غرفتي، او في مقاهي شارع الرشيد وشارع أبي نواس المسترسل بمحاذاة دجلة، حيث يتمشى المئات من الناس كل مساء على شاطىء النهر، أو يقعدون في «الشايخانات» المكتظّة بروّادها ولاعبي الدومينو فيها. وحديث الشعر والقصة والرسم والنحت بيننا لا ينقطع إلاّ ليتجدد، في متوالية لا تعرف النهاية.

وعلمت أن عدنان تخرّج في العام السابق (١٩٤٨) من كلية الحقوق، وهو يبحث عن عمل... وكان بادي الطموح بمواهبه وقدراته (ولسوف يحتّل فيما بعد، وبجدارة، مناصب مهمة في شركة النفط أولاً، ثم في وزارة الخارجية، وبعد ذلك في الأمم المتحدة).

أما بلند، فلم أعرف بالضبط خلفيته الدراسية، إلى أن اكتشفت أنه رسميا، ما زال طالباً في الثانويّة المتوسطة في إحدى المدارس الأهلية،

رغم أنه كان آنئذ قد تجاوز الثانية والعشرين من عمره. غير أنه في الحقيقة، على ذكائه البيّن وثقافته، لا يداوم في مدرسة أو وظيفة، لعدم اكتراثه بأية مدرسة أو كلية، ولا سيما بعد أن نشر ديوانه الأول من تجاربه الشعرية التجديدية «خفقة الطين»، قبل ذلك بثلاث سنوات، وما عاد يهمه إلاّ أن يتسكّع ما طاب له التسكّع في طرقات بغداد برفقة حسين مردان، رغم الفارق الكبير في المهاد الاجتماعي بينهما. فحسين مردان ابن شرطيّ فقير في بعقوبة، هرب من أبيه كما هرب من عمله الأصلي في حمل الطين والطابوق في أعمال البناء، بينما كان بلند ابن ضابط عسكري كبير (متوفًى يوم التقيته)، وينتمي إلى أسرة كردية معروفة ببغداد، وكان جده «شيخ الإسلام» في إسطنبول بتعيين من السلطان عبد الحميد. أما الآن فإنه يقيم مع اخته ركزان وزوجها إقامة قلقة.

لقد أعجبني في هذا الفتى الشبيه برامبو، ولكن في زمان ومكان غير فرنسا القرن التاسع عشر، أنه بقي حتى صيف تلك السنة لا يرتدي إلاّ معطفاً مطرياً طويلاً واحداً لم يفارقه قط، ولم يكشف يوماً عن البدلة، العتيقة ولا شك، التي يغطّيها... وما من دخل له إلاّ بضعة دنانير شهرياً يتقاضاها من خاله، مدير الزراعة العام، لقاء «تصحيح» ملازم المجلة التي تصدرها الدائرة الزراعية. ومع ذلك فإنه يتحدث ويتصرّف باعتزاز وثقة كأنما الدنانير تملأ جيوبه، وينفقها يميناً وشمالا دون حساب...

كانت أوائل الخمسينات ببغداد عند الأدباء الشباب عصر الوجودية الذهبي، كيفما كان فهمهم لها مما وصلهم من مترجمات، متمثلة في كتابات جان بول سارتر والبير كامو، أو مقالات مترجمة عنهما. قلائل منهم استطاعوا أن يميزوا بين الواحد والآخر، وأقلّ منهم من أدرك أن

ألبير كامو لم يكن وجودياً بالمعنى السياسي أو غير السياسي الذي اراده سارتر. وقد راق لمعظمهم أن يفهموا الوجودية على أنها بوهيمية جديدة، تفلسفها هذه المرة مقاهي سان جرمان. ولكنها للبعض كانت تعني الالتزام، حسبما اراد اليسار يومئذ ان يفهم الالتزام. وكان هناك من رأى في منطقها ما هو نقيض ذلك بالضبط : نوعاً من العدمية التي تبيح للفرد تجاوز القيم كلها، والفلسفات السياسية كلها، في مدن «قتلها السأم»، أو، بعبارة كامو في مقاله «وقفة في وهران»، مدن «التهمها المينوتور».

بلند الحيدري، إذ عدّ نفسه وجودياً يومئذٍ، كان مأخوذاً بهذه الفكرة، على طريقته التمرديّة، وكتب قصائده القليلة «أغاني المدينة الميّتة» بوحي منها، بلغة مدبّبة، بارعة البساطة، ترفض الصور البلاغية التقليدية، لها إيقاعها الموسيقي الخاص ونَفَسُها الدرامي، وفيها شيء من «الإيماجية» التي جاءته مبكراً وعفويّاً وهو طالب في الثانوية، مع الكثير من الإحساس باللُّعْنَة التي سحرته في شعر الياس أبو شبكة . وقد تحمست لها عام ١٩٤٩، وهو يأتيني بها أولاً بأول لنتناقش فيها حتى تأخذ شكلها الأخير، وكتبت لها مقدّمة بعنوان «الشعر الجديد» تؤكد انحيازي لمنحى بلند في التمرّد على الأساليب التقليدية، ورسمت لها بضعة تخطيطات. ولكنه لم يستطع نشرها إلاّ في صيف عام ١٩٥٢، ودون الرسوم.

ولم يكن رفيقه حسين مردان أقل منه إحساساً بذلك جميعاً، غير أنه كان متردداً أول الأمر في الخروج على أبحر الشعر والرويّ الواحد، كما فعل بلند، فنظم مجموعته الأولى «قصائد عارية» شعراً عمودياً، قائلاً بكبرياء الشاعر الملعون وتحدّيه : «رضعتُ الفجور من ثدي أمّي»، مما

عرّضه للتوقيف للمحاكمة بتهمة الإباحيّة على ديوانه - الذي رسم غلافه «الجريء» جواد سليم (كما رسم فيما بعد غلاف «أغاني المدينة الميتة») - إلاّ أن القاضي كان أكثر ذكاءً من الذين وقفّوه، وأكثر تعاطفاً مع الشعر والشعراء، فطلب شهادة محمد مهدي الجواهري في ديوان حسين مردان. ولم يتردد الشاعر الكبير في تزكية الديوان أدباً يستحق صاحبه الإعجاب، لا القذف به في السجن.

وقد فوجئت يوم أهداني حسين مردان نسخة من «قصائد عارية»، كاتباً في أعلى الصفحة الأولى : «إلى العبقري...» فاحتججت قائلاً : « أفي الثلاثين، وعبقري؟» وكان جوابه : «لم لا؟ نحن العباقرة الجدد!» ورغم فقر حسين مردان المدقع في تلك الايام، وعيشه عيشة الصعلكة والإفلاس، فإنه كان شديد الاعتداد بموهبته التي لم تصقلها أية دراسة منتظمة بعد أن ترك العمل في الطين والبناء، وبعد سنة أو سنتين أصدر كتاباً جديداً أهداه، بحروف كبيرة، «إلى العملاق الملتّف بضباب الزمان، حسين مردان»...

كان ثمة إحساس في مطلع الخمسينات عند شباب الأدباء في بغداد، وكذلك، في بيروت ودمشق والقاهرة، بأن الجديد الذي بات عليهم أن يأتوا به إنعاشاً لروح أمةٍ مهدّدة من كل صوب، يعطيهم الحق في أن يفرضوا نزاعاتهم الفكرية الانقلابية، إن هم اقتنعوا بمواهبهم المغايرة، على وسائل النشر السائدة يومئذ، رغم قلتها بالنسبة لما تحقق منها في العقود اللاحقة، دونما اعتذار لأحد من سابقيهم، متوقعين لأنفسهم، حتى وهم في بدايات الطريق، تلك الانجازات التي ستجعل من جيلهم المغيّر النفسي والفكري الأهمّ في المجتمع العربي.

وكان في بيروت ناقد كبير، سناً وأهميةً، هو مارون عبّود، يتابع نتاجات هؤلاء الشباب بدقة وحب، في الصحف التي يكتب فيها أعمدته، ويوحي اليهم بمشروعية اندفاعاتهم الإبداعية . ولكن معظم هؤلاء الأدباء أخذ يساند بعضهم بعضاً، وينقد بعضهم بعضاً، احياناً بكثير من المودة، وأحياناً بشيء غير قليلٍ من الغلظة، مما جعلهم في توفّز دائم، مستعدّين للدفاع عن كتاباتهم بأقصى ما لديهم من قوة الحجّة، بحرارة وأحياناً بغضب، كما كانوا مستعدّين للإتيان بما لن يتوقعه قرّاؤهم من شعر أو قصة أو نقد. وكان ظاهراً أن الأغلبية الساحقة من هؤلاء المندفعين هم من خرّيجي الكليات العراقية (القليلة يومئذ)، أو طلأبها، منذ أواسط الاربعينات حتى أواخر الخمسينات. وبات لكل شيء يكتبونه صداه القوي خارج العراق أيضاً.

في مثل هذا الجو جاءتني ، في ربيع تلك السنة، ١٩٥١، رسالة من قاصّ سوري من هؤلاء الشباب لم أكن أعرفه شخصياً، اسمه إلياس مقدسي إلياس، «تنبّأ» فيها منذ تلك الآونة، بعد أن قرأ بعض مقالاتي وقصتين أو ثلاثاً مما نشرت في مجلة «الأديب» البيروتية، بأنني سأفوز يوماً، حتماً، بجائزة نوبل للآداب – وسيبقى في انتظار ذلك اليوم!

* * *

كنا أنا ولميعة قد انتهينا من الغداء في فندق السندباد، وفي طريقنا إلى الخارج فوجئت في الدهليز برؤية رجل مقبلٍ عليّ، وأنا لا أصدق ما أرى : دنيس جونسون ديفيز! لم أكن قد رأيته منذ أيامنا معاً في لندن في خريف عام ١٩٤٣ . وآخر مرة تكاتبنا فيها، كان يقوم بتدريس الترجمة

في إحدى جامعات القاهرة عام ١٩٤٦. فهو يتقن العربية - التي درسها مع الفارسية في جامعة كمبردج على البروفسور آربري أيام كنت أنا أدرس هناك الأدب الإنكليزي - وقد نشر في القاهرة ترجمته لمجموعة قصصية لمحمود تيمور، امتدحتها بمقال خاص يوم قرأتها في القدس. ها هو الآن أمامي بقوامه الناحل، ووسامته الشقراء، مرتدياً بدلةً كحليّة مقلّمة فاخرة، وما كنت عرفته إلاّ بثيابه «السبورت» البسطية أيام تقنين الملابس في انكلترا بسبب الحرب.

قدّمته للميعة، وسُرّ جدا بلقائها. وتذكرت في الحال يوم عرّفته في لندن، قبل ثماني سنوات، بصديقتي الانكليزية غلاديس نيوبي، وعرّفني بصديقته المصرية إجلال حافظ، وذهبنا إلى المطاعم معاً عدة مرات.

«هل جئت إلى بغداد للتدريس فيها؟» سألته في الحال.

«أبداً»، قال ، «أنا هنا لعمل أهمّ من ذلك... سأحدثك عنه فيما بعد.»

كان على لميعة أن تعود إلى البيت، فخرجنا، واستقلّت هي سيارة أجرة، وأخذت أنا زميلي القديم إلى شقتي في البنسيون الذي كان على بعد عشرين خطوة أو أقل، بينما راح يحدّثني عن المهمة التي جاء إلى العراق بشأنها. فقد عاد من القاهرة إلى لندن، واستطاع في الآونة الأخيرة أن يجد عملاً في شركة دي لا رو، التي كان اختصاصها طبع النقود الورقية لعديد من دول العالم. وبسبب إجادته التحدث بالعربية، أوكل بمراجعة الدوائر عند الحكومة العراقية، لكي يقنعها بالتحول من الشركة التي تطبع نقودها، إلى شركة دي لا رو. ومن هنا، ارتداؤه الملابس الفخمة كجزءٍ من المظهر المترف الذي لا بدّ منه عندما يتفاوض المرء نيابةً عن شركة مشهورة غنيّة مع مسؤولين رسميين . غير أنه وجد،

عند مراجعته هؤلاء المسؤولين، أنهم يفهمون لهجته القاهرية، ولكنه لا يفهم لهجتهم البغدادية، فيتحول كلا الطرفين إلى العربية الفصحى، أو الانكليزية، المفهومة لدى الطرفين. وقد نزل في فندق «سمير اميس»، وكان يعلم مما يقرأ لي في المجلات العربية أنني ببغداد. فسأل أهل الفندق عني. فقالوا له : «اسأل عنه في الفندق المجاور، فندق السندباد». وهكذا التقينا مرة أخرى بعد فراق السنوات الطوال!

بعد يومين أو ثلاثة وجد دنيس أن عليه أن يطيل اقامته ببغداد، لأن الذين يراجعهم، فيما يبدو، لا يعطونه جواباً قاطعاً في مسألة خطيرة كالتي يراجعهم بشأنها، ولا بد من وقت . وعرّفته على بلند، وحلمي سماره، وعبد الملك نوري، وآخرين . وقرّر الانتقال إلى فندق أرخص بكثير من «سميراميس»، وعلى مسافة قصيرة منا، قرب ساحة الملك فيصل الثاني، يدعى فندق الجامعة العربية. ولما عرف الأدباء أنه يجيد العربية، ومولع بترجمة قصص الأدباء المصريين الذين يعرفهم شخصياً، كتوفيق الحكيم، ومحمود تيمور، ونجيب محفوظ، ويوسف الشاروني، وغيرهم، وجد نفسه في خضم عجيب منهم... فكانوا يأتونه مبكّرين الى الفندق، ولعله لم يترك فراشه بعد، وأولهم بلند وحسين مردان، ويجالسونه معظم ساعات الصباح، إذ أكون أنا مشغولاً بمحاضراتي في الكليات، ويفاتحونه - كما يقول لي ضاحكاً ومستغرباً - بأعجب المواضيع : لا الأدبية فحسب، بل السياسية، والاجتماعية ، متوقعين منه ليس فقط أن يترجم أعمالهم، بل أن يناصر في الخارج قضاياهم التي لا يفهم شيئاً منها.

وفي أول يوم جمعة، انقذناه من ذلك كله . أخذناه، أنا وحلمي وبلند في سيارة الدكتور حلمي الـ «ام. جي» المكشوفة، المشهورة بحجمها

الصغير ولونها الأحمر، إلى سلمان باك، على بعد حوالي ثلاثين كيلو متراً جنوبي بغداد، لرؤية إيوان كسرى الذي بناه الساسانيون في القرن الرابع للميلاد، واكتسحه سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية بعد ذلك بقرون ثلاثة. وما زالت بقاياه توحي بمهابة هندسته العراقية القديمة التي استوحت الطراز الآشوري المتميّز بالقوس الفسيحة.

وحين عدنا في المساء عرّجنا على مقهى شعبي مكشوف في شارع أبي نواس كنت أتردد عليه كلما نشدت الانفراد بنفسي، ونهر دجلة يلتهب بانعكاسات شمس المغيب، والغيوم تتناوشها بالأحمر، والذهبي والبنفسجي، وتجعل من فوضى الوانها مهرجاناً صاخباً لا يتكرر كثيراً في أمسيات الربيع، اللهم إلاّ هنا في سماء هذا النهر العريض المليء بالنشاط والحركة، وأصحاب السمك المزقوف على الضفة يتهيأون لمهمتهم الجميلة، كما تهيأوا لها كل يوم طوال عشرات القرون السالفة.

بعد العشاء ذهبنا الى شقتي، وإذا بعد قليل يطلّ علينا نزار سليم بوجهه المستدير الضاحك، ومعه صديق أو اثنان، وقد جلس بعضنا على فراشي العريض، الذي كان يتحوّل في النهار إلى إريكة ممتازة، وبعضنا على الكراسي، وبعضنا على وسائد ملقاة على الأرض.

وراح نزار، ونحن غافلون عنه في حديثنا، يرسمنا بالقلم واحداً واحداً، رسوماً كاريكاتورية كانت من أجمل ما رسم، آسراً ببراعة طريقة كل منا في الجلوس والإيماء والتدخين. فجعل حلمي مع غليونه المعقوف أكبر من سيارته، فهو يسوقها وهي تكاد تنهار تحته، وأوحى برقّة دنيس

---

* هذه الرسوم اهداني إياها، ثم استعارها مني بعد سنوات لعرضها في أحد معارضه، ولم يعدها إليّ.

الانكليزية كأنه للتو قادم من حي بلومْزْبَري بلندن، ورسمني والغليون في يدي أؤكد به ما تقوله ملامحي، ورسم بلند هائماً على وجهه إلى حيث لا يدري أحد. ورسم أخيراً نفسه وكله عدستان كبيرتان من نظارة تنطلق من تحتها ضحكة ساخرة*.

ذهل دنيس للروح الوثابة، المتمردة، التي شاهدها في فناني وأدباء بغداد، وشعر حين أطلعته على بعض من أحسن أعمالهم القصصية، أنه اكتشف عالماً لم يكن يعرف عنه شيئاً، ولا كان اصدقاؤه في القاهرة يعرفون عنه أكثر منه. (فيما بعد، نقل إلى الانكليزية قصصاً لعبد الملك نوري وفؤاد التكرلي وآخرين، إضافة إلى ثلاث من قصصي القصيرة، نشرها في مجلات مختلفة، ووجدت غالبيتها طريقها أخيراً إلى كتابه المهم «قصص عربية حديثة»، الذي نشرته جامعة اكسفورد في اواسط الستينات، وما زال مرجعاً من مراجع الأدب العربي الحديث.)

أمر واحد استغرب له كثيراً : هذا الكلام المتواصل عن الوجودية. والانكليز معروفون بأنهم نادراً ما ينجرفون مع الصرعات الأدبية التي يتميز بها بقية الأوربيين، وبخاصة الفرنسيون . والوجودية بالذات، التي احتلّت مركز اهتمام أدباء العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ومعظم سنوات الخمسينات، لم تُثر عند أدباء الانكليز اكثر من مجرّد فضول اكاديمي ، رغم شهرة سارتر وكامو وغبرييل مارسل. ولم يجد دنيس تفسيراً لهذا الاهتمام في بغداد، لدى أناس لا يقرأون الأعمال الفرنسية الا عن طريق الترجمة، ومع ذلك يجدون فيها ما يبهرهم ويغذّي تطلّعاتهم إلى الجديد، والمغاير.

وذات يوم اقترح عليّ خطة ماكرة، للايقاع بصديقنا بلند. قال : «اكتب قصيدة غريبة، غريبة جدا بصورها، ورموزها، ولغتها، واملأها بإشارات فلسفية ومصطلحية مما يتردد في كتابات الوجوديين، ولنزعم أنك ترجمتها عن سارتر نفسه، عن طريق الانكليزية...»

وجلسنا معاً في غرفتي وكتبت «القصيدة» المزعومة، وشحنتها بغرائب القول، مستعيناً أحياناً بأسماء وهمية يبتكرها دنيس، قبل أن يجيئنا ذلك المساء بلند ونجيب المانع وزهدي جار الله. ولما حضروا جميعاً، وأتتنا ربّة الدار بالشاي، ادّعيت أنني عثرت على قصيدة نادرة لسارتر مترجمة إلى الانكليزية في العدد الأخير من مجلة «انكاونتر»، وترجمتها. وهل أقرأها لهم؟ وافقوا جميعاً، وأخرجت ورقات القصيدة، وكلّي خشية من أن يفضح اللعبة نجيب المانع، لأنه يقرأ الانكليزية، ويتابع مجلة «انكاونتر».

«مخالب الليل في أشلاء الشوارع

تنهش، والنوافذ تدمى بمآقٍ من حديد...»

قرأت ما كتبت، مع شيء من التنطّع المفتعل في الأداء، قافزاً بين حين وحين إلى «الهوامش» التي في أسفل الصفحة، لأقرأ شرحاً وضعه «المؤلف» نفسه لبعض المغلقات وإسماء الأعلام التي أوردها في المتن. وكان إصغاء الجماعة جادّاً عميقاً . وشعرت في تركيزه أن لكلماتي وقعاً غير عادي جعل يهزّني أنا رغماً عن ارادتي، وأنا افتعل تلك الجدّية «الوجودية»، راجياً أنه يهزّ المستمعين أيضاً.

عندما فرغت من القراءة، كان هناك صمت لبضع ثوانٍ، قطعه بلند بقوله : «جميل. وغريب. غريب جداً.»

ولكن دنيس تقصّد استثارته بقوله إن الفلسفة حين تتدخل في الخلق الشعري تفسده، وبخاصة الفلسفة الوجودية، لأنها تهوّم في فضاءات ذهنية، وتدّعي في الوقت نفسه بأنها معنيّة باللحظة الآنية والتجربة الحسيّة.

أما نجيب المانع فقد أكد أن الفنون كلها، وفنون الشعر بوجه أخصّ، إذا لم يرفدها تفكير حقيقي، جاءت عواطفها هزيلة، لا تستحق صياغتها البارعة.

واعترض زهدي على غياب الموسيقى، أو على استحالة وجودها في هذا النوع من الحجج الكلامية : أين الشعر إذن؟

واستمر الكلام على هذا النحو، وبلند لا يقول أكثر من لا، نعم، ربما... وفجأة كشف عما أذهلني من حساسية حقيقيّة، حين قال، موجِّهاً كلامه إليّ : «هذه القصيدة غريبة جداً، لأنها تشبه رسومك، كأنها خارجة من لوحاتك أنت. رموزها، وتفاصيلها، رأيتها، أو رأيت مثلها، في رسومك في السنتين الأخيرتين . »

أحسست كأنه اكتشف اللعبة ، ولكنه اكتشف أيضاً علاقات ذهنية فضحتها صور القصيدة، لا سيما عندما أضاف : «إذا كانت هذه قصيدة وجودية، مهما يكن المعنى الذي نريده لها، فإن لوحاتك وجودية، ربما دون أن تدري...»

وما كان لي عندئذ إلاّ أن اتظاهر بالضحك، وأضع الأوراق جانباً، وأصرف الموضوع بشكل ما، ودنيس ينظر إليّ جانبياً، وهو يبتسم – لا غالباً ولا مغلوباً؟

في تلك الليلة بالذات، بعد أن انصرف الأصدقاء، أمسكت بتلك

القصيدة وكأنني أمسك بجنيّ عبث بي، ولكنه وعدني بجوهرة لم أكن أتوقعها، ورحت أطالبه بتسليمها...

إنها هنا، في هذا الركام من الكلمات، وعليّ أن أبعد التهافتات، والنفايات المقصودة، والافتعالات الماجنة، لأُنهض من بين الركام عملاً جاداً، حقيقياً، اسميه قصيدة. كنت حتى ذلك اليوم، كلما أردت قول الشعر، جاءتني الكلمات بالانكليزية. وها هي الكلمات تجيء الآن بعربية من نوع غير الذي اعتاده الشعراء : إنها كلمات حادّة، جارحة، جسدية :

«هاتي قدميك رخاماً من جهنّم

تقدّه أزاميل الأصابع...»

أين الموسيقى؟ فلتذهب الى الجحيم موسيقى القرون البائدة! هنا موسيقى أقوى وأروع! هكذا قلت.

في تلك الليلة حذفت أكثر من نصف القصيدة المختلقة، وما بقي منها كان هو الحقيقة التي لا يستطيع أي عبث اختلاقها... وعنونت النتيجة بـ «أغنية لمنتصف القرن» . كانت أغنية حب في منتصف قرن مليء بتمزيق الانسان جسداً، وروحاً، وتاريخاً.

بعد يومين أو ثلاثة، أتيح لي أن اختلي بلميعة لأروي لها قصتنا مع بلند. وقرأت لها القصيدة بصيغتها النهائية، فقالت : «غزلك مخيف! لن يصدّق من يراك ويتحدث اليك أن نعومتك الظاهرة هذه تخفي في ثناياها كل هذا الرعب...»

قلت : «أذن اليك قصيدة من نوع أخر.»

وناولتها قصيدة كنت كتبتها بالانكليزية أصف فيها يديها

الصغيرتين البديعتين ، سرّين من أسرار سحرها، وشفتيها «ككأس من عقيق، نُقش فيها إله الحب مقيّداً بالسلاسل...» وقالت : «اقراها لي. اريد أن اسمعها بصوتك...»

وكانت تلك بدايةً لقراءاتٍ لن يحصى عديدها في قادم الأيام تريد أن تسمعها دائماً بصوتي.

وفي اليوم التالي، قلت للطلبة الذين أدرّسهم في سنتهم الأخيرة في دار المعلمين العالية، وبينهم أكثر من شاعر وشاعرة، إنني سأقرا عليهم قصيدة جديدة. فتحمسوا للفكرة، وإذا بهم يسمعون شعراً غير الذي اعتادوه، وعندما قرأت :

«وهل أُفيق كلُّ صبحٍ على عيونٍ خامدة
تُقدِّمُ لي مع الفطور
وقِطَعٍ من الشمس تلوكها أسنان الشتاء؟
في شَعرِكِ حريرٌ صارخ، وفي يديَّ
ظمأ قديم، وإن تَقْطُرُ الأكاذيبُ دوماً
من شفتيك مع الصبح اللئيم والليل العقيم...»

أوقفني أكثر من واحد منهم، وطلبوا إليّ إعادة القراءة لكي يدّونوا في دفاترهم هذه الأسطر . فأعدتُ قراءتها، ثم استمررت حتى نهاية القصيدة.

وجرى عندها نقاش حول هذا اللون من «الشعر الحرّ» الذي قال احدهم إنه يزعزع ثقته في قيمة الكثير مما يقرأ من شعر هذه الأيام... ولم يغب عني أن كونهم طلاّب أدب انكليزي، يقرأون بعض الشعر الحديث بالانكليزية، سهّل عليهم ادراك هذا الموقف الجديد من الشعر.

ومن صفِّهم ذاك كان قد تخرّج قبل ثلاث سنوات بدر شاكر السيّاب ، وعما قريب سيتخرّج طالب متميز آخر: عبد الواحد لؤلؤة.

* * *

لشهرين، أو أكثر بقليل، منذ أول لقائي بلميعة في مطلع الربيع في النادي الاولومبي، كنت موزّعاً، نفسيا وجسدياً، وذهنياً، كما لم أوزّع في حياتي من قبل. كانت هناك حلقة لميعة وصديقاتها وأصدقائها، وهم الآن أصدقائي الأقربون إلى نفسي، وكانت هناك حلقة الأدباء والرسامين لا تكاد تلامسها، ولكنها أيضاً قريبة إلى نفسي، وكانت هناك حلقة الاساتذة، من الرجال والنساء، التي باتت هامشية بالنسبة إليّ رغم احتكاكي اليومي بها.

هذه الحلقات إذ تتقاطع من خلالي تجعلني في حركة مستمرة، وكلها في نشاط جماعيّ في معظمه. وتعلّقي بلميعة في تصاعد سريع، رغم أنني بقيت مأخوذاً بعلاقات أخرى جميلة لا أريد قطعها، وبي إحساس لا أناقشه بأنني في وسط هذا جميعاً لست أكثر من طير عابر، وأن هذا المشهد كله، مع حبي له وانتعاشي به، ليس إلاّ تجربةً أخرى من تجارب فاوست في سبيل المعرفة، المعرفة المطلقة، كوسيلة لتخطّي آلام الغربة، والنفي، وفي قرارة نفسي أحزان بعيدة الأغوار لا أتحدث عنها.

كان ثمة شيء غير حقيقي، ولكنه أشدّ التصاقاً بي من كل واقع يومي، كأنما هناك قصيدة غريبة جداً، بل موغلة في الغرابة هذه المرة، اكتبها وأنا أعيشها، ولا يهمّني إلى أين ستنتهي بي. وبعضها يوقعني في مآزق، قد تقلقني قليلاً، ولكنها دائماً تثيرني جسدياً وروحياً، وتمزج لي المأساة بالعبث كل يوم، وتحيل كل شيء في النهاية إلى فنتزة هائلة يشطّ بها خيالي إلى حيث لا أعلم.

(٣)

كانت السنة الأكاديمية تنتهي بعد الاسبوع الأول من شهر حزيران بقليل، فجاءتني معاونة العميدة في كلية الملكة عالية، السيدة كزين رشيد، في اوائل آيار تحدثني عن المعرض الذي تقيمه الطالبات كل سنة قبل امتحانات نهاية السنة وبدء العطلة الصيفية، وطلبت إليّ بعد أن رأت أعمالي الفنية في معرض «جماعة بغداد للفن الحديث» أن اساهم في معرض الكلية هذه السنة بشكل من الأشكال، قائلة إن للكلية حقا عليّ!

ولما أطلعتها على مجموعة من تخطيطاتي التي تعود في معظمها إلى أيامي في القدس، اختارت عدداً منها ، وأعطتها لبعض طالبات قسم الفنون اليدوية لكي ينقلنها كتصاميم مكبّرة على القماش بالألوان، ونقلت طالبة او اثنتان بعض هذه الرسوم على اوانٍ خزفيه فُخرت بالفرن الكهربائي. وكانت النتيجة في كل الأحوال أعمالاً جميلة ما كانت لتخطر ببالي لولا هذه المحاولات. وقد جازفت يومئذ، ورسمت تهاويل تعتمد موتيفاتها الوجوه النسائية مع الأزهار، مؤسلبة على طريقتي الخاصة، على فخاريات هُيِّئت خصيصاً لي، ولأول مرة. وعرضت هذه جميعاً في معرض الفنون السنوي، بعد أن اشترطت على السيدة كزين الاّ يذكر اسمي عليها.

ولكن كزين كانت قد أصرت عليّ أن أعرض ايضاً ثلاث او أربع لوحات زيتية، كمساهمة صريحة مني ففعلت. وكانت احدى هذه اللوحات

صورة رسمتها عام ١٩٤٧ في القدس، أعتزّ بها كثيراً، وأحملها مع امتعتي أينما سافرت. وهي بعنوان «المرأة التي حلمت أنها البحر» : لوحة زرقاء، بلون الموج، تمثل فصلاً كنت قد كتبته بالانكليزية قبل ذلك بأعوام، في مجموعة من الفصول عنوانها «حوليّات الحب» The Annals of Love، وكان أحد تلاميذي، بكر عباس (أخو إحسان عباس الأصغر) قد أحبّها جداً وترجمها إلى العربية، فأعدت النظر في صياغتها، ونشرت القسم الأكبر منها في مجلة «الأديب» بعنوان «من سجلّ الحب والموت»، قبل ذلك بسنة أو أكثر .

كانت السيدة كزين تعلم أنني لا أبيع لوحاتي أبداً، لأنني أصرّ على الاحتفاظ بها، مهما تصاعد عددها عندي مع الزمن، ولكنها عرضت أن تشتري هذه اللوحة، بأي ثمن شئت، وألحّت مرّتين وثلاثاً . وأنا احترمها وأكنّ لها مودّة خاصة . فقد كانت امرأة في اواخر الثلاثينات، تتميزّ ببشرتها الوردية النضرة، كما تتميز بثقافتها واطلاعها، وطلاقة لسانها بالانكليزية والفرنسية، إضافة إلى العربية والتركية، وتحبّ الحياة وتقبل عليها بحرارة وشغف. ولم يكن لي إلاّ أن أضعف إزاء إلحاحها، وأهديها اللوحة التي قالت إنها وقعت في غرامها.

وقد دعتني إلى حفلة عشاء في حدائق نادي العلوية. وكان نادي العلوية مؤسسة انكليزية منذ العشرينات، ولا ينتمي إليه كأعضاء إلا الانكليز، والأجانب الآخرون. أما العراقيون، فلا يسمح لهم بالانتماء الى عضويته إلا اذا كانوا وزراء او وزراء سابقين أو، اجمالاً، من الفئات المتنفّذة والأُسَر الحاكمة في البلد. وكان معظم الخدم والنادلين فيه آثوريين مهذّبين، معروفين بإتقان الخدمة وحسن التصرّف، يتكلمون

العربية بصعوبة وبلكنة تميّزهم، ونوعاً من الانكليزية المحدودة يسيّرون بها شؤونهم (وسيأتي يوم بعد ذلك بعشر سنوات، يُعرّق فيه النادي، إلاّ أنه يبقى لمدة طويلة الملتقى الاجتماعي المتميزّ في المدينة).

كانت الأمسية حارّة، غير أن الحديقة باردة بأرضها المكسوّة بالثيّل المقصوص حديثاً، والمسقيّ، والمعتنى به بشكل أنيق، تحيط به أشجار الورد والجنّهميّات الكثيفة . وكنّا، مع ربة الحفلة وزوجها، الوزير السابق، ثمانية أشخاص على مائدة نُصبت على طرف الحديقة.

لاحظت أن السيدة كزين، اذ جلست على رأس المائدة، على الطرف المقابل لزوجها، أجلستني على يمينها، إيعازاً منها بأنني ضيف الشرف. وانتبهت إلى ان الرجال الأربعة من زملائي في العشاء (وكانت هناك سيدتان انيقتان أخريان، غير ربة الحفلة) يلبسون قمصاناً بيضاء، طويلة الأردان، مع رباط عنق، في حين أنني جئت لابساً قميصا أزرق، قصير الردنين، ومفتوح العنق - دون رباط . وأدركت فجأة أنني ارتكبت خطأ كبيراً، من حيث الاتيكيت، لأن قوانين النادي تقتضي أن يرتدي الرجال في المساء بدلة، ورباط عنق، واذا كان لابد من نزع السترة بسبب الحرّ، فالواجب ارتداء قميص أبيض طويل الردنين، مع رباط عنق.

اقتربت من أذن ربة الحفلة، وهمستُ : «أرجو معذرتك، فأنا في غير الزيّ الذي يجب ان اكون فيه هنا...»

فأجابتني هامسة، ضاحكة، محاولة ألاّ تلفت أنظار الآخرين : «جاءني النادل سرجون، ونبهّني، وانت مشغول بالحديث، فقلت له بصوت منخفض : إياك ان تثير الموضوع مع ضيفي. إنه غريب. وفي.أي . بي.

(رجل مهم جدا)...»

فضحكت وقلت : «Pour épater le bourgeois...»* .

فأجابت : «أنت ما قصّرتَ في ذلك يوماً، مما لاحظت في الكلية، ولا سيما عندما تشدّ رباط عنق حول خصرك بدلاً من الحزام!»

وكركرتْ بضحكة مستمرة وهي تركبّ سيكارة في مبسم طويل، وأنا أشعل لها السيكارة.

* * *

كان الإقبال على معرض الكلية كبيراً، ومستمرّاً من الصبح حتى المساء، ولاحظت أن الكثيرين من الشباب جاءوا إليه لأنه في كلية للبنات، ويطيب لهم ان يتحدثوا إلى الطالبات اللواتي يقفن قرب المعروضات. وكانت أشدّهن جذباً السيدة فطينة النائب، تلميذتي (التي كانت تكبرني سنّاً، في اواسط ثلاثيناتها، لأنها التحقت بالكلية بعد انقطاع طويل عن الدراسة، والوحيدة التي اسمح لها بالتدخين في أثناء المحاضرات) : فقد اشتهرت بقصائد غزلية كان الكثيرون يحفظونها عن ظهر قلب، وكانت هذه فرصةً للمعجبين بها يرونها فيها دون العباءة، التي كان من شأنها أن ترتديها عند خروجها بين الناس. وقد كثّرت الآن من الكحل الذي يعطي عينيها بريقاً مدهشاً، وهي مستعدة للحديث والضحك مع الزائرين.

في ذلك المعرض، صبيحة اليوم التالي، التقيت زائرتين عرّفتني عليهما السيدة كزين بإعتزاز : السيدة عصمت السعيد، زوجة صباح نوري السعيد، والسيدة سعاد العمري، زوجة ممتاز العمري، مدير

---

* « لكي نصدم التقليديين . »

الداخلية العام، وابنة رجل مشهور تولىّ رئاسة الوزراء اكثر من مرة، أرشد العمري. وكانت لميعة تحدّثني عن سعاد دائماً بإعجاب خاص : واذا بها، وهي في مطلع الثلاثين من عمرها - كما علمت فيما بعد - جديرة بكل ما سمعته عنها من مديح . فهي رغم شبابها رئيسة جمعية الهلال الأحمر، وتلفت النظر بجمالها وأناقتها وحديثها. تمازج وقفتها الفارعة بين الرقة والكبرياء، ويوحي كلامها، بالعربية تحدثت أم بالانكليزية، بالذكاء والمعرفة. وبدا لي أنها سمعت عني من لميعة، فكانت هذه فرصة لتعارفنا، ركّزت فيها على لوحاتي، وتباهت كزين أمامها بأن «المرأة التي حلمت أنها البحر» قد أهديتها إياها. وأغلب الظن أن سعاد، إذ طال حديثنا مع القهوة التي قُدّمت لنا، رازتني جيداً، لأنها ليست فقط صديقة لميعة، بل زوجة أخي عالية، التي تكاد تكون الأخت التوأم للميعة. وكان هذا اللقاء بدايةً لعلاقات عائلية وشيكة التكونّ - وأنا لا أدري. (ولن أنسى انني بعد بضعة أشهر ولقاءات عائلية كثيرة، قلت لها يوماً، اعجاباً بمنطقها ووطنيتها : «لو كان هذا البلد جمهورية ، لكنت اول من يرشّحك لرئاستها.»)

بعد أيام، كنت في بيت لميعة مع عدد من الأصدقاء، حين بادرتني بسؤالها : «اذن التقيت بسعاد؟ امرأة هائلة، ألا توافق ؟ ولكن أتدري ماذا قالت عنك؟»

قلت : «هل قالت شيئاً مهما؟»

أجابت : «سألتها عن رأيها فيك، فقالت : «لا أستطيع أن أقرّر، هل هو شخص حقيقي، ام شخص مصطنع، غير حقيقي...» ومن يستطيع مناقشة سعاد في رأيها!»

- «وأنت، ماذا تقولين؟ أحقيقي أنا أم غير حقيقي؟»

- «حقيقي جدا. وهذه مصيبتي! ولكن لماذا لم تخبرني أنك فارقت اللوحة التي تدّعي أنك تحبّها كثيراً؟ لمن أهديت «المرأة التي حلمت أنها البحر» ؟ وهكذا، لوجه الله؟»

- «إذن، جاءك الخبر؟»

- «وأريد أن تسترجعها.»

- «مستحيل!»

- «اذن أنا زعلانة... اريد اللوحة.»

كنت أتمتع بهذا الإيحاء بأن لها من المكانة عندي، او أن لي من المكانة عندها، ما يعطيها حقّاً عليّ. كانت أعراض الحب ظاهرة علينا، مهما حاولنا التظاهر بالتقليل من شأنها، كأنّ ما بيننا ليس إلاّ صداقة حميمة ترفرف فقط على حافة الحب. فقلت : «سأرسم لك لوحات غيرها. وغداً آتيك بواحدة رسمتها حديثاً.»

فأصرّت على أنها تريد «المرأة البحر»، ولو انها سترحّب بأية لوحة أخرى تضاف إليها. وفجأة، ولأول مرة في حياتي، خطر لي أن ارسم اللوحة التي تريدها مرة أخرى، مع أنني كنت أشعر أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك، فضلاً عن أن رسم أية لوحة مرتين كان في نظري كفراً لا يطاق. ولكن من أجل لميعة؟... فقلت : «سأعيد رسمها، لك فقط!»

- «وكما هي بالضبط ....متى؟»

- «أرجوك، لا تستعجليني. ولكنني أعدك بأنني سأعيد رسمها،

وستكون هذه اول وآخر مرة في حياتي ارسم فيها اللوحة نفسها مرتين.»

- «طيّب ، قبلت : ولا تتصور أنني سأنسى!»

لا هي نسيت، ولا أنا نسيت . ولكنني ماطلت أشهراً عديدة، إلى أن جئت يوماً بلوحة مرسومة على «خشب معاكس» تحمل موضوعاً رسمته يوماً، يمثّل تلميذتي العزيزة على الناحية اليمنى من الصورة وهي تواجه، في الطرف الأقصى الآخر، الفتى الذي تحبّه مقبلاً عليها، ويده (وأي يدٍ رائعة الأنامل جعلتها!) ممتدة نحوها، عبر تلةٍ فلسطينية صخرية، ولكنني فيما بعد أدخلت على الصخرة التي بينهما وجهاً عبوساً، رهيباً، لعله وجه السيّاف في حكايات ألف ليلة وليلة، فأفسد الصورة كليا... قلبتُها، وعلى ظهرها، رسمت من جديد «المرأة التي حلمت أنها البحر» ، وغيوم السماء تَتَشَخْصَن وحوشاً تحوم حولها. وكان ذلك في ربيع العام التالي. ولم يَغِب على لميعة شيء من إيحاءاتها التي بدا أن أغوار اللاوعي، كأغوار البحر، راحت تقذفها إلى السطح مرة بعد مرّة، لتتلاشى مع زَبَد الموج مرةً بعد مرة.

* * *

كانت السنة الأكاديمية على وشك الانتهاء، وكنت قد قررت أن انفّذ في ذلك الصيف رغبةً بقيت متوقدة في نفسي سنوات : أن اذهب الى باريس وأقضي فيها أشهر العطلة الصيفية. وقد أضحى ذلك ممكناً برواتب تلك الأشهر التي كانت الكلية تنقدنا إياها، مقدّما، دفعة واحدة في نهاية شهر آيار.

وكان من أسهل العمليات في تلك الأيام، إذا توفرّ المال المطلوب،

ترتيب سفرة بحرية من بيروت إلى مرسيليا، ومنها بالقطار إلى باريس، وذلك بمراجعة شركة توماس كوك، التي كان مكتبها بجوار فندق السندباد، على بعد خطوات من شقتي. وكان المسؤول هناك شاباً دمثاً، صبوح الوجه، يدعى صموئيل، رتّب لي التفصيلات كلها، واختار لي سفينة يونانية ترسو في عدة موانىء في البحر الأبيض المتوسط في طريقها إلى غايتها : فتبحر من بيروت إلى الاسكندرية، ومنها إلى بيريوس - ميناء أثينا - وبعدها تزور نابولي، ثم تتوجه نحو مرسيليا. وتمّ كذلك ترتيب سفرة بالقطار منها إلى باريس.

غبطني أصدقائي، الباقون في لظى الصيف في بغداد، وليس فيها من وسائل التبريد أيامئذ إلاّ المراوح، التي تعصف عليك بالهواء الحارّ، وقد تبلغ حرارته في الظل ٤٨ درجة مئوية، لأن المبرّدات - التي عمّت العراق بعد ذلك بسنوات بصورة مذهلة - لم تكن معروفة بعد. أما التكييف الهوائي فلم يكن موجوداً إلاّ، ربما، عند عدد صغير جداً من أهل الثراء. ولكن العوض، أو بعضه، كان في الليالي التي يطيب هواؤها عندما ينتصف الليل، والناس ما زالوا بالآلاف يملأون المقاهي المكشوفة على ضفاف دجلة، او ينامون على أسطح بيوتهم بعد أن يرشّوا بلاطها بالماء على فترات.

لميعة وصديقاتها، وتلميذتي الوفية، لم يتحمّسن لغيابي تلك المدة الطويلة، ولكنهن قدّرن اهمية أن يتاح لأي انسان أن يقضي صيفاً بكامله في باريس. ووعدت بالكتابة إليهن بين الحين والحين، ريثما أعود إلى بغداد في اوائل تشرين محمّلا بأخبار وحكايات سندبادية.

وقبل مغادرتي بيوم، كنت ساعة العصر في دار لميعة، وجلسنا على

الدكّة الأنيقة بمفرشها قرب النافذة الخلفية العريضة من البهو، التي باتت مكاننا المفضل، وقد زرعت على عتبتها نبتة خضراء، لعلها نوع من الحبق النادر ببغداد، بان عليها الإحساس بوهن بداية القيظ. ولفتت لميعة نظري اليها، وقالت: «اوف، من الذي سينعشها؟»

اجبت ضاحكاً : «هذه نبتة العشّاق، ولن تنتعش إلاّ بالتنهّدات... هل تسقينها كل يوم؟»

- «طبعـــاً.»

- « لن يفيدها أن تسقيها بالماء . يجب ان تسقيها بالدموع...»

- «طيبّ، سأسقيها بالدموع.»

- « وعندما أعود...»

- «ستجدها قد كبرت، وانتشرت على النافذة كلها، بدموعي وتنهّداتي.»

- «وضمي إليها أيضاً دموعي وتنهداتي، هه؟»

ولطالما أشرنا إلى نبتة الحب هذه بعد ذلك بسنوات، وهي تطالبنا بالدموع والتنهدات، تأكيداً على السعادة الهائلة التي عرفناها أنا ولميعة، رغم كل أزمات الحياة ومشاقها التي ما كفّت عن التوالد في ظروف تاريخية لم تعرف يوماً الاستقرار.

(٤)

حالما وصلت بيروت اتصلت بصديق من أعزّ أصدقائي أيام القدس، ثيو توفيق كنعان، الذي كان قد أسس بمشاركة صديقي الآخر، عاصم سلام بعد عودته من كمبردج (وكان قد قبل فيها بكليتي، فتزوليام هاوس، بوساطة خاصة مني لدى العميد وليام ثاتشر) مكتباً للهندسة المعمارية، سرعان ما اشتهر بتصاميمه الحديثة. وقد تميّز المكتب بمنحوتة متحرّكة (موبايْل) كبيرة من عمل مبدع هذا الضرب من النحت، الكسندر كولدر، عُلِّقت في السقف، وهي تتحرك لأقل لمسة يد أو نسمة هواء فتضفي على المكان جوّاً غير عادي من البهجة.

أخذني ثيو إلى منزله في عين المريسة، نازلاً بي إلى مستوى البحر في عمارة قديمة. فقد رمّم منزله، وحدّثه من الداخل، وأبقى على نافذته المقنطرة الكبيرة، وقد بنيت على صخور البحر بالذات. وقضيت عنده ثلاثة أيام ونحن نتأمل الأمواج وهي تتلاطم على النافذة، كما تتلاطم من بعيد على منظور مسترسل من البيوت الحجرية الأشبه بقلاع قديمة، وكلانا في حديث مستمرّ عن كل ما في الأرض وفي السماء، فضلاً عن فلسطين، والقدس، وبيته في المسرارة، وبيتي في القطمون الذي كان مشهد لقائنا الأخير قبل ذلك بأربع سنوات، يوم «جُنَّ» ثيو بشرفته الفائضة بشمس الصيف، فخلع بغتة سترته وقميصه، ليستوعب تلك الحرارة المحيية، وذلك الألق الإلهي، بالنصف الأعلى العاري من جسمه...

وانضمّ إلينا جاره إيلي بيتجالي، قافزاً من على صخرة منزله إلى صخور منزل ثيو... وقرأ لي قصتين أو ثلاثاً من أغرب ما سمعت من قصص، كتبها بالانكليزية، ونحن، دونما خجل، نحاول إحياء أيام القدس الرائعة من جديد، وكأنها أصبحت من ذكريات جنةٍ لن تطأها أقدام البشر مرة أخرى.

وفي اليوم التالي رسمت بالألوان الزيتية المشهد البحري من خلال النافذة، مركّزاً على البيوت الحجرية المتنائية، التي هي من أروع ما يرى المرء أحياناً على سواحل بيروت، بل سواحل لبنان كلها.

قلت : «انظر، ثيو، إلى تلك الأسلاب التي يتقاذفها الموج... نحن الفلسطينيين الآن مثلها، تتقاذفنا أمواج العالم، تقارب بيننا حتى نتعانق، ثم تفرّق بيننا بعنفها، فنتطاير في ألف اتجاه ، ولا نعلم إن كانت ستعود يوماً وتجمعنا، ولو بعنفها، مرة أخرى...»

هناك، قبل مغادرتي، كتبت رسالة طويلة إلى لميعة، كانت أولى رسائلي إليها. وكتبت رسالة أخرى إلى تلميذتي الوفية. وطلبت الى ثيو أن يودع الرسالتين في البريد.

وبعد ركوبي السفينة، لم ار ثيو مرة أخرى، ففي صيف السنة التالية، كان في زيارة لآثار جرش في الأردن، وإذا بحجارة أحد المواضع الآركيولوجية تنهار تحت قدميه، وتقتله بركامها...

* * *

لن أتحدث عن تفاصيل سفرتي البحرية، لأن لها حديثاً طويلاً آخر : فهي خيط متلألىء في نسيج تجاربي تلك السنة، ولا بد من تركه جانباً،

ولو إلى حين، لكي لا أبتعد عن متابعة الخيط الأجمل والأشَدّ بريقاً في هذا النسيج. إنما المهمّ، أينما اتجهت بنا السفينة، وفي أي ميناء رست لكي ننزل برًا لمشاهدة الناس والاسواق والمواقع، كانت لميعة برفقتي دائماً على نحو لم أكن أتوقعه، ومعي كل هؤلاء المسافرين والمسافرات الشباب. غير أن تلميذتي أيضاً كانت معي، تزاحم لميعة الضاحكة الصاخبة، بصمت غريب أشبه بصمت الإيقونات البيزنطية. فأكتب لكل منهما رسالة أودعها بريد الميناء التالي في سفرتنا.

وقد قامت صداقة بيني وبين عدة أشخاص في السفينة، كان بينهم شاب مصري، يقاربني سنّاً، دمث خجول، ارسله أبوه إلى باريس لقضاء شهر للسياحة والثقافة، ولا يعرف الفرنسيّة. وكنت انا منذ أشهر ببغداد أدرس الفرنسية وحدي، وانهيت جزءاً أو جزاين من كتاب «علّم نفسك الفرنسية». وقد نزلنا بادىء الأمر، بباريس، في الفندق نفسه معاً، وكان أول ما خطر لصديقي أن نفعله هو أن نذهب في المساء إلى مسرح الـ «فولي بيرجير»، فذهبنا. وفي المساء التالي ذهبنا نبحث عن حي «بيغال». ولكنني في كلتا الحالتين خرجت ضجراً من مشاهد النساء العاريات، في شتّى اوضاعهن واغراءاتهن، لأن خيالي بقيت فيه امرأتان تلّوحان لي بالجمال والغواية على نحو مغاير، لا أجده في هذه الأماكن. وفي اليوم الثالث جاء لصديقي اقارب أخرجوه من الفندق وأخذوه معهم. وإذا بي أفاجأ بعد الظهر بزيارة صديقة جاءت هي أيضاً من بغداد لقضاء موسم الصيف في باريس، وستحاول في الوقت نفسه أن تقدّم اوراقها لجامعة السوربون للدراسة فيها للدكتوراه.

أحد زملائي بكلية الآداب والعلوم كان استاذاً فرنسياً يدعى المسيو

توبيلييه، يدّرس الأدب الفرنسي، وزوجته تدّرس الفرنسية في كلية الملكة عالية. وكان كلاهما قد سُرّ لأنني عزمت على السفر إلى فرنسا، وأعطياني رقم هاتفهما في احدى ضواحي باريس. وكان أول ما فعلت أن أعلمتهما بوصولي، وكانا هما أيضا قد وصلا للتوّ. وفي يومين أو ثلاثة جاءا لزيارتي، ومساعدتي في الانتقال إلى السكنى مع عائلة فرنسية، أتعلّم من أفرادها التحدث بالفرنسية - فضلاً عن أن السكنى في غرفة مع عائلة ارخص بكثير من الاقامة في أي فندق.

وقد بادرني المسيو توبيلييه، وهو ينظر إليّ بنظارته الكبيرة السميكة العدستين، ويبتسم ماكراً : «أنت عربي، فلسطيني، تمام؟»

قلت : «نعم.»

قال : «ولكنك عندما تتكلم الانكليزية، كما تتكلم معي الآن، كل من لا يعرفك يتصوّرك انكليزياً - بل انكليزياً من اكسفورد أو كمبردج.»

فضحكت : «طبعاً. دراستي كانت في كمبردج.»

- «هل عندك مانع إذن من أن تتظاهر بأنك انكليزي؟»

لم أفهم ما الذي يرمي إليه، فشرح الموقف : «أعرف عائلة فرنسية طيبة جدا، تسكن في بولفار راسپاي، وهو حي أقرب إلى الأرستقراطي، كما تعلم، وعندها غرفة تؤجرها، ولكن لشخص انكليزي فقط.»

- «لماذا انكليزي، دون باقي البشر؟»

- «هوس نسائي، يا سيدي. فسيدة الدار أرملة درست يوماً قبل الحرب شيئاً من الأدب الانكليزي، ويعجبها أن تتحدث بالانكليزية، ولا

تجد دائماً من تخاطبه بها، وتخشى أن تنسى اللغة. والأدهى من ذلك أن ابنتها الطالبة، تدرس هي أيضاً الأدب الانكليزي... فهمت الآن؟»

قلت : «آسف، لا استطيع ان أدّعي لها بما تريد أنت.»

قال : «أنت لا عليك، سأقول لها أنا ما أريد، وأنت لن تدّعي شيئاً... ما عليك إلا أن تخاطب السيدة بالانكليزية. »

- «ولكنني أريد السكنى مع عائلة فرنسية لكي ادّرب نفسي على الفرنسية . وأنت تطالبني بالعكس!»

- «أبداً. تكلّم بالفرنسية كلما اردت، ولو أنك ستجد ذلك صعباً في الاسابيع الأولى. ثم إنك في باريس، يا عزيزي. وما زالت الفرنسية لغة باريس، بالرغم من الغزو الأمريكي! وسوف تجد أن هذه العائلة ستؤجر لك الغرفة في دارها الجميلة بسعرٍ لن يخطر ببالك، وباريس ليست مدينة رخيصة. أترك الأمر لي.»

في اليوم التالي جاء توپيليه مع عقيلته، وطلب إليّ أن أحزم امتعتي وأسدد حسابي مع الفندق. ففعلت، وذهبنا في سيارة أجرة إلى بولفار راسپاي، وكنت قد قرأت عنه. ودخلنا في احدى الدور الكبيرة، المتعددة الطوابق، وصعدنا إلى الطابق الثاني، ووجدنا انفسنا ندق جرس أحد الأبواب . وخرجت إلينا امرأة تقارب الخمسين، قدّمني إليها صديقاي، ورحبّت بي، بالفرنسية أولاً، ولكنني - إذعاناً لخطة زميلي، وتسهيلاً على نفسي - رحت أتكلم بالانكليزية. فسُرَّت السيدة، ودعت ابنتها التي كانت قد مسحت وجهها بمرهم أبيض، ربما لمعاناتها من حَبِّ الشباب، فبان محيّاها كأنه قناع أرليكان، واقتادوني جميعاً إلى غرفة كبيرة، تطلّ على

الشارع العام، مزوّدة بثلاجة صغيرة وفيها فراش عريض، وكنبة وكرسيان كبيران، وكرسي مستقيم الظهر ومنضدة، وهل لي أن أطلب أكثر من ذلك ؟ ورسم الإيجار؟ لم أصدّق أذنيّ! كان بالضبط نصف ما أدفع ببغداد! وتبرعت السيدة الفاضلة وقالت : «أما بخصوص الفطور، فما عليك إلا أن تشتري ما تريد من بيض وجمبون وزبدة ومربًى وخبز وقهوة، وأنا اهيىء لك الفطور كل صباح...»

وعندما ودعت توپيليه وزوجته، وقد نزلت معهما إلى الشارع، أردت التأكد من أنه لم يُلبسني قناعاً لا أريده. فقال : «أبداً، أبداً، لم تسألني السيدة عن جنسيتك، فهي ما كادت تسمعك تنطق بالانكليزية، حتى نسيت كل شيء أخر!»

وهكذا كان. وقد ساعدتني سيدة الدار في الجواب عن كل استفسار بتفصيل دقيق. وكنت قد اشتريت خريطة جيدة لباريس، مع دليل هاشيت السياحي، كعادتي فيما بعد كلما ذهبت إلى مدينة كبيرة لا أعرفها، ورحت أراجع الاماكن والعناوين على الخريطة . وغامرت بنفسي ونزلت إلى المترو، الذي وجدته يختلف كثيراً عن قطار الانفاق في لندن، ولكن خطته أيضاً واضحة، على طريقته. وفي يومين أو ثلاثة كنت قد التحقت بمدرسة الأليانس فرانسيز، التي لحسن الحظ، كانت مباشرة على خط الباص الذي يمرّ بالدار. فكانت صباحاتي في معظمها مكرّسة لدراسة الفرنسية هناك.

ومنذ اليوم الأول دلتني السيدة على مكان شبّاك البريد (پوست رستانت) في المدينة، الذي كنت أوصيت لميعة، وكذلك تلميذتي، بالكتابة إليّ عن طريقه، ريثما أعلمهما بعنوان إقامتي بباريس. فوجدت في انتظاري رسالة من لميعة،طويلة، وأخرى لا تقل عنها طولاً من التلميذة،

ورسالة ثالثة من أخي يوسف في بيت لحم : فالرسائل بيننا في تلك الأيام كانت متواصلة.

وخطر لي أن أتصل هاتفياً بإحدى فتاتين فرنسيتين صادقتهما على ظهر السفينة اسمها نادين. كانت قد أعطتني رقم هاتفها ، وقالت إنها تقيم في الضواحي. وجاءت مبكّرةً صباح اليوم التالي، وخرجت بي في ما دعته جولة سياحية في مدينة تكاد لا تعرفها هي أيضاً! فذهبنا الى الشانزليزيه لتناول القهوة على رصيف أحد المقاهي، ثم توجهنا إلى «قوس النصر» الذي يتوسط «النجمة» المشهورة وصعدنا من داخل القوس إلى السطح لنرى من ارتفاع شاهق كيف يلتقي عند «الإتوال» اثنا عشر شارعاً عريضاً، وهي تحدّثني باعتزاز كبير عمّن خططها، ولمن أقيم قوس النصر، وبأي تاريخ. وبعد الغداء، ذهبنا إلى ساحة تروكاديرو، ونزلنا الدرجات العراض إلى قاعدة برج إيفيل، ومع مئات السائحين ارتقينا بالمصعد الضخم إلى الطابق الأول، فالثاني، فالأعلى، من البرج الذي يعلو ثلاثمئة متر (حوالي ألف قدم) فوق أسطح المدينة، وغدا منذ إقامته في عام ١٨٨٩ رمزاً لباريس. ولا عجب، فقد كان حتى سنة ١٩٣٠ أعلى بناء في العالم، وأعجوبة من أعاجيب الهندسة الميكانيكية وأخيراً انتهينا إلى مقهى لشرب المزيد من القهوة. ثم أوصلت الأنسة إلى المترو، وقد أحسست أنها فتاة طيبة جداً، خام جداً، وكان يوم واحد كافيا لإستنفاد مواهبها جميعاً.

لا أحسب أنني عرفت نشاطاً مكتظاً في حياتي كالذي عرفته في تلك الأشهر الثلاثة في باريس - وكنت أحسب أنني كثير النشاط ببغداد! كنت في حركة دائبة، ألعب دور المتلقّي الذي أصابه النهم بعد سنوات من

جوع ثقافي منذ مغادرتي كمبردج، وكنت بدأت أشعر أنني استنفد خزيناً ذهنياً لا بد من اعادة ملئه. وها هي المدينة التي تعطيك وتعطيك بقدر ما بوسعك أن تأخذ، وتلتهم . وعشقي للفنون هنا ما يغذّيه ويشحذه كل يوم، وبمزيد من اللهفة والمتعة. ما أروع أن أذهب مرةً أخرى، بعد دهر بكامله، إلى المسرح والاوبرا، والحفلات الموسيقية، واسمع باخ، لا من اسطوانات مشروخة، بل حيّاً من آلات نابضة، فأتابع الأيدي الرهيفة وهي تصعد بالأقواس وتنزل بها على اوتار الكمنجات بتساوق الراقصات في البريلود والفيوغ، وأرى الكتب أكداساً على الرفوف وملقاةً على الأرصفة!

ولما ذهبت إلى متحف اللوفر أول مرة، ورحت أتجول في قاعاته طابقاً بعد طابق، اصبت بدوار غريب، لذيذ. كل ما درسته بجهدي عن الفن، عن طريق الكتب، بدءاً بالحضارات الأولى حتى آخر حركة في الرسم والنحت، وجدته هنا مجسّداً في هذه الآلاف من اللوحات الحقيقية، والتماثيل التي تغريني دوماً بلمسها كأن فيها استجابة المعشوق : في اللوفر أولاً، ثم في المعارض الكثيرة في كل مكان. وبعد زيارتي الثانية لمتحف اللوفر قررت أن اقنّن هذا الثراء الباذخ، بأن أزور كل يوم أو يومين قسماً محدّداً أركّز عليه، وبيدي دليل بالتفاصيل والأسماء والتواريخ. وهكذا جئت على معروضات اللوفر كلها، بعقلانية مستحيلة، في الاسابيع التالية .

ويوم ذهبت إلى حدائق التويليري، لزيارة متحف الأورانجري حيث تحفظ لوحات الانطباعيين وما بعد الانطباعيين، أي فرح عارم هزّني حتى النخاع! وكما هو شأني كلما فاجأني الجمال، شهقتُ وفاضت عيناي، وأنا أحاول يائساً كبح الدموع، لئلا يراني الزوّار ويعجبون لبكائي! هكذا

كان حالي حين رايت لأول مرة لوحات مونيه، وديغا، ورنوار، وبيزارو، وسزلي، وسيزان، وفان غوخ، والآخرين، رأيتها بألوانها وأحجامها الحقيقية. أما فان غوخ، بأصباغه الكثيفة، وكأنها للتوّ قد أسقطها ضربات على القماشة من فرشاة عريضة محمّلة بالأصفر والأزرق والأخضر - فقد كهربني، وأوصل إليّ، كما بإنتفاضات الجنون، إدراك العبقرية التي، إذ تتملك الفنان، تحييه بقوة مضروبة بألف، ليس له بعدها إلا الموت عشقاً أو ألماً لما رأت العين، وصنعت اليد، واكتنز في القلب.

رحت أبحث عن أعمال الكثيرين ممن كانت صورهم ورؤاهم تسكنني منذ أيام دراستي في كمبردج، وكليتي، حيث كنت أيضاً أقيم، تنهض مقابل متحف فتزويليام الذي بقي رغم الحرب مستمراً بإقامة المعارض التي أشعر أحياناً أنني أعيش معها، بقدر ما أعيش مع عباقرة القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر من شعراء وروائيين ونقّاد كانوا دائبين على إغناء تجربة الانسان، تجربة الحضارة الانسانية كلها، دونما وقفة. أعمال جورج براك أنتشي بها، ولما رأيته يوماً يتمشّى قرب لوحاته، تعجّبت لرؤية مهابته وبساطته معاً. هكذا يكون مغيّرو العصر للمزيد من الحب والفرح، في عصر يتآكله الخوف من القنبلة الذرية القادمة...

ولما وجدت معرضاً لأعمال ماتيس، وكان ما يزال حيا، احسست أن الحياة تتضاعف دفعاً في عروقي، وأنني اتضاعف تجاوباً مع جمال حسّي لا يستحق العيشُ أن يدعي حياة بدونه . وفرناند ليجير، بعمّاله الصاعدين النازلين على الأساقيل، الدائرين مع الدواليب والعجلات، وهم يبثّون عشقاً أزرق متوهجاً على كل ما يصنعونه بأيديهم، ويتلولبون حوله

بسيقانهم، ووجوههم تنضح بعافية لعوب، وكأن المدينة سيرك لا تنتهي بهلوانياته المثيرة : كم أحببته وترددت على لوحاته.

كنت أعود إلى غرفتي في بولفار راسپاي منتشياً، ويداي ترتجفان تحرّقاً للريشة، وارسم على الورق بالزيت، أو بقلم الرصاص. وكنت منذ أول ذهابي إلى بغداد أرسم على الورق، وأحياناً على قطع من الخشب المعاكس، مختاراً حجماً أقرب إلى الصغر، لأنني أعلم أن عليّ أن أتنقل برسومي أينما ذهبت، واللوحات الكبيرة عسير عليٌ نقلها. وبي ذلك الإحساس بأنني، مهما توهمت أنني باقٍ في مدينةٍ ما، فإن الهجرة بانتظاري، ولا بد من تهيؤ دائماً لحركة قادمة.

وقد دأبت في كثير من الأماسي على تناول عشاء بسيط في غرفتي، يتألف من الخسّ والبندورة والـ «سيلري»، وأنواعٍ من الجبن الفرنسي شغفت بها : كالكامومبير، والروكفور، والبري، مع «عصي» الخبز الفرنسي الذي يكاد يكتفي المرء بتناوله وحده في أية وجبة ، فكيف إذا صحبته هذه الأجبان مع الزبدة؟

وكان ذلك كلّه يمدّني بالمزيد من التوق، بالمزيد من العنفوان، بمزيد من الرغبة في تأكيد روعة تجربة العين، وتجربة الأحاسيس التي يتضافر فيها الجسد مع العقل.

أتابع دروسي في الأليانس فرانسيز، وأكتب الرسائل إلى لميعة، وإلى تلميذتي، وتزورني السيدة البغدادية مرةً أو مرتين في الاسبوع في عصاري من العشق الذي يطوّح بي، وبها، في مهاوٍ من جنون الجسد لا أعرف لنفسي طريقاً للنجاة منها... ومقاهي سان جرمان أتردد عليها لما

حفظت من أسمائها مما قرأته عن الوجوديين، وخيِّل إليّ أنني، مرةً أو اثنتين، رأيت جان بول سارتر في مقهى الـ «دو ماغو»، مع أنني كنت دائماً أقول إنني لا يهمني أن أرى العظماء المعاصرين، وسارتر نفسه سرعان ما «تجاوزته» عندما وجدتني أنجذب مفتوناً إلى البير كامو واندريه مالرو. (بعد ذلك بخمس سنوات، صادفت الشاعر الذي كنت أحبّه، لوي مكنيس، والذي كثيراً ما شبّهني به الناقد الانكليزي ريجي سميث أيام كنت اكتب الشعر بالانكليزية في القدس. صادفت الشاعر في لندن، جالساً وحده في مقهى على الرصيف في «أپرَ ريجنت ستريت» وكان برفقتي توفيق صايغ. وذهلنا كلانا للشبه الفيزيائي بينه وبيني، مع أنه كان يومئذ قد شاب شعره الطويل، وأنا لم تبيضّ لي شعره في مفرقي بعد : وكانت تلك المرّة الوحيدة في حياتي كدت اندفع فيها نحو رجل سحرتني شاعريته، ومع ذلك أحجمت، وبقيت مع صديقي انظر إليه من بعيد يحتسي قهوته وحيداً، إلى أن غادر المكان. وفجأة أصابني ندم وحزن شديدان لأنني لم أبادر إلى دفع ثمن قهوته عنه...)

كانت رسائل لميعة تشبه حديثها : فهي تتفكّه وتمرح، ولا أعرف أحياناً أجادّة هي أم هازلة في ما تقول أو تكتب . واتخيلني دائماً اسمع ضحكتها الفضيّة. وتحدثني عن النبتة التي راحت تسقيها بدموعها وترعاها بتنهداتها، وفي كلامها ما يذكّرني بالأغاني التي علّمتني ببغداد أن أحبّها، بعضها عربي، وبعضها عراقي قديم، وبعضها من الأغاني الشائعة يومئذ في امريكا ، وبخاصة أغاني روزمري كلوني . وأحسّ حضورها معي دوماً، ضاحكة، ضاجّة، تغني مقاطع قصيرة من أغانيها المحبّبة، ثم تقول لي : «يلاّ، اقرأ لي إحدى قصائدك.» أو تأتيني بسونيتات

شكسبير وتفتحها أينما اتفق، وتقول : «إقرأ لي بصوتك هذه السونيتة، على طريقتك...»

ولكن تلميذتي العزيزة كانت حاضرة معي هي أيضاً، وتبعث لي برسائلها الطويلة ملأى بمقاطع شعرية بالعربية والانكليزية، فلا استطيع نسيانها. والسيدة البغدادية، التي جاءت تتابع شؤون تسجيل اسمها للدكتوراه في الأدب الفرنسي بجامعة السوربون، تذكرّني بإلحاح بحضورها الجسدي المثير، وتريدني أن أنسى كل امرأة غيرها.

وذات يوم، وصلتني رسالة من فتاة رابعة، من بيت لحم، كانت قد سقطت من بالي كليًا، قائلة إنها أخذت عنواني الباريسي من أخي يوسف، وإنها في انتظار عودتي إلى الوطن...

في تلك الأيام رسمت بالقلم الرصاص صورةً لأربع نساء متداخلات أمامي، وأنا أقلّب بصري بينهن، وقد التصقت بي حتى صارت جزءاً مني إمرأة/ إلاهة ما، تهمس لي : «ألن تقرّر خيارك؟ أهذه ؟ أتلك؟ أأنا؟» ولكن وجوههن جميعاً نسخ متقاربة عن وجه لميعة. هل غدت هذه المرأة التي بتُّ محتاراً في حبها، النساء كلّهن؟

وعادت إليّ مجدّداً أحلام المرأتين اللتين أجدني في المنام أحتضن كلتيهما، إحداهما عارية والأخرى لابسة، ونحن ننزل معاً الدرج اللولبي الذي لا ينتهي ، بين حشود من البشر، المشدوهين بما يرون. وكان عليّ أن أخلص من الحلم المتكرر برسم لوحة لهذا المشهد، على نحو ما رسمت رجلاً وسيما، غير عابىء بشيء أو أحد، وهو يشدّ إلى صدره المرأة العارية بيمناه واللابسة بيسراه، وهم يسيرون في شارع يشبه

شوارع باريس، وثلاثتهم يحملون أقنعة كثيرة من كل نوع، معلقةً بخيوط تتصل بأيديهم وسواعدهم، ومن شرفات المباني حولهم يطلّ رجال ونساء يلبسون الأقنعة، وكأنهم اشتروها قبل لحظات من أشخاصي الثلاثة... «بائعو الأقنعة»، هكذا عنونت الصورة... فالفنان ما أكثر الأقنعة لديه، لأنه حتِّم عليه أن يحيا أكثر من حياة، وأن يحيا أكثر من الآخرين. وكل عمل فني يبدعه إنما هو قناع آخر عاش به إحدى تلك الحيوات، ويقدّمه للآخرين لكي يرتدوه في ساعات الزخم من تجاربهم.

من «أوجه» الحقيقة الكثيرة يصنع الفنان للآخرين «وجوهاً» هم بحاجة إليها . وتذكّرت أننا أيام الصغر كنا نسمي الأقنعة وجوها، ويلذّ لنا أن ننوعها حين نلبسها ما بين المضحك والمحزن والمخيف. وأحسست أن «الوجوه» التي يهيئها الفنان للآخرين ليحيوا بها، أشدّ تنويعاً بكثير، وأغزر ضحكاً وحزناً وخوفاً،وهي غير الأقنعة التافهة التي يفرضها عليهم المجتمع كل يوم . إنهم بحاجة إلى أقنعة الفنان داخليّاً، حيث يمثلون أدواراً لا تنتهي، ويخشون أن يراها أحد على وجوههم. أما قناع اللحظة الآنيّة، الخارجية، فما أسهل ما يرتدونه وينزعونه، غير أنّ الأقنعة الداخلية، أقنعة الخيال، هي التي هم في بحث دائم عنها، ويشترونها أينما وجدوها، والمبدعون هم مراجعهم، ومنقذوهم.

إذن، في لوحتي ، ما من أحد بدون قناع إلاّ الرجل ورفيقتيه... وسيجيء يوم بعد أقل من سنة، سأجد فيه من يذكّرني بأن الذي يسير بين الناس بلا قناع، كأشخاص لوحتي، عليه أن يدفع الثمن غالياً...

لعل تفكيري بالأقنعة هو الذي أثار فيّ شكّاً كنت قد نسيته وجعلني،

قبل مغادرتي باريس بأيام، أن اقول لربة الدار، حين دخلت عليّ بالصينيّة التي تحمل ما هيأته لي من فطور، كما في كل صباح : «مدام، أنا سعيد جدا بعنايتك بي بهذا الشكل الجميل. ولكن لديّ نقطة أودّ لو أوضحها لك.»

سألت : «نعم؟ وما هي؟»

قلت : «هل تظنين أنني انكليزي؟»

بانت كأنها فوجئت : «لم أفكر بالأمر قط. المهمّ أننا، أنا وابنتي كلودين، سعيدان جدا بوجودك معنا.»

قلت : «أنا عربي، فلسطيني، هل تعرفين؟»

رفعت حاجبيها قليلاً، وقالت : «ولم لا؟ ويفرحني أن لنا الآن صديقاً عربياً، فلسطينياً، ومن بغداد أيضاً، نزل عندنا. تفضل، تناول فطورك.»

قلت : «صديقي مسيو توپيلييه ـ»

فقاطعتني، وهي ترفع الغطاء عن صحن البيضتين المقليتين، لتقول : «اوه، مسيو توپيلييه، إنه صديق عزيز ولم يزرنا لأسابيع. وهو غريب الطباع قليلاً، ألا تظن ؟ ولكننا نحبه ونحترمه. ثم أريد أن أقول لك : عندما تعود إلى باريس في الصيف القادم تذكّر أننا سنكون في انتظارك، سأرتب لك هذه الغرفة بالذات، وأجدد لك أثاثها... كيف تجد لغتي الانكليزية هذه الأيام؟»

«رائعة!» قلت. «وسأرى في الصيف القادم إن كنت حافظت على هذا المستوى.»

غير أنني لم أعد إلى باريس «في الصيف القادم».

لم أعد إلى باريس إلا بعد ثلاثين سنة أخرى، عام ١٩٨١ . وبعدها تكررت زياراتي لها طوال الثمانيات، ولكنني فقدت كل أثر للسيدة الكريمة صاحبة الدار في بولڤار راسپاي.

* * *

في اواسط أيلول، ذهبت إلى محطة القطار الذي سيقلّني من باريس إلى مرسيليا، لكي أركب منها الباخرة المبحرة بي إلى بيروت. وإذا بالسيدة البغدادية قد دبّرت أمرها بحيث وجدتها تنتظرني في المحطة، وأنا أبحث عن عربة النوم التي حجزتها لسفرة الليل.

كانت في الليلة السابقة ، وداعاً لي، قد دعتني للعشاء بترتيب منها، راجية ألاّ أعترض على ما سوف ترتّب، فقبلت، وقلت : «حتى ولو كان العشاء شطيرة نأكلها على الماشي». وإذا بها تأخذني إلى مطعم يدعى «تور دارجان» (أي «برج الفضة»)، لعله أفخم مطعم في باريس على الإطلاق، ما كنت لأحلم، وأنا في وضعي المادي يومئذ، بالاقتراب من عتبة بابه، ناهيك عن تخطّيها. فقبل كل طبق يأتيك نادل جديد، يصف لك ما تريد وما لا تريد من أطايب الطعام، ثم يأتيك نادل أخر، مسربلاً بمريول من جلد، ليقترح النبيذ المناسب للطبق الذي اخترته، ويأتي به من أعماق قبوه المكتظ بالخمور المعتّقة ويعرض عليك أن تزوره إن شئت - كما فعلت. ويتكرر تجدد النادل، وتجدّد الأطباق، وتنوّع الخمر عدة مرات، في جو معتم. مترف، صُنع «للغورمية» ، موعوداً باللذة والخطيئة...

هناك، على رصيف القطار، وقفت، وعلى أجمل ما تكون امرأة، وقد

حدست بأن لقاءنا ذلك سيكون الأخير، مع أنها كانت بعد شهر أو اثنين ستعود إلى بغداد. في عينيها الواسعتين كانت دموع كبيرة، وأنا، بعد تحميل حقائبي أصعد في اللحظة الأخيرة عتبة العربة، وهي تقول:

«هل سأراك في بغداد، هل سأراك؟» فأقول: «ربما، ربما... ولكن حياتي مضطربة، معقدة، قد أراك من بعيد، من بعيد فقط...»

ووجدت أن في العربة شريكاً لي يرقب من خلال الزجاج مشهد الفراق على استحياء، وعرفت، من شكله، ومن أول كلمة خاطبني بها بالانكليزية، ظناًمنه بأنني أجنبي آخر، أنه عراقي. وتحرك القطار ويد السيدة الجميلة الحزينة تلّوح لي، وأنا الوّح لها، إلى أن احتجب كلانا عن عيني الآخر... وتعارفنا، أنا ورفيق السفر، بالعربية وتبيّن أنه عائد من دراسته العليا في انكلترا، وأنه سيركب في مرسيليا السفينة نفسها التي سأركبها إلى بيروت.

* * *

لم أقض وقتاً طويلاً في بيروت هذه المرة، لشدة لهفتي للرجوع إلى دارنا في بيت لحم، حيث أمي، وإخوتي في انتظاري. ظهر اليوم التالي للرسوّ في بيروت، تغدّيت على مائدة صديقيّ العزيزين، عاصم سلام وزوجته سلافة الخالدي، ولم أكن قد رأيتهما منذ أيام لقاءاتنا الكثيرة في القدس في عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٦. وفي الرابعة بعد الظهر ركبت الطائرة التي حملتني إلى مطار قلندية، وهو يقع شمالي القدس على مقربة من رام الله. وفي المطار جرى تفتيش دقيق لأمتعة المسافرين القادمين، على إثر اغتيال المغفور له الملك عبدالله في المسجد الأقصى بالقدس، قبل ذلك

بأسبوعين أو ثلاثة. ولما فتحت إحدى حقائبي، انتثرت منها الرسائل الكثيرة التي كانت قد وصلتني في باريس، وسألني ضابط التفتيش مندهشاً : «ما هذا؟» قلت : «رسائل شخصية تراكمت عندي منذ مدة طويلة.»

جمع الضابط الرسائل في كومة كبيرة، وبان كأنه ينوي مصادرتها، أو حجزها للاطلاع على تفاصيلها، ولكنه غيّر رأيه، وأخرج رسالتين أو ثلاثاً من ظروفها، وبعضها بالانكليزية، وقرأ ما استطاع أن يقرأ : وأنا شديد الحرج لما سيقرأ من بوح وعتاب ومشاكسة، إلاّ أنه أعاد الاوراق إلى أغلفتها، وأغلق حقيبتي عليها، وأراحني من حرجي. (بعد ذلك بعشر سنوات، كنت عائداً من بيروت، وفي المطار نفسه رأى ضابط التفتيش في حقيبتي نسخة من ترجمتي لمسرحية «هاملت»، وبادرني بالسؤال عينه : «ما هذا؟» قلت : «مسرحية لشكسبير». فقال متجهّما : «انتظر.» وأخذ الكتاب إلى مسؤوله في غرفة خاصة ليطلعه على ما وقع عليه من أمر خطير، وبعد دقائق رجع مبتسماً، وقال : «تفضل» وأعاد إليّ «هاملت» سليماً غير منقوص.)

* * *

«لميعة، لميعة!» قال أخي يوسف. «أراك تكرر اسمها كثيراء»

فصاحت به زوجته تيريز بمكر : «شو بدك فيه؟ هوّ حرّ...»

وضحك يوسف، وهو يركّب اسطوانة على الفرامفون، وقال : «اسمها غريب، وجميل، وسنرى في الصيفية القادمة أي اسم آخر، غريب وجميل أيضاً، ستأتينا به من بغداد!»

وانطلقت أنغام الحركة الأولى من السيمفونية الأولى لبرامز، ويوسف يعرف ولعي بموسيقاه في تلك الأيام.

في تلك اللحظة، ونحن في غمرة الموسيقى، كان ثمة قرع على الباب الخارجي، فقمت وفتحت الباب، لأرى شابتين جميلتين بادرت احداهما، سالي كسّاب، ونحن نتصايح فرحاً، بعناق حارّ، ثم رحّبت بالثانية، وهي فتاة شديدة الحياء، دون العشرين من عمرها، قدّمتها سالي : ثريّا أنطونيوس.

كانت سالي قد تزوجت قبل سنتين أو ثلاث من أحد كبار موظفي وكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين، وتقيم في القدس، وتعود صداقتنا إلى ما قبل خمس سنوات أو أكثر، وكانت من تلك الصداقات النادرة التي بقيت صميمية وفكرية، دون أن تشوبها شائبة. فسالي في القدس، قبل النكبة، تزورني في دارنا كل يومين أو ثلاثة، إذا لم نلتق في مكان أخر. وأمي تحبها بشكل خاص وتؤثرها على معظم أصدقائي. وأنا معجب بشخصيتها ومضاء ذهنها، وأتابع شؤونها باهتمام الصديق الذي يعرف من يحبّها ومن تحبّه، ومن الذي في النهاية سيحظى بها. وفي فترة تحولّي إلى السكنى في حيّ القطمون، غدت دارنا ملتقى حلقةٍ من المقرّبين إليّ، من الرجال والنساء، ربما كانت سالي أبرزهم جميعاً. فكان مجيئها، بعد انقطاع طويل، بعد ظهر ذلك اليوم، إلى دارنا في بيت لحم إعادةً رائعة لذكريات مقدسية مكتظة بعواطفها، وتداخلاتها. وناديت أمي، فجاءت، وتبادلنا التحايا بحرارة وفرح. ثم انسحبت لتحضر لنا القهوة.

وكنت قبل يومين قد دُعيت إلى حفلة غداء في دار السيدة كاتي انطونيوس في القدس الشرقية، حيث وجدت مدام أنطونيوس بكامل

الروعة التي عرفتها عنها. فقد كانت مستمرة في رعاية «دار الأولاد» بالقدس على نفقتها الخاصة،، كما عهدتها قبل سنوات، وما تزال تقيم في منزلها الكبير الفخم حفلات تجمع فيها دائماً رجالاً ونساءً من أهمّ من في القدس، عرباً أو أجانب، من حيث الموقع الفكري أو الاجتماعي أو السياسي. وكانت مؤهلة لذلك النشاط ليس فقط لقوة شخصيتها وجاذبيتها وثرائها، بل أيضاً لكونها أرملة المفكر المشهور جورج انطونيوس، الذي تضاعفت شهرته بعد نشره عام ١٩٣٩ كتاباً من أهمّ ما صدر بالانكليزية في تلك السنوات والسنوات اللاحقة حول تاريخ حركة العرب القومية ، بما فيها القضية الفلسطينية ومركزيتها بين القضايا العربية : «يقظة العرب». وكان من عاداتها الطريفة في يوم ما، أن تقيم بين حين وآخر ما كان يعرف بحفلات ضوء القمر، وذلك بجمع الأصدقاء معاً، في الليالي المقمرة، لقضاء سهرة جوّالة على اسوار مدينة القدس القديمة، التي بناها العثمانيون في أوائل القرن السادس عشر.

قالت لي السيدة كاتي : «ابنتي ثريا عادت من انكلترا لتقضي الصيف عندنا. ولكن قبل أن تعود لدراستها بعد بضعة أيام، أريد منها أن تزورك، لتحدثها عن الوجودية. يظهر أن بنات جيلها في انكلترا مأخوذات بهذه الصرعة، وهي تحدّثني عنها كل يوم. أرجوك، أفهمها ما هي هذه الحركة، وخلّصني منها!»

حين اجتمعت أنا وسالي وثريا في غرفة جلوسنا، وموسيقى برامز ما زالت تملأ جوّاً لم تكن زائرتاي مهيأتين له، خُيِّل إليّ أن ثريا انفعلت على نحو لم أتوقعه، وقد جلست بقربي في النافذة المقنطرة المزدوجة التي تتميز بها النوافذ في بيوت بيت لحم القديمة المعقودة السقوف، مع أقل ما

يمكن من أثاث، وعددٌ من لوحاتي معلّق على الجدران كيفما اتفق، أو مسندٌ على بعض رفوف المكتبة المحشوّة، من الأرض حتى السقف، بالكتب العربية والانكليزية على غير نظام - وليس على بلاط الأرض الحجري سوى بساط بدوي من شعر الماعز الأبيض والأسود، تذكرت سالي كيف كانت تلاعب عليه كلبها الصغير في يوم مضى في دارنا في القطمون. ومن خلال النافذة، وقد اصطفت على عتبة حديدها أصُص الريحان والجرانيوم، تُرى تلال بيت لحم وهي تتناءى شمالاً باتجاه بيت المقدس، وفي الأفق البعيد ينتصب دير مار الياس بجرسيّته العريقة في القدم.

ونحن بالطبع لم نتحدث عن الوجودية : فقد كان هناك الكثير غيرها مما يهمّنا أن نتكلم فيه، وأحسَست أن ثريا كثيرة السؤال شديدة النباهة، وبارعة في الافصاح عن نفسها، وواضحٌ جداً أنها ستصبح في يوم قريب كاتبة - ولو بالانكليزية، بسبب نشأتها في انكلترا... وهذا بالضبط ما حدث بعد سنوات، بعد سكناها في بيروت، وبقيت صداقتنا مستمرة عبر السنين وعبر الأحداث. ولعل الروايتين الفلسطينيتين اللتين نشرتهما في أواخر الثمانينات في لندن كانت لهما، كما أخبرتني حديثاً، علاقة غامضة بتلك الزيارة الجميلة التي فاجأتني بها مع سالي بعد ظهر ذلك اليوم، والتي استمرت حتى قبيل هبوط الظلام.

* * *

في احدى طلعاتي المسائية مع يوسف سيرا باتجاه «المدبسة»، قرب نادي الشباب، كان المذياع يلعلع، مالئا الشارع بأغانيه، وإذا بصوت أعرفه يغني :

اشتقنا يا حلو والله اشتقنا،

صار لك زمان مفارقنا :

البعد لهيبه بيكوينا

والشوق بناره يحرقنا،

اشتقنا يا حلو والله اشتقنا...

جمدتُ مكاني وكبحت ما استطعتُ حنجرتي لئلا تُسمع شهقتي عالياً وسط ذلك الصخب. فقد كانت تلك إحدى أغنيات لميعة المحببة، التي تغنيها أحياناً، والتي جعلتنا كلينا نحب مغنّيتها وأغانيها الأخرى.

وأحسست في تلك اللحظة أن لميعة ترسل إليّ استغاثة تهزّني، وعليّ أن أعود إليها بأقصى السرعة... لم يكن بدّ من العودة إلى لميعة، وبأقصى السرعة.

غير أن السيدة حلوة جقمان، رئيسة الاتحاد النسائي في بيت لحم، كانت قد فاوضتني بعد وصولي بيومين حول إلقاء محاضرة في الاتحاد، ووافقت. وعليّ الالتزام بالموعد، مهما استبَد بي التوق إلى رؤية بغداد.

وألقيت المحاضرة في قاعة ملحقة بنادي الشباب، تُستعمل في الأماسي كسينما، وتذكرتها إذ كانت ملتقانا في الأشهر الأولى من النكبة، قبل ذلك بثلاثة أعوام، أو أكثر بقليل، يوم انتُخبت فيها، من قبل حشد هائل صاخب من اللاجئين، عضواً في لجنةٍ كان لا بد من تكوينها في غياب السلطة المركزية فجأة بعد مغادرة حكومة الانتداب البريطاني بصورة مشينة في ١٤ أيار، ١٩٤٨.

كان الجمهور هذه المرة أيضاً كبيراً، ولكن دونما صخب. والغريب أن موعد المحاضرة كان الساعة الحادية عشرة صباحاً من يوم من أيام الأحد، وهي ساعة لم نألف مثلها للمحاضرات في المدن الأخرى، إلاّ في الكليات الجامعية.

وموضوع المحاضرة؟ المرأة : المرأة كما هي، وكما يمكن أن تكون. وذكرت للجمهور قول نابليون : «دوّختُ العالم كلّه وقهرتُه – ودوّختني وقهرتني جوزفين...»

(٥)

تميزّت سنة ١٩٥١ في حياتي بأنني التقيت فيها لميعة، المرأة الأروع التي سترافقني لاحقاً في كل خطوة من بقائي، وهي تشدّ من أزري بشجاعة خارقة، في مسارات عيش كانت في معظمها شديدة الاضطراب، شديدة الإثارة، تعلو وتنخفض بحدّة المجانين، وتأتينا أحياناً بفترات من القسر والقسوة والعذاب كما الكوابيس، واحياناً بفترات من اليسر والرفاه واللذة لا نكاد نصدّق أننا اصحابها، طوال أربعين عاماً أو يزيد.

والغريب أن سنة ١٩٥١ تميزّت في حياتي أيضاً بمجيء صديقي الدكتور علي كمال إلى بغداد للعمل فيها استاذاً وطبيباً للامراض النفسية. وهو صديق قديم، كنا قد تعارفنا اول مرةً في صبانا في القدس، قبل ذلك بأربع عشرة سنة، في صيف عام ١٩٣٧، في ساعة استراحة بين امتحانين لشهادة «المتريكوليشن» الفلسطينية، خارج قاعة الامتحانات، وأدّى بنا ذلك التعارف الخاطف، الذي ترك أثراً عميقاً في نفسينا كلينا، إلى صداقة حميمة ابتداءً من اواسط العام التالي، حال رجوعه إلى القدس من سنته الأولى في الجامعة الامريكية ببيروت، وحال حصولي على دبلوم التربية من الكلية العربية، وأنا أتهيأ للسفر للدراسة في انكلترا – تهيؤاً شاءت الأقدار، لحسن الحظ، أن يطول سنةً اخرى، حتى شهر ايلول من عام ١٩٣٩ : الأمر الذي أتاح لصداقتنا أن تنضج وتغتني فكراً ونقاشاً وكتابةً بشكل متوهج – وهو ما تحدثت عنه في أماكن أخرى من كتبي.

وبقينا على اتصال وثيق طيلة السنين اللاحقة، نتحينّ الفرص، ما بين أسفاري وأسفاره، لقضاء الأوقات معاً في أحاديث متواصلة، مع رسائل نتبادلها باستمرار أينما كنّا. وتلك حكاية أخرى كثيرة التفاصيل من حكايات حياتي، وحياته.

ومنذ أواخر ١٩٤٨، بعد بدئي العمل ببغداد، وقد عاد هو للعمل طبيباً نفسيا في لندن، كنت احاول اقناعه بالمجيء إلى العراق مع عائلته، وكان قد تزوّج في لندن عام ١٩٤٧، في حين بقيت أنا لا استطيع الاستقرار على حال تسعفني في الزواج.

ونجح مسعاي في إقناعه، يوم التقى في لندن تحسين قدري، رئيس التشريفات في البلاط الملكي العراقي آنئذ، وكان رجلاً عصري التفكير، وواسع النفوذ، وأعلمه بأنه يودّ العمل ببغداد. وكانت المؤسسات العراقية ميالة دوماً لاستخدام مثقفين عرب من ذوي الخبرة والكفاءة حيثما وجدتهم، مع أن الرواتب لم تكن كبيرة، والاعتماد أصلاً على حماس المتقدّم للوظيفة. وفي الفلسطينيين ميل قديم إلى العراق تزايد منذ اواسط الثلاثينات، لإيمانهم بالدور القومي الاساسي الذي يلعبه العراق في حياة الأمة العربية.

وهكذا كان. وجاء علي كمال في تلك السنة، بتوصية من تحسين قدري، للعمل في كلية الطب ببغداد بعقد سنوي - كعقدي في كلية الآداب - وبقي ببغداد، كما بقيت، طوال العمر، وغدا من أشهر أطباء العراق، ومن أشدّهم حضوراً في الحياة العلمية والثقافية. وبعد زواجي، بقينا وعائلتينا أقرب الناس بعضاً إلى بعض. بل إنه في الستينات، بعد

مرور بضع سنوات على بنائي بيتاً في الشارع التوأم لشارع الأميرات في حي المنصور، أصرّ على السكنى في حيّنا، وبنى له بيتاً جميلاً قريباً منا، في أحد فروع شارع الأميرات، وما المسافة بيننا إلاّ مسيرة دقائق معدودات تحت أشجار النخيل واليوكالبتوس.

* * *

ربما كانت عودتي الى بغداد ضرباً من التأكيد بيني وبين نفسي، على أنني اجتزت امتحان علاقتي بلميعة. فبعد باريس وإثاراتها، عدت إلى لميعة لأراها فعلاً تتوهج، كما تخيلتها دائماً، بمرحها، وذكائها، في كل إيماءةٍ منها، كما تتميز في كل جارحة من جسمها، وترتدي فساتين وأثواباً تزيد من تميزّها بين الأخريات جميعاً.

وعادت حلقتنا إلى الالتئام، والاتساع، وزادت اللقاءات الجماعية، دون أن نفرّط في لقائنا منفردين كلما استطعنا، على الأغلب في دار لميعة، لنحيّي «نبتة العشاق» ونقدّم لها المزيد من الدموع والتنهدات. وقد اضيف إلينا، في من أضيف، بدءاً من خريف تلك السنة، حسين هدّاوي، وقد عاد للتو مع زوجته الألمانية الجميلة كريستا، واستأجر داراً صغيرة في اول مقترب الجسر الحديدي، المتفرع عن بدايات شارع الإمام الأعظم.

كان بلند الحيدري يحدثني كثيراً عن صديقه حسين هدّاوي، الذي ذهب قبل سنوات في بعثة علمية إلى جامعة لاس فيغاس ليدرس الأدب الانكليزي. فلما عاد حسين من الدراسة كان اول من رأى من أصدقائه المقربين بلند بالذات. وعرّفني بلند عليه في الأيام الأولى من وصوله، لنكتشف أننا كلينا متخصصان في الموضوع نفسه، مع تأكيد على بعض

المحدثين، امثال جيمز جويس واليوت وفرجينيا وولف . وسرعان ما نمت بيننا صداقة تطورت إلى رابطة حميمة جمعت بين عدد منا، وغدت فيما بعد هي حلقتنا الداخلية الخاصة. وكثيراً ما جمعتْ مجالسُنا في منزل حسين وزوجته، بالاضافة إليّ وإلى لميعة، حلمي سمارة، وافلين، وعلي كمال وزوجته جين، وجواد سليم وزوجته لورنا، وبلند ونزار سليم، وآخرين. وكان نزار، كلما جاءنا، يخرج دفتره الكبير وينشغل برسمنا كاريكاتورياً، واحداً واحداً، فيصيب ويخطىء، مجمّلا هذا، ومقبحاً ذاك، حسبما يجرّه إليه قلمه، ومزاجه المتقلبّ الضاحك.

* * *

في اوائل السنة الدراسية الجديدة، لفتت نظرنا، أنا وزميلي في قسم الأدب الانكليزي بكلية الآداب، دزموند ستيوارت، في أثناء مقابلتنا الرسمية للطلاب الجدد، فتاةٌ مورّدة الخدين بشكل يكاد لا يُصدُّق، مع ضفيرتين من شعر أسود كثيف تشدّهما خلف رأسها، تأكيداً على عنقها الطويل . وكلما خوطبت، تحوّل ورديّ خدّيْها إلى احمرار رائع، لفرط حيائها، مع بياضٍ في بشرتها لم يكن شائعاً بين الطلبة.

وقد وافقنا أنا وزميلي على قبول هذه الطالبة دون تردّد، لوضوح ذكائها وسرعة بديهتها حتى بالانكليزية. وكان اسم هذه الطالبة التي تميزّت بين أترابها في تلك السنة، بلقيس شرارة. وتعرّفت عليها لميعة فيما بعد عن طريقي في احدى حفلات الطلاّب . ولم نكن نعلم، أنا ولميعة – وزواجنا لم يكن بعد سوى رغبة مبهمة عندنا أقرب إلى المستحيل – أن هذه الفتاة اللافتة للنظر سيتزوجها بعد فترة قصيرة رفعة الجادرجي، عند عودته من دراسة الهندسة المعمارية في انكلترا، وستقوم بيننا

صداقة عائلية، توثّقها روابط فكرية عميقة كان لها دور كبير في حياتنا اللاحقة ولم تزدد مع الزمن إلاّ قوةً في تواشـجـها الثقافيّ والاجتماعي في آنٍ معاً.

* * *

أما تلميذتي الوفية فقد بقيت على وفائها، حتى بعد أن تأكدت من علاقتي بلميعة، ولم استطع أن اقنعها، او أقنع نفسي، بأنني بين الاثنتين واقع في شباكٍ متداخلة من أمور لا منطق فيها، ولا عقل، في ظروفنا الاجتماعية تلك . وقد اكتشفت فيما بعد أنني اذا كتبت قصة، فمعظم ما اكتبه يتصل بتجاربي التي سبقت مجيئي الى بغداد، لأنها أضحت محدّدة الخطوط، محدّدة البدايات والنهايات. أما تجربتي البغدادية، فتأتيني بشكل قصائد أكاد أفزع من استيضاحها لنفسي، أو بشكل لوحات ارسم معظمها على نحو أتحرّر فيه نفسيّاً باستخدامي رموزاً لم أكن أعي معانيها إلا إيحاءً، كأنني اقيم لنفسي أحاجي أخشى جوابها، او لا أرى بي حاجة إلى جوابها. وتلك اللوحات جميعاً تدور، في حقيقتها، إمّا حول لميعة، او حول تلميذتي : ووجه ما، لعله وجهي، يتكرر في الوسط او في الحواشي، مأخوذاً، ضائعاً، على حافة حزنٍ لا يمكن أن يُحَدَّد.

وقد أخذت ذات صباح عدداً من هذه اللوحات الزيتية، التي رسمت معظمها على ورق (ويا للأسف، لأن الكثير منها تلف او تمزّق في السنين اللاحقة)، وعرضتها على الطالبات في أحد دروس الشعر . وبرزت من بينها في الحال لوحةٌ أصرّت الطالبات على إطالة النظر اليها، ومعالجتي بالأسئلة عنها . وقد أدركت تلميذتي أنها هي المعنية في تلك اللوحة

السريالية التي مازجتُ ما بينها، وبين يديها كتاب مفتوح، وبين الصخر والبحر : فثمة زورق خالٍ ينتظر على ساحل مهجور، وفي الركن الاسفل تلّة فلسطينية خضراء بزيتوناتها، والوجه إياه، او بعضه، مترع بالدعوة، ويدٌ تمتدّ مؤكدة على الإغراء بالهروب، وعلى الهامش وجه امرأة اخرى، وجه بيزنطي في إطار، إيقونةُ ألمٍ ادركتْ فحواها تلميذتي في الحال. وكنت قد بدأت في تلك السنة تدريس هؤلاء الطالبات مسرحية شكسبير «الليلة الثانية عشرة»، وفيها تقع فيولا، وقد تنكّرت في زي غلام، في غرام سيدها الدوق اورسينو، الواقع بدوره في غرام اوليفيا، وهو يبعث فيولا - ظنّاً منه أنها غلام - رسولاً بينه وبين اوليفيا، وفيولا تعشقه ولا تعرف كيف توصل عشقها إليه، إلا بالمواربة والألغاز، والحزن ينخر كالدودة في قلبها... بيد أن شكسبير سيجد في النهاية مخرجاً من هذا المأزق يرضي الجميع ، ونبقى نحن في مأزق لا مخرج منه إلاّ برفضه، أو الهروب منه.

في هذه الأثناء عدت إلى قصة كنت بدأت كتابتها وأنا في القطمون بالقدس عام ١٩٤٧، غير أن أحداث النكبة منعتني عن إكمالها، عنوانها «ملتقى الأحلام» . كنت في الواقع قد أنجزت معظمها آنذاك، ولم تبق سوى بضع صفحات أعرف بالضبط، في ذهني، كيف أنهي بها القصة، ولسبب ما لا اكتبها، ولا سيما بعد أن شغلتني ببغداد قصة طويلة في ثلاثة مقاطع، عنوانها «السيول والعنقاء»، بدأت في تلك الفترة أيضاً بكتابة مقطعها الثالث والأخير، بعنوان «الكتب وحفنتان من تراب».

عدت إلى «ملتقى الأحلام» ووجدت أن النثر الذي حققته فيها يختلف كثيراً، بلغته ووعيه الداخلي، عمّا كنت اقرأه في تلك السنة من نثر قصصي . وفي احد دروس الترجمة، التي كنت أختار لها فقرات من

كتابات عربية معاصرة، خطر لي أن أعطي طالباتي فقرةً من قصتي، دون أن اذكر أنها من تأليفي، وأمتحن بها ردّة الفعل لديهن، فضلاً عن قدرتهن على نقلها إلى الانكليزية.

أخذت أملي على الطالبات الأسطر التي أصف فيها تصاعد العاصفة ذات مساء، وبطل قصتي في منزله المنعزل النائي عن المدينة، وبلغت الكلمات التي نصُّها : «ولَمَعَ برقٌ خاطف». وما كدت انطقها حتى دُهشت لكركرة البنات، وهنّ يُعدْنَ بعدي : «لمع ... لَمَع ماذا، استاذ؟» «فأكرّر : «لمع برقٌ خاطف» ، فيسألن من جديد : «لَمَعَ برقٌ ،استاذ؟» وهن يضحكن، مستمتعات بما يسمعن ويكتبن. ونادت إحدى البنات تلميذتي بمكر خبيث، وقالت : «أتسمعين؟ لمع برقٌ خاطف...» وفجأةً انتبهت إلى أنهن يقصدن ما لم يكن قد خطر ببالي، أنا البريء المسكين : لميعة برقي العسكري، غريمة تلميذتي الرائعة . ويشدّدن التذكير بالموقف. وقالت فتاة : «وأيضاً، خاطف، استاذ؟»

فصحت بهن : «كفى سخافة ! ولأكمل...»

وألحقت بالكلمات الثلاث الجملة التالية، وما بعدها، بسرعة، ولكنني وجدت من الصعب مطالبتهن بترجمة ما أمليت، وقلت : «أعتقد أن هذه الفقرة صعبة... فلنهملها . إليكن قطعة غيرها...»

كان واضحاً أن تلميذتي تعرف كل شيء عن علاقتي بلميعة. وبدت مستسلمة لواقع علاقتي بإمرأة تعرف أنها غريمتها، غير أنها تدرك أنها استاذة، وشخصية غير عادية، وتتمتع بحرية في الحركة والتصرف لا تتاح لها، ولن تحاول منافستها - اللهمّ إلا بإظهار المزيد من هوى عذري لا يكفّ، وكلما ازداد يأساً، ازداد تشبثا بالقلب.

(٦)

من أجمل ما رأيت تلك الأيام، من ساعاتي الأولى في بغداد، روابط الصداقة بين الشعراء والقصاصين الشباب، الذين كانوا جادّين في حركتهم الانقلابية في تقنيات الكتابة، من جهة، وبين الفنانين الشباب الذين كانوا دائبين في حركتهم الانقلابية في أساليب الرسم والنحت، من جهة أخرى. كان أنصار القديم سواء في الكتابة او في الفن، بالطبع، يبدون الضيق بهؤلاء المتمرّدين الذين تنسب إليهم شتى التهم، السياسية وغير السياسية.

وكان بلند الحيدري، مع عدنان رؤف ونزار سليم وأصدقائهم، قبل ثلاث سنوات او أربع قد أسسوا «جماعة الوقت الضائع»، مع مجلة لهم، وافتتحوا لأنفسهم مقهى صغيراً في «ساحة عنتر»، عند مدخل الأعظمية، سمّوه بمقهى واق الواق . ولكن الشرطة أغلقته فيما بعد لخشيتها من أن يكون وكراً من أوكار الحركات اليسارية يومئذ، دون أن تعتقل أياً من أصحابه أو روّاده . واذا كان بلند يمثل الأدباء المجددين، وعمره عام ١٩٥١ لا يتجاوز السادسة والعشرين، فإن جواد سليم، وعمره لا يتجاوز يومها الثانية والثلاثين، يمثّل الفنانين منهم. وكانت الصداقة بين الاثنين عميقة، وقديمة . وقد تجتمع في الشخص الواحد النزعة الأدبية والنزعة الفنية معاً، كما كان ظاهراً في نزار سليم، الذي يصغر أخاه جواد ببضع سنوات، ويكتب القصص إضافة إلى الرسم، أو شاكر حسن الذي كان «يزخرف» رسومه بكتابات طريفة أقرب إلى الشعر، فضلاً عن

مغامرته بكتابات نقدية في التنظير لجماعة بغداد للفن الحديث ، كما كنت أفعل.

ولم يكن من الصعب عليّ أن أرى أن تيّار التجديد اكتسب الكثير من دفعه وقوته من هذا التوافق بين الأدباء والفنانين على نحو لم يكن معروفاً بهذا البروز آنئذ بين الأدباء والفنانين في الأقطار العربية الأخرى. لقد وجدت نفسي في الخضمّ من هذا التيار، لأنني منذ عودتي إلى القدس من الدراسة في كمبردج، ومنذ مجيئي من القدس الى بغداد مليئاً بحماساتي للتجديد في اساليب التعبير العربي، كوسيلة مهمة من وسائل تجديد النفس العربية، واستثارة طاقاتها الهائلة في زمن منكوب، كان هاجسي الأكبر الكلمة والصورة معاً*.

وقد بتنا أنا وجواد وبلند، منذ معرض جماعة بغداد في ربيع تلك السنة، نتحدث كثيراً عن ضرورة تجميع الفنانين، الذين جعلوا يتكاثرون عدداً (بعودتهم من دراستهم في الخارج، أو بتخرّجهم من معهد الفنون الجميلة) في «جمعية» تنظم أمورهم، وليس في مجرّد «جماعات» لا يربط بين أعضائها سوى اتفاقهم على اقامة معرض معاً مرة كل سنة او سنتين، كما فعل «الرواد»، بزعامة فائق حسن، حين أقاموا في السنة السابقة معرضهم الأول في دار الدكتور خالد القصّاب، الذي كان رسّاماً مهماً رغم كونه طبيباً، وكان معرضاً ريادياً عن حق من حيث الحجم والتنويع. ولكن جواد سليم، الذي عرض معهم، أحسّ بأنه غير راضٍ عن معرض لا يتبدّى في معروضاته ولو خيط واهٍ من فكرة اساسية

* تحدثت عن هذا الأمر بشيء من الاسهاب في كتابي «الاكتشاف والدهشة».

او نظرية في الموقف. وكانت النتيجة معرض «جماعة بغداد»، وبعض أفرادها في واقع الأمر، فصلوا أنفسهم عن «الرّواد»، بالإضافة الى الذين جمعهم إليه جواد من أصدقائه وتلاميذه.

وخطر لبلند أن يقنع جواد باللجوء إلى صديق قديم له، تربطه به علاقة عائلية تعود إلى اوائل الأربعينات، وهو ابن أحد السياسيين الكبار الذين تولوا رئاسة الوزارة في العراق اكثر من مرة : نزار علي جودت. ونزار، فضلاً عن ذلك، حديث العودة من دراسة الهندسة المعمارية في الولايات المتحدة، وكان جواد قد أقام أول معرض خاص به قبل سنة في منزله، حيث تعرّفت عليه أول مرة، وكانت له مساهمة ولو صغيرة في معرض «جماعة بغداد» الأخير. فلا بدّ أن يكون شديد التعاطف مع الفنانين، وبوسعه ان يقنع والده برعاية مشروع جمعية للفنانين تقام ببغداد لأول مرة، بعد اندثار «جمعية أصدقاء الفن» بعشر سنين. وكان صديق نزار ، خلدون ساطع الحصري ، صديقاً قديماً آخر لجواد . وهو من نفس السنّ، وله اهتمام بالفنون منذ أيام دراسته في الجامعة الامريكية في اواخر الثلاثينات وأوائل الأربعينات.

واتفقنا أخيراً،أنا وجواد وبلند، ذات مساء على زيارة خلدون الذي أخبر جواد أن نزار سيكون برفقته في تلك الساعة. وعندما وصلنا الدار، طلبت إلينا زوجة خلدون الانتظار، لأن خلدون كان قد خرج قبل مدة، واعداً بالرجوع حثيثاً ليكون في استقبالنا. وبعد قليل جاء، ومعه نزار، الذي بدا في غاية المرح، وتبادلنا انا وهو التعارف من جديد. ولم يضيّع جواد، ولا بلند، وقتاً في إثارة موضوع الجمعية، وساندتهما في الرأي.

ولم يتردد خلدون في استحسان الفكرة، مؤملاً هو أيضاً أن يقنع نزار والده بإحتضان الفكرة بشكل يساعدها على التبلور عملياً، ورسمياً.

غير أن نزار راح يهزأ من الفكرة بطريقة أدهشتني، قائلاً : «أي فن، وأي فنانين... يضحكون على عقولكم، هؤلاء الأدعياء . إنهم مجموعة من الجهلة والمستنفعين... روحوا يا جماعة،وفتشوا لكم عن «شغلة» فيها خير... أتعرفون أين كنا الآن ولماذا تأخرنا؟ كنا في فندق سميراميس، في استقبال ريتا هيوبرث [وكانت هذه الممثلة السينمائية يومئذ في قمة شهرتها وفتنتها]. رقصة دقيقتين مع ريتا هيوبرث تساوى مشاريعكم كلها... هاتوا لنا ريتا هيوبرث ، وانسوا الجمعيات والفنانين وكل هذا الكلام الفارغ.»

غضبت لهذا التصرف وهذا الكلام منه، وأدركت أن من السخف محاولة الاستعانة به في شيء، وأنا أعلم أن ريتا هيوبرث لم تكن ببغداد، وأنه انما يشطح إمعاناً في اللامبالاة. ونهضت على قدميّ، وقلت لجواد وبلند : «فلنتحرّك!» واتجهت نحو الباب. وتركنا الصديقين القديمين على عجل.واتفقنا ونحن عائدون على أن جمعية للفنانين لا يمكن أن تنشأ إلا بجهود الفنانين أنفسهم، وبتنظيم منهم. وهو بالضبط ما اتجه تفكيرنا نحوه في السنوات اللاحقة حتى تحققت الجمعية في عام ١٩٥٦.

ولكن لابد من القول إن صداقة نمت فيما بعد بيني وبين خلدون، كمؤرّخ مهم لتاريخ العراق المعاصر، وبيني وبين نزار علي جودت، بعد لقائي بزوجته الأمريكية ايلين، المهندسة المعمارية البارعة، حين وجدت فيهما كليهما اهتماماً جاداً بالحركة المعمارية الحديثة ببغداد، ومساهمات

حقيقية منهما في تطويرها. وكثيراً ما تنادرنا أنا وهو على موقفه الهازل في تلك الأمسية، التي تبينَّ أنه، مثلي، لم ينسَها قط.

* * *

صداقتي بعلي حيدر الركابي بقيت على حرارتها منذ أن تعارفنا في اواخر عام ١٩٤٨، حين ذهبت إليه، ومعي دزموند ستيوارت، القادم مثلي حديثاً للتدريس في بغداد، لنعرض عليه أن نساهم في برامج الاذاعة الانكليزية التي كان يومئذ مسؤولاً عنها ، إضافة إلى عمله في البلاط الملكي. وكانت مساهماتنا تدور حول القضية الفلسطينية، وهي ملأى بالحماس والجدل السياسي. وفيما بعد، اذ ازدادت معرفتي بالحياة الثقافية ببغداد، جعلت أتحدث أيضاً عن الشعراء والفنانين العرب، والعراقيين الشباب منهم بوجه خاص . ولئن انقطعت بين حين وآخر عن الكتابة للاذاعة، فإن علاقتنا الشخصية لم تنقطع قط. وفي هذه الأثناء، تعرّف على بلند بواسطتي، وتنامت بينهما صداقة استمرت بضع سنوات عمل بلند في اثنائها، بترتيب من علي حيدر، مساعداً له في ادارة شركة المنصور للأراضي.

وجاءت فترة في هذه السنة بالذات، التزمت فيها مع علي حيدر أن أقدّم بالانكليزية حديثاً اذاعيا، على فترات منتظمة، وكالعادة دون مقابل مادي، اتابع فيه أيضاً الحركة الفنية، الى جانب الحركة الأدبية الجديدة الناشطة، ولا سيما بعد تأكيدي على أهمية الشعراء والقصاصين المحدثين ببغداد، وإيماني بأهمية محاولات نازك الملائكة، التي تعرفت عليها يومئذ عن طريق تلميذتي ميّ سماره، أخت حلمي، في ما تكتب من شعر حرّ تنظرّ له بجرأة كنت من اوائل المدافعين عنها.

كان علي حيدر الركابي يكبرنا جميعاً بعدة سنوات، وهو ابن رضا باشا الركابي، السوري الأصل، الذي كان من مرافقي الملك فيصل الأول، واول رئيس للوزراء في أمارة شرق الاردن التي أسسها الأمير عبدالله. وقد تميزّ علي حيدر بثقافته الواسعة، وحبه للشعر، الذي يحفظ منه الكثير، وطلاقته بالأنكليزية - إذ كان من خرّيجي كلية فكتوريا بالاسكندرية - إلى جانب أناقته اللافتة للنظر في اللباس والمعيشة. فهو خرّيج الدبلوماسية العراقية التي كانت في الأربعينات والخمسينات تجمع عدداً من ألمع الشخصيات الثقافية التي لأي بلد ناهض أن يفاخر بذكائها وخبرتها ووطنيتها. وكانت زوجته، السيدة رباح، مثالاً متميزاً للثقة بالنفس والقدرة على التعبير مع الحضور الجميل، مما استطاع جواد سليم ان يسجلّه في اللوحة الكبيرة الرائعة التي رسمها لها بعد أيامنا تلك بسنتين او ثلاث.

وكان لحفلات العشاء التي يقيمها علي حيدر مكانتها عندنا، لمن يجمع فيها من أفراد حلقتنا، ولميعة أحياناً ترافقني، مع بلند، ودزموند ستيوارت، وواحد او اثنين آخرين من الاساتذة الانكليز المحدثين في نظرتهم، والذين يشاركوننا الاهتمام بالقضايا العربية ويكتبون فيها. ولكن أبرزهم بقي دزموند ستيوارت، الذي أهدى روايته الثانية عن العراق إلى علي حيدر الركابي.

وفي تلك السنة انضمّت الينا روزمري بوكسر، الرقيقة الهيفاء المحبّة للجدل، القادمة توّاً من اكسفورد لكي تكون إحدى زميلاتي في تدريس الأدب الانكليزي في كلية الملكة عالية، ويبدأ بذلك عشقها للعالم العربي، الذي سرعان ما واتتها ظروف جعلتها جزءاً دائماً منه.

* * *

على مقربة من المقهى البرازيلي، في شارع الرشيد، وعلى مسافة قصيرة من الشقة التي أسكن فيها، كان بائع زيتون من أهل الشمال يقيم له «بسطة» في المساء، اشتريت منه كيلوغراماً من الزيتون الأسود الذي أحبه، والذي يجيد كبسَهُ أهلُ القرى المحيطة بالموصل. واتجهت نحو مسكني سيراً على القدمين، حين صادفتني لميعة وجهاً لوجه، ومعها صديقتها عالية العمري. فرحتُ جدا باللقاء، وقلت لعالية : «أخيراً، أخيراً، تجسَّدتِ !كنت أظن أن لميعة اخترعتك لتوهمني بك!»

فقالت : «ولكنني ما كنت أحسب يوماً انني سألتقيك وفي يدك كيس من الزيتون، لا كتاب من الشعر!»

ضحكت لميعة وقالت : «الزيتون عنده لا يقل أهمية عن الشعر، فهو من بلاد الزيتون.»

فقاطعتها عالية : «مثلنا، مثلنا، أهل الموصل.»

فتحتُ الكيس الورقي، وقدّمت لهما مما فيه، وقبل أن تعتذرا، قلت : «زيتونة واحدة على الأقلّ لكل منا، نأكلها معاً، كطقس جماعي!»

هتفت عالية : «فكرة جميلة!»

وتناولت كل منهما زيتونة وهي تلمع بزيتها، وحذوت حذوهما، وأكلنا زيتوناتنا على قارعة الطريق.

وفجأة بادرتني عالية : «متى ستزورونا؟»

قلت : «عندما تقرر ذلك لميعة.»

«غداً،» قالت لميعة. «غداً مساءً نأتي اليكم معاً»

«غداً مساءً، اذن» قالت عالية. وأضافت : «أكاد لا أصدّق!»

قلت : «إنها بركة الزيتون...»

وكانت تلك لي بدايةً لصداقةٍ، بل صداقات، من أجمل ما وهبنا الله، أنا ولميعة، طيلة السنين الأربعين التي عشناها معاً.

* * *

عندما أخذتني لميعة إلى دار صديقتها عالية، في «العيواضية»، القريبة من «باب المعظّم»، لم أكن أعرف عن زوجها إلا اسمه، المهندس المعماري حازم نامق، ومن أفراد عائلتها إلا بعض الأسماء التي ترد في الصحافة المحلية بحكم مكانتها في الدولة والمجتمع، ولو أن الدكتور عصام العمري، الحديث التخرج من كلية الطب ببغداد، كان أحد أفراد شلتنا ولا سيما في الآونة الأخيرة، ولقاءاتنا في الأماسي كانت كثيرة. وكنت قد علمت أن السيدة سعاد، التي التقيتها قبل عطلة الصيف في معرض كلية الملكة عالية وأعجبت بشخصيتها ، هي أخته الكبرى.

حين استقبلنا حازم والسيدة زوجته في منزلهما، وجدت أن المنزل بادي البساطة، ولا يتميز بأسلوب بنائه عن معظم البيوت البغدادية التي كانت قد بنيت في الثلاثينات والأربعينات في الأحياء المتفرعة عن شارع الإمام الأعظم : بيوت «وظيفية» النمط، اقتصادية في بنائها ومساحات غرفها، وتتكرر فيها المداخل على الغرار نفسه، والعديد من الأبواب الخارجية ما زال يحمل «القارعة» البرونزية على صورة حمامة، لاستعمالها إذا توقف جرس الباب عن العمل لانقطاع الكهرباء.

وسرعان ما عرفت أن حازم، خرّيج جامعة ويلز في بريطانيا منذ

اواسط الثلاثينات، هو مدير عام دائرة الأشغال العامة في العراق (وسيصبح في أوائل الستينات أول رئيس لجمعية المهندسين العراقيين حال تأسيسها)، وأن اخاه الأكبر سالم نامق عضو في مجلس الأعيان ومن كبار شخصيات الموصل ومزارعيها، وكلاهما مثقف واسع الاطلاع ويهوى جمع الكتب. ووجدت هناك شابين، أحدهما أسامة ، ابن سالم نامق، وقد عاد مؤخراً من دراسة الهندسة الميكانيكية في امريكا، وحسن العمري، الطالب في كلية الحقوق، وكان ابوه رئيس بلدية الموصل سنيناً طويلة، وهو ابن اخت حازم وابن عم عالية. وكلا الشابين في حيوية مستمرة نقاشاً وضحكاً واهتماماً بكل شيء. ونشأت بيننا في الحال مودّة لم تزدد إلا تصاعداً مع الأيام.

وكنت بالطبع سألتقي قريباً بأخي عالية الكبير، ممتاز العمري، وهو في اواسط ثلاثيناته، ومدير الداخلية العام : رجل قويّ الحضور أينما كان لرصانته وجدّيته، ويهابه أفراد اسرته ويحبّونه معاً، ويحسبون لرأيه ألف حساب، تماماً كما يحسبون ألف حساب لرأي زوجته، وابنة عمه، سعاد. أما أخوه الأصغر ناثر وزوجته مي العمري، فجعلت، اسمع عنهما الكثير، دون أن أراهما لغيابهما في بيروت حيث كان ناثر يعمل في السفارة العراقية، وكذلك رحت أسمع الكثير عن عماد، أخي عصام الأصغر، الذي كان أيضاً يعمل في السلك الدبلوماسي في الخارج.

ولسوف تتوثق صلاتي بهم جميعاً عن طريق لميعة، لأن لميعة، بسبب عمق علاقتها ووالدتها بالأسرة منذ أن كانوا جميعاً في الموصل في أوائل الثلاثينات وما بعدها، بدت أنها تتمتع بوضع مركزي خاص فيما بينهم. وهي الوحيدة التي ليست من آل العمري (الذين ينتسبون بأصولهم إلى

عمر بن الخطاب)، ولكنها أقرب الناس إليهم في كل أمر من أمور حياتها، وحياتهم.

وإذ كنّا ما زلنا نلتقي في حلقاتنا، في الأمسيات، في بيت قحطان عوني، أو حسين هدّاوي، أو منفردين على الأكثر في بيت لميعة سواء بحضور والدتها أو في غيابها، فقد جعلنا الآن نلتقي أيضاً في بعض السهرات العائلية التي تكاد تقام كل ليلة في بيت حازم وعاليه، وذلك لأن حازم لم يكن ميّالاً إلى الخروج في الليالي ضيفاً على أحد، حتى أقاربه، وأجراها قاعدةً بين أفراد الأسرة الكبيرة وأصدقائهم المقرّبين أن يكون الملتقى عنده في كل مساء، مع الشراب والطعام للجميع بأريحية هائلة.

كل ذلك بالطبع لم يشغلني عن عملي الكثير في كلية الآداب وكلية الملكة عالية - ولكنني تركت محاضراتي في دار المعلمين العالية، لكي أعطي المزيد من وقتي للمحاضرات في كلية الملكة عالية، نزولاً عند رغبة السيدة سارة الجمالي، التي كانت رئيسة فرع الأدب الانكليزي، وجعلتني مسؤولاً عن وضع مناهج جديدة وتقرير نصوص أعلى مستوىً من النصوص السابقة للتدريس في فرعها. وقد كانت سيدة مثالية من حيث دأبها في العمل وحرصها على دقائقه، مضيفة إلى واجباتها التدريسية نشاطاً متواصلاً في تنظيم خدمات اجتماعية مهمة ينوء بها حتى الاخصّائيون. وهي زوجة الدكتور محمد فاضل الجمالي، الوزير عدة مرات، وسيرأس الوزارة فيما بعد أكثر من مرّة.

متى اذن كنت أكتب؟ ومتى كنت أرسم؟ ومتى أقرأ؟ لست أدري. ولكنني كتبت كثيراً، ورسمت كثيراً، وقرأت كثيراً، في ذلك الجو العارم

بحركته، ولميعة تملأه لي وهجاً وحيوية. ربما كان نهاري أكثر من أربع وعشرين ساعة، وأحياناً لا يخطر النوم ببالي إلاّ عندما أسقط على فراشي دون وعي مني، وأغرق في غيبوبة سوداء في الحال، لأجد أن النهار قد طلع رائعاً من جديد، وأن أثينا، ربة المنزل، قد هيأت لي فطوراً فاخراً.

وكلما ركبت الباص من شقتي إلى الكلية، أو إلى لقائي بلميعة، كنت أحرص على وجود كتاب في جيبي أقرأه في أثناء حركة الباص البطيئة طوال شارع الرشيد، أو شارع الإمام الأعظم، ذهاباً وإياباً. وعديدة هي الكتب التي قرأتها في تلك الجيئات والروحات، وبعضها يحتاج إلى تركيز وتمعّن لا يُيسِّرهما صعود الركّاب ونزولهم، حين يتوقف الباص كلَّ مئتي مترٍ أو أقلّ!

Twitter: @ketab_n

(٧)

بين الحين والحين كان خالد الرحال (وهو أحد أفراد «جماعة بغداد للفن الحديث») يفاجئني بزيارة جائحة كالزوبعة، ليعلمني بآخر ما نحت، وآخر من عشق، وآخر من تشاجر معه في معهد الفنون الجميلة حيث يقوم بتدريس النحت إلى جانب جواد سليم. وكمعظم الفنانين كان أنوياً جداً، متمركزاً في ذاته على نحو لا يهمه معه إلا أن يتحدث عن شأنه الخاص، ولا يستطيع أن يسمع عن أي ذات أخرى، أو أي موضوع لا يتصل بما هو غارق فيه.

كان يهمّه أن يطلعني على ما يستجدّ لديه، منذ أن تعرّفت عليه في أوائل عام ١٩٤٩، وأخذني إلى قصر الخضيري ، في الجادرية، لأرى التماثيل التي نحتها في الحجر لصاحب الدار في اواسط الاربعينات وهو بعد في مطلع عشريناته، مدفوعاً بموهبة مدهشة لا تغذّيها معرفة حقيقيّة سوى ما يراه بعينيه، ويتحسّسه بيديه، إضافةً إلى ما تأمّل فيه طويلاً من منحوتات آشورية في المتحف العراقي تركت أثراً عميقاً في اسلوبه ورؤيته حتى نهاية حياته. وكان المؤثّر الآخر في رؤيته، على ما قاله لي، ما لقنته إياه النحاتة هايدي لويد، زوجة الآثاري سيتون لويد، التي درس عليها أيام تلمذته في معهد الفنون الجميلة.

والذي أعجبت به أيضاً يومئذ، قدرته على التخطيط بالحبر، بمزيج من الرقة والقوة والانسياب في رسم المرأة والثور، لا يجد المرء عادة ما يماثله إلاّ عند كبار الفنانين.

وزادت دهشتي لموهبته عندما دعاني يوماً إلى مسكنه في مبنى عتيق بائس في حي الفضل، قرب «الميدان»، فإذا به غرفة صغيرة تكسو أرضها الحُصُر، وفيها مقعد واحد، وطاولة متآكلة صغيرة، وصندوق - وكان حقا صندوق عجائب. لأنه فتحه وراح يرفع منه لعينيّ تخطيطاً بعد تخطيط بالحبر، من أجمل ما رأيت، وأهداني عدداً مما تراكم لديه من تلك الرسوم.

كان يبدو مثاراً باستمرار، يتحدث بأقل ما يمكن من منطق وتماسك، وبأكثر ما يتسنى لمتحدث من تعابير لفظية أقرب إلى السريالية بصورها، فيوحي، دون ان يتقصّد، بفكاهة تضحك السامع وتبقيه متعاطفاً مع حماسه في وقت واحد.

وستبقى منحوتته الناتئة التي تمثل نساءً في حمّام شعبي، والتي انطلق فيها من اسلوب لوحات النحت النائي التي اكتشفت في قصر آشوربانيبال في نينوى، من أروع ما نحت في تلك الأيام، ولم يحقق فيما بعد - على كثرة ما انجز من منحوتات جميلة - ما يفوقها عفويّة وتميّزاً في الرؤيا العراقية الخاصة به.

وفي أحد أيام عام ١٩٤٩، كان في غرفتي التي اسكن فيها في مبنى الكلية التوجيهية في الأعظمية، وهو يطلعني على تماثيل صغيرة من نحته، بعضها من العاج، وبعضها من الرخام، يخرجها من حقيبةٍ يدوية، كساحر يخرج الارانب من قبّعته. أيّ تماثيل جميلة، تعبيرية، غير متوقعة، لقدود نساءٍ ينتمين إلى عشيرة الإله البابلي آبو ورفيقاته الواقفات، الضارعات لقوى مجهولة : حديثة جداً، وقديمة قِدَم التاريخ.

وكان معي في ذلك اليوم زميلي في التدريس فهد الريماوي، وهو فلسطيني خرّيج آداب القاهرة، وينتمي إلى حركة دينية سياسية تدعو إلى

رفض العرب للحضارة الحديثة والعودة إلى الصحراء، منبع قوتهم. وبينما كنت أبحث مع خالد مزايا هذه المنحوتات، كان فهد يتأمل فيها، ويبتسم مندهشاً، ثم قال : «فنك غريب جداً يا رجل. العرب الأقحاح يرفضون الفن، ولا سيما النحت، وأنت لا تكفّ عن النحت.»

وبكل براءة، أجابه خالد : «ولكن أمي أرمنيّة.»

فضحك فهد، وقد شعر أنه وضع يده على السرّ، وصاح : «الآن عرفت من أين جاءتك هذه اللوثة!»

(كان فهد موضع إعجاب زميلنا الآخر درزموند ستيوارت، الذي استوحاه في تصوير البطل في روايته الأولى «فهد بين الأعشاب»، كما استوحيته أنا بعد ذلك بمدة قصيرة، وعلى نحو مغاير، في رسم احدى شخصياتي المهمة في «صيادون في شارع ضيق».)

ولقد سعيت منذ تلك الآونة في إقناع الدكتور متى عقراوي، مدير عام التعليم العالي، بأن يرسل خالد الرحال، هذا الفتى الموهوب فطرياً، في بعثة دراسية إلى إيطاليا، فيقول الدكتور متى إنه يتمنى لو يستطيع ذلك، ولكن خالد لم يُنه دراسته الثانوية، ويبدو عاجزاً عن إنهائها. فكيف يمكن اختياره للبعثة؟ فأقول : «بيتهوفن لم يستطع طيلة حياته أن يحفظ جدول الضرب... خالد ليس بحاجة إلى فيزياء ورياضيات. إنه يفكّر بيديه، بيديه فقط، حين تتعاملان مع الحجر والازميل.»

وقد نجح المسعى أخيراً، حين أُرسل إلى روما في بداية عام ١٩٥٤ في زمالةٍ خاصة بموجب اتفاقيّة ثقافية مع السفارة الإيطالية غير خاضعة لشروط بعثات وزارة المعارف. ولسوف ألقاه في روما، مع عدد من

الأصدقاء الفنانين، عندما عرّجت عليها لبضعة أيام، في طريق عودتي من هارفرد في ربيع تلك السنة.

وكان لي صديق فنان آخر يتردد عليّ، لا يشبه خالد أو غيره في شيء : منير الله وردي. وهو مهندس ميكانيكي درس في الخارج، غير أن هوايته الموسيقية طغت على مهنته. فهو يعزف الكلارينت ببراعة جعلته عازف الهوائيات الأول في الفرقة السيمفونية العراقية، التي كانت قد أعيد إنشاؤها في نهاية الأربعينات. وكان منير صديقاً وزميلاً في كلية الهندسة لرفيقي حلمي سماره، وحديث الموسيقى في التقاءاتنا لا يتخلله إلاّ حديث الرياضيات.

وقد اتفقنا على أن يعطيني دروساً في الصولفاج والهارموني بشكل منتظم، مرة في الأسبوع، إذ يأتي إلى شقتي محملاً بأوراق «النوتة»، لأتابع معه دروسي الموسيقية . وسرّني جداً أنه يعبّر فيها دائماً عن استغرابه لتقدّمي الحثيث معه، ولكنه يتذمر، مثلي، لعدم وجود بيانو في الشقة لتوضيح التفصيلات النظرية. إلى أن قال يوماً ضاحكاً : «لم يبق لديّ ما ألقنك إياه موسيقياً إلا العزف على الكلارينت!»

والموسيقي الآخر الذي يوازيه كرماً في النفس وعشقاً لتراكيب النغم كان فؤاد رضا، عازف الفيولا الأول في الاوركسترا العراقية، والذي ارتبطت به بصداقة مسترسلة منذ أوائل عام ١٩٤٩، إذ عندما اكتشف يومئذ اشتراكنا معاً في حب الموسيقى الكلاسيكية، وليس لديّ ببغداد غرامفون واسطوانات خاصة بي، جعل يتردد عليّ بانتظام، حاملاً جهاز الغرامفون واسطوانات تتجدد كل مرة. وكان لقاؤنا الحار في البداية على أعمال غبرييل فوريه، الذي سمعنا قدّاسه الجنائزي

Requiem مـرّات ومـرّات، وحللناه مـرّات ومـرّات، مع الپـاڤـان ومـؤلفـات أخرى له.

جاءني يوماً بسوناتة سيزار فرانك الرائعة للكمان والبيانو. وهذه السوناتة تعود بي دائماً إلى أيامي الأولى في الانغمار في الموسيقى الكلاسيكية في عام ١٩٣٨، وأنا في الكلية العربية، حيث كنت الطالب المسؤول عن المكتبة، وكذلك عن المجموعة الموسيقية، التي جاءتنا هديّة مع غرامفون كبير أنيق من المندوب السامي البريطاني السير آرثر واكهوب، وكانت داره الفخمة على مبعدة قليلة من الكلية على جبل المكبّر. كنت أختلي بنفسي في القاعة الكبرى لأعزف هذه السوناتة التي توحي لي برؤى عجيبة للحب - ونحن في الكلية نعيش عيش الرهبان - فأتخيّل أنني أرى من خلال النافذة جارتنا أناهيد، التي تصغرني بسنتين، وقد استقرت بين أغصان شجرة ورد كبيرة، وتدلّت ساقها، وهي تؤرجحها، وكلما عبثت بقدمها العارية، تساقطت اوراق الورد عليها وانزلقت إلى الأرض. (كانت تنتظر عودتي إلى الدار من الكلية صباح كل يوم جمعة، وحالما أصل، أعزف لها لحناً خاصاً على الأكورديون، فتجيبني من منزلها، المشرف على صحن دارنا، بلحن معيّن على البيانو.)

وإذا انتهيت من سوناتة سيزار فرانك، عزفت اسطوانات «شهرزاد» لرمسكي كورساكوف، فلم تكن أقلّ إثارة لخيالاتي الفنية المحمومة، أعبر بها بحاراً سندبادية، او انتقلت إلى السيمفونية السادسة الرعوية، لبيتهوفن، لأملأ غابات الدنيا صراخاً وأغاني...

هكذا كانت البدايات لما تحقق لي من هوس بالموسيقى رافقني بعد ذلك بتزايد مستمر في انكلترا ، وما تلتها من أيام في دارنا في القدس مع أخي يوسف، وفي نادي الفنون.

(٨)

في أوائل الأيام التي أنشأت فيها للطلاب جمعية للموسيقى الكلاسيكية، كان الطلاب أنفسهم يتبرعون بمبالغ صغيرة يجمعها واحد منهم، ويشتري بها ما يتوفر في بغداد من اسطوانات، بعد استشارتي، لنعزفها معاً في الأمسيات الموسيقية، بعد أن أقدّم لكل قطعة بكلام أشرح فيه ما أستطيع شرحه، محاولاً أن أثير خيال هؤلاء المتحمسين، راجياً أن يؤدي ذلك بهم إلى شيء من الحب لما يسمعون وإلى شيء من الفهم لفن هو غير «الطرب» الذي اعتادوه في الموسيقى العربية، مؤكداً أيضاً على تداخله في الفنون الأخرى والآداب التي يدرسونها.

وقد ادهشني في بداية العام الدراسي الجديد، في خريف ١٩٥١، اتساع حلقة المستمعين، واشتراك العديد من الاساتذة أنفسهم في الحضور، فضلاً عن اصدقاء الطلبة والاساتذة من الكليات الأخرى. وقد تحمّس العميد، الدكتور عبد العزيز الدوري، لهذه الأمسيات، بحيث ضمن لها أولاً أن تكون امسياتٍ اجتماعية يُقدّم فيها الشاي مع الحليب، وأحياناً مع الكعك، وضمن لها، ثانياً، مصدراً مهما لاسطوانات كثيرة جداً، مع غرامفون ذي سمّاعات كبيرة، باستعارتها من مكتبة المجلس الثقافي البريطاني. ولا أنكر أنني، بصورة غير مباشرة، وأنا عاشق الموسيقى في بلد تندر فيه الاسطوانات الكلاسيكية، استفدت كثيراً من مسؤوليتي تجاه الجمهور الوافد بأنني رحت أتهيأ لكل حفلة بالرجوع إلى الكتب التي تعينني في تقديم المعلومات عن كل عمل موسيقي أقدّمه.

أي حماس رائع كان ذاك من هؤلاء كلهم الذين باتوا على موعد معنا مرة كل أسبوع أو أسبوعين في قاعة كلية الآداب، بدءاً بالعميد والاساتذة، وامتداداً بالطلاب والطالبات، وانتهاءً بالاصدقاء عراقيين وأجانب. ولما انتبهنا إلى وجود عدد لا بأس به من اساتذة من جنسيات أخرى، وبخاصة من الانكليز، جعلت أضيف الى التقديم بالعربية، كلمة بالانكليزية. والحديث عن الموسيقى الغربية بطبيعة الحال أسهل، وأدقّ، إذا كان بالانكليزية. وكان بعض أفراد حلقتنا، أنا ولميعة عادةً من بين الحاضرين.

في فترة ما في أواخر تلك السنة، أو أوائل السنة التي تلتها، لاحظت أن زميلي الدكتور صالح أحمد العلي، يأتي إلى حفلاتنا الموسيقية ومعه صديق له انكليزي، سرعان ما عرّفني عليه، كما عرّف عليه صديقي حلمي سماره . فقد كانا، حتى ما قبل سنة، أو أكثر بقليل، يدرسان معاً في جامعة اكسفورد، ولما انتهيا من الدراسة، عاد الدكتور صالح إلى بغداد استاذاً للتاريخ العربي، في حين التحق صديقه، فرانك ستوكس، بشركة نفط العراق التي أتت به إلى بغداد، لتبحّره بالعربية، ليؤسس في الشركة دائرة للعلاقات العامة. وكانت معرفتي تلك به، أو معرفة حلمي، أول تماسّ لنا بهذه الشركة الكبيرة التي كنا نعلم أنها تلعب دوراً بارزاً في حياة العراق السياسية والاقتصادية، وكانت على وشك أن تنتهي إلى اتفاقيّة مهمة مع الحكومة العراقية، هي اتفاقية مناصفة الأرباح ، لأول مرة في تاريخ العراق، أو أي قطر آخر ينتج النفط في المنطقة، الأمر الذي جعل الناس، رضوا أم لم يرضوا عن الاتفاقية، يتوقعون تدفق ملايين الدنانير فجأة عليهم، بعد ضيقٍ طال أمده. ولكي تنفق تلك الأموال على

نحو يؤديّ إلى النهوض بالبلد، أنشىء مجلس الاعمار برئاسة رئيس وزراء سابق، ارشد العمري، وراح المجلس يضع، بمشورة خبراء عراقيين وأجانب، خططاً طموحة لتطور عمراني كبير في بلد كان عدد سكانه يومئذ لا يربو على خمسة ملايين نسمة.

ولكن لاحظنا في تلك الآونة أن وزارة المعارف، التي كانت مسؤولة أيضاً عن التعليم العالي (إذ لم تكن جامعة بغداد قد أُسِّست بعد، وكلية الآداب والعلوم ما زالت نواةً يتدارسها الخبراء قبل إعلان تكاملها كجامعة معترف بها في الخارج) - لاحظنا إن وزارة المعارف فقدت الكثير من حماسها لمن تعاقدت معهم من الفلسطينيين - ذلك الحماس الذي أبدته بحرارة هائلة إثر النكبة عام ١٩٤٨، يوم عيّنت في المدارس الابتدائية والثانويّة، وفي كليات بغداد الجامعية، المئات من المعلمين والاساتذة الفلسطينيين. فمنذ بدايات العام الدراسي الثالث، ١٩٥٠ - ١٩٥١، تناقص عدد الذين جُدِّدت عقودهم بشكل كبير، واستمر التناقص بشكل واضح في بداية العام الدراسي ١٩٥١ - ١٩٥٢، إذ أُلغيت في الصيف عقود العديد من هؤلاء الاساتذة، ومن بينهم زملاء لنا، مما جعلنا ندرك، أنا وحلمي، وآخرون، أن صيف ١٩٥٢ قد يرى إلغاء عقودنا السنوية جميعاً. فعلينا ان نتدّبر امورنا بشكل او بآخر، ولو اننا، أنا وحلمي بقينا على تعلقنا بالعراق، وبقينا نؤمّل أن يجد المسؤولون - والكثيرون منهم باتوا أصدقاء لنا - طريقة ما لتجنب الواقعة. ومع أن أحد أصدقائي الفلسطينيين، الاستاذ فريد حنانيا، وكنت التقيته في بيت لحم في اواخر الصيف السابق، اقترح عليّ الالتحاق بالهيئة التدريسية في الجامعة الامريكية ببيروت، حيث كان يعمل عميداً للدراسات

الانسانية، فإنني لم أتحمّس كثيراً يومئذ، ولعلة تومىء إليّ من بعيد بالعودة إليها، والحياة الثقافية ببغداد تؤكد لي أن مساهمتي فيها غدت جزءاً، ولو صغيراً، من طاقتها المستقبلية الهائلة التي كنت مؤمناً بها.

وفي تلك الفترة إستقدمت أخي الأصغر عيسى من بيت لحم ليسكن معي، ووجد له عملاً في شركة للاستيراد والتصدير أصحابها من أصل فلسطيني، راق له العمل معهم.

وذات صباح إذ كنت في حديث مع ألبرتين جويده، إحدى اساتذة التاريخ في كلية الملكة عالية، استشارتني لغويّاً بشأن فقرة كتبتها في رسالة بالانكليزية، قالت إنها موجهة إلى مؤسسة روكفلر في نيويورك. ولما سألتها عن المزيد بخصوص هذه المؤسسة المشهورة، قالت إن المؤسسة في المدة الأخيرة منحت بعض الزمالات الدراسية لعدد من الاساتذة في بغداد، وأنها تتفاوض الآن مع أحد مسؤولي هذه المؤسسة بشأن زمالة لها تريد أن تستفيد منها لنيل الدكتوراه. واسم هذا المسؤول جون مارشل.

سألتها متردداً : «إن أنا كتبت له، أتعتقدين أنه سيهتم بالاجابة ؟»

قالت : «بكل تأكيد، فأنت، بخلفيتك الاكاديمية، وكتاباتك فضلاً عن تمكّنك من الانكليزية، لن تجد صعوبة في إقناع رجل كجون مارشل في ما تريد. ما الذي تريد بالضبط؟»

قلت : «لا أدري، أودّ لو أعود إلى جوّ جامعي كالجو الذي عرفته في جامعة كمبردج، ولو لسنة أو اثنتين.»

وسطعت في ذهني عندها فكرة بدت كأنها سقطت عليّ من

السماء : أن أقوم ببحوث دراسية في كمبردج، ما دام المستقبل في بغداد غير مضمون لأكثر من بضعة أشهر أخرى. وبعد استئناف الدراسة والبحث، من يدري أين أكون؟

أخذت عنوان المؤسسة من البرتين، وبعد يومين أو ثلاثة كتبت رسالة إلى جون مارشل، أخبره فيها ببعض التفاصيل عن حياتي العلمية، وسألته عن امكانية مساعدة المؤسسة لي في قضاء سنة أو سنتين في كمبردج للبحث في النقد الأدبي.

الشخص الوحيد الذي أطلعته على الرسالة كان بالطبع لميعة، التي تبيّن أنها لم تكن أقل قلقاً عليّ حال انتهاء السنة الدراسية . وراقت لها فكرة الرسالة.

وفي ذلك السياق، ولأول مرة، تحدّثنا عن رغبتنا في الزواج، مهما كانت الصعاب : تحدثنا عنه كأمر حتمي بعد حوالي سنة من حب جعلنا نرى أن الحياة بدونه ستكون مستحيلة لكلينا. أما الصعاب فكانت أكثر من نوع، وبعضها يبدو كصخرة كأداء لا بدّ من مجابهتها وتسلّقها، وتخطّيها . وبقينا نؤمل أننا إذا تزوجنا، وذهبنا معاً إلى الخارج للدراسة لسنة أو سنتين، سنعود إلى بغداد من جديد، وأعود إلى التدريس في كلية الآداب مرة أخرى.

وبعد اسبوعين او ثلاثة بلغتني برقية من جون مارشل يقول فيها إنه تسلّم رسالتي، وإنه قادم إلى بغداد قريباً في مهمة علمية، وسوف يطلب مقابلتي حال وصوله ليقرّر جوابه بشأن ما طلبت.

في تلك الأشهر كان عدنان رؤف يعمل في شركة النفط في الشمال،

ولكنه لا يضيّع فرصة للمجئ إلى بغداد فنلتقي ليس مع بلند ونزار فقط، بل مع جماعتنا الخاصة التي كان هو من أوائل افرادها، والتي بقيت خليطاً بديعاً من الرجال والنساء وقد توضحت العلاقات فيما بينهم: العلاقات المؤشرة كلها إلى زواجات وشيكة.

واتفق أن عامر العسكري، أخا لميعة الأكبر، والوحيد، كان في إجازة ببغداد من عمله كمدير ناحية في زمّار، بلواء الموصل. فرتّب صديقه عدنان لقاءً لي معه، وخرجنا في نزهة إلى بساتين الجادرية، مع اثنين أو ثلاثة أخرين، استمتعنا فيها كثيراً، مضيفين إلى متعة الحديث متعة الدجاج المشوي على الحطب في الهواء الطلق. وأخبرني عامر أنه يسمع عني الكثير، ويقرأ ما يصل إليه في موقعه النائي من كتاباتي. وقد أحببته في الحال لصراحته، وانفتاح ذهنه، وفكاهته الدائمة التي تضفي على الجو مرحاً متواصلاً.

وتقصد فيما بعد أن يأخذ المزيد من الإجازات التي تأتي به إلى بغداد، فنلتقي بحضور لميعة وعدنان، دون أن يهتم هو بلقاء أصدقائنا الآخرين، لحياء يستبدّ به، كما لاحظت، ولا سيما إزاء النساء، ولأن ثمة له شلةً أخرى من أصدقاء مقرّبين، لا تجمعنا بهم صلة من معرفة أو اهتمام.

* * *

من مصادفات حياتي الجميلة أنني، منذ أيام دراستي الثانوية في القدس، كان بعض من أعزّ أصدقائي طوال السنين من منطقة طولكرم، على بعد الشقة الجغرافية بينها وبين القدس. كان أولهم أحمد الحاج عبد الرحمن، ثم تعرّفت على علي كمال، والشاعر عبد الرحيم محمود، وكلهم

من عنبتا بقضاء طولكرم. وكان هناك أيضاً كرميّون آخرون لهم شأنهم في حياتي. فبعد أن ترك ابراهيم طوقان تدريسنا، وانا في سنتي الابتدائية الاخيرة في «الرشيدية» درّسني العربية فيها عبد الكريم الكرمي - وهو الشاعر المعروف ابو سلمى - كما درّسني فيما بعد اخوه، اللغوي والقاموسي الكبير حسن الكرمي، الانكليزية لثلاث سنوات في الكلية العربية، وكلا الأخوين من أعلام طولكرم، وبقيت علاقة الصداقة بيننا طوال السنين اللاحقة. ثم كان هناك حلمي سمارة، وهو أيضاً من قضاء طولكرم .

عرفت حلمي طالباً في الكلية العربية، يصغرني بسنتين، يملأ أروقة الكلية ضجيجاً لكثرة ما «يحاجج» هذا وذاك من الطلبة، لذكائه المفرط، ونبوغه بوجه خاص في الرياضيات. وقد أُرسلنا معاً عام ١٩٣٩ إلى انكلترا للدراسة، فذهبت أنا في السنة الأولى إلى جامعة اكستر، وبعدها إلى كمبردج. أما حلمي، فقد ذهب أولاً إلى جامعة نوتنغهام لدراسة الرياضيات، وبعد سنوات ثلاث فاز بجائزة «لبوك» التي تمنح للحائز على المرتبة الأولى في امتحانات البكالوريوس في الرياضيات بين طلاّب بريطانيا كلهم، الذين تمتحنهم جامعة لندن.

فاستمر بالدراسة في نوتنغهام، ليفوز بالدرجة الأولى في الفيزياء أيضاً بعد سنتين. وفي حين قررت أنا، قبل ذلك بسنة، أن أعود إلى القدس، انتقل حلمي إلى جامعة كمبردج، حيث حصل على الدكتوراه في «ميكانيكية الكم»، وهي علم يجمع بين الرياضيات والفيزياء، وعاد في صيف ١٩٤٧ إلى القدس استاذاً في الكلية العربية. بينما كنت أنا استاذاً للأدب الانكليزي في الكلية الرشيدية.

وقد عصفت بنا أحداث النكبة بعد ذلك بأشهر، وتفرّق اساتذة الكليتين، وتوزّعوا على جامعات وكليات الوطن العربي . وإذا بنا، أنا وحلمي، نلتقي مرة أخرى ببغداد في خريف ١٩٤٨، للبدء معاً من جديد حياة اشتركنا في الكثير من فوراناتها وإثاراتها. فقد تعيّن استاذاً في دار المعلمين العالية، ومحاضراً في كلية الهندسة وكلية الآداب و العلوم.

ولئن عرفتْ بغداد، في تلك الآونة، نابغة في العلوم، إلى جانب الدكتور عبد الجبار عبدالله، فقد كان بلا ريب هذا الفتى الأخضر العينين القادم من احدى قرى فلسطين. وقد راح صوته يلعلع من جديد في أروقة الكليات التي لم يعرف طلابها استاذاً يضاهيه ذكاءً، ومعرفةً وسرعةَ بديهة، وقدرةً على حل العويص من المعضلات الرياضية والفيزيائية.

ولعل الغريب في الأمر أن العامل المشترك بيننا من الأدب والفن من ناحية، والعلوم الرياضية والفيزيائية من ناحية أخرى، لم يكن بالضرورة كبيراً، غير أن استجاباتنا لقضايا الفكر وتجارب العيش كانت متماثلة بنوعها وقوتها، وبقيت صداقتنا على عمقها، ولم تزعزعها الأحداث يوماً، ولا تقلّبات الدهر في نصف قرن من زمنٍ رائع، ولعين.

* * *

تلاحقت الأحداث وتداخلت في أشهر الربيع من تلك السنة، ١٩٥٢، كأن قدراً ما ينظّمها ويدفعها في مسارات متصلة، ومتصاعدة، تحقيقاً لنسق مصيري لا علم لي به إلاّ وهو ينهض جزءاً فجزءاً : وإذا بالأجزاء، مع الزمن، تتكامل في فعل يعطي الحياة، حياتي على الأقل، شكلاً يُرى في الذهن كما قد تُرى تفاصيل مسرحية إغريقية، وكالمسرحية الإغريقية يبقى مغزاه مشعّاً إلى ما لا نهاية.

جاء جون مارشل إلى بغداد، ونزل في فندق زيا، المجاور لشقتي وزار العمادة في كلية الآداب، وكلية الملكة عالية. وطلب إليّ أن أذهب إليه مساءً في الفندق بعد يوم أو يومين. ووجدته صريحاً، بشوشاً، مليئاً بدفء خاص لا يسع المرء إزاءه إلاّ أن يشعر بودّ مقابل.

يبدو أنه في الأيام القليلة التي قضاها عندنا قبل أن أزوره، كان قد استفسر عني في أكثر من مكان، ومن أكثر من شخص. ولذا أوحى إليّ أنه موافق ضمناً على أن تمنحني مؤسسته «زمالة بحث في النقد الأدبي» لسنة واحدة، قد تُمدَّد فيما بعد ستة أشهر أخرى.

لم أكد أصدّق ما سمعته منه! لقد أعطاني وعداً، وهو لا يدري، بمجال حياتي جديد احتفظ فيه بحريتي على الأقل سنةً أخرى، أجدني فيها متفرغاً لما أريد أن أكتب وأقرأ على هواي، وبرفقتي المرأة التي ما عادت الحياة بدونها ممكنة.

بيد أنه أثار قضية ذهابي إلى كمبردج، جامعتي الأصلية، في انكلترا، كما كنت طلبت، وقال إنه يفضّل لو أنني أغيّر رأيي وأذهب إلى مدينة كمبردج بولاية ماساشوستس، حيث تقع جامعة هارفرد التي هو أحد خرّيجيها . «أنا أعلم» قال يريد إقناعي، «أنكم معشر كمبردج البريطانية لا تتصورون أن في العالم جامعةً أخرى ترقى إلى مستواكم. لا بأس. ولكن تعال إلى هارفرد، وجربنا في جامعتنا. وأنا واثق من أنك لن تندم.»

بعد تردد، وبعد أن ذكّرني بأن هارفرد اليوم واحدة من أعظم جامعات العالم قاطبة، وافقت على اقتراحه. ثم إن في ذهابي إليها تعرّفاً

مباشراً على الولايات المتحدة، التي لم أكن قد رأيتها، والتي كان ظاهراً، ونحن بعد في منتصف القرن العشرين، أن شأنها سيتزايد في تقرير مصير العالم، حضارياً وسياسياً، قبل نهاية القرن، وأن آدابها، مهما تكن متأصلّة في الآداب الاوروبية، وبخاصة الانكليزية، فإنها باتت تنافسها في اتساع الرؤية، والتعمق في الروح الانسانية. (ولن أنسى يوم قلت لأحدهم، بعد ذلك بسنة، في كمبردج ماساشوستس، إنني منهمك في كتابة رواية طويلة، موحياً باعتزازي بأنني أنتج كتاباً مهما - لن أنسى أنه ضحك وقال : «ثم ماذا؟ قد لا تعلم أن بين كل دار ودار في هذه المدينة، هناك في هذه اللحظة من هو منهمك في انتاج كتاب جديد مهم - مثلك!»)

وانتهى لقاؤنا على أفضل ما يكون، لولا أن مارشل قال في آخر لحظة : «طبعاً، عليك أن تنتظر موافقتي التحريرية. عندما أعود إلى نيويورك، وأتصل بجامعة هارفرد بشأن قبولك فيها كباحث في النقد الأدبي، وأتأكد من كل شيء، سأكتب إليك بالتفصيل. على الأرجح، سنراك عندنا في اواخر أيلول، عند بدء السنة الأكاديمية الجديدة. وعليك في هذه الأثناء أن ترتب أمرك مع كلية الآداب هنا، لكي تتأكد من الاحتفاظ بمكانك في هيئة التدريس فيها في أثناء غيابك، مهما يطل الغياب.»

فأجبت بما حسبت أنني أطمئنه به من أن الأمر بسيط، ومضمون، وأنا في قرارة نفسي أعي أن الامر ليس بسيطاً، ولا مضموناً . ورجوت ألا يطول انتظاري جوابه.

ولكن انتظاري جوابه طال... ولعلني وجدته طويلاً بسبب القلق الذي أخذ يساورني ويشتد بي على نحوٍ لم أعرف مثله منذ سنوات.

* * *

في تلك الآونة كنت قد أكملت كتابة «الحب وحفنتان من تراب»، وأرسلتها للنشر في مجلة «الأديب» ببيروت. والقصة تؤلف المقطع الثالث والأخير من «السيول والعنقاء». وكان هذا العنوان الذي أطلقته على الثلاثية، ولا ريب، صدى غير واع مني لتجربتي مع لميعة طوال تلك الأشهر. لقد أردت أن أناقش قول سليمان في «نشيد الأنشاد» ، الذي استشهدتْ به بطلة الثلاثية : «الحب قويّ كالموت. المياه الدافقة لا تطفىء الحب، ولا تستطيع السيول أن تغرقه.» ولم تكن البطلة شيلا (كما توحي الدلائل في القصص الثلاث) إلا صورة مجتزأة عن غلاديس نيوبي، أذكى وأجمل فتاة عرفتها وأحببتها وأنا طالب في انكلترا حتى تَخَرُّجنا كلينا عام ١٩٤٣. لقد جاءت السيول هوجاء، فيما بعد، وأغرقت الحب...

ولكن كان لا بد لي، بعد مرور بضع سنوات، من كتابة «السيول والعنقاء» للتدليل على خروج امرأة رائعة نهائياً من حياتي، ودخول امرأة رائعة أخرى. ولعل ذلك كان السبب في انقضاء مدة طويلة بين كتابة المقطع الأول والمقطعين الثاني والثالث، وهي بالضبط المدة التي دخلت فيها لميعة أعماق تجربتي، لتعطي معنىً لحب جديد يدخل متواثباً، ضاحكاً، متألقاً، على أعقاب حب أغرقته السيول.

والعجيب أن سيولاً حقيقية فعلت فعلها الرمزي لتطلقني في فضاءات تجربة جديدة ما كان لي أن أحزر نوعها. ففي ليلة الخامس من كانون الثاني عام ١٩٤٨، تراكمت المياه سيولاً في طرقات القدس بفعل زوابع رعديّة راحت تتفجّر بأمطار عنيفة لساعات طويلة، وتهاوت طوفاناً إلى جورة النسناس (تحت شارع مأمن الله)، واقتحمت بيتنا المهجور،

الذي كنت قد غادرته بعد أن سكنت في القطمون، وخلعت بابه، وارتفعت المياه في الدار، وفي دوامتها حملت إلى الخارج، فيما حملت ، علبة كبيرة من الصفيح مليئة برسائل غلاديس : حملتها كزورق تائه، طفا على الماء، وخرج إلى الباحة المجاورة. ثم انكفأت العلبة بحركة السيل المضطربة، وسقط غطاؤها غير المحكم، وانقذفت الرسائل إلى المياه، وانتشرت على سطحها في كل صوب، على اتساع البركة الفسيحة التي تكوّنت بين الصخور وجذوع الأشجار المبثوثة في المكان.

وفي تلك الليلة نفسها، في تلك الساعات المشؤومة نفسها بعد انتصاف الليل، فجّر الارهابيون اليهود فندق سميراميس، بجوار منزلنا في القطمون، وكأنّ الأرض زلزلت مع الطوفان في حلكة الظلام، وفي الانفجار قُتل وجُرح العديدون، وبين القتلى والجرحى أكثر من صديق لي. وجاءنا أخي مراد في الصباح الباكر، إذ سمع عن طريق الإذاعة نبأ التفجير. ولما رآنا، أنا وأميّ، وأخي يوسف مع عروسه الجديدة، وأخي عيسى، أحياءً رغم كلّ ما مررنا به في تلك الللليلة من رعب، والبندقيتان العتيقتان البائستان مركونتان في الزاوية لأنهما أثبتتا عدم كفاءتهما في التصدّي للقتلة الذين فرّوا تحت ستر الظلام العاصف والمطر الكثيف، راح يبكي من ألمه ومن فرحه معاً، وليس لنا إلا ان نحمد الله على سلامة من سلم في وسط تلك الفاجعة الرهيبة...

وصف لنا مراد الطوفان الذي حلّ ببيتنا، وهو يقيم مع زوجته وأولاده الثلاثة في بيت مجاور أعانه ارتفاعه النسبي على الاّ تغمر منه المياه إلا القليل... وبعد ذلك تحدّث عن مشهد مئات من الاوراق المكتوبة والأغلفة التي تناثرت في الباحة، حين تراجعت المياه بعد أن توقف المطر

وفتحت المجاري بجهد أبناء الحي، ولم يعرف إلاّ أن تلك الاوراق لا بدّ أنها تهمّني. وكان من جملة ما فعلت عصر ذلك اليوم، المشحون بالحزن والتمزّق، هو الذهاب برفقة اخوتي إلى جورة النسناس، وهناك تعاونّا في التقاط رسائل الحب التي انتشرت في كل مكان، واستقر الكثير منها في حنايا الصخور، وعلى جذوع الأشجار الهرمة، وقد فشا حبرها، وبعضها ما زال مقروءاً بشكل ما، والكثير منها تلّون بلون الحبر أو امّحت فيه الأسطر. والمطويّ منها، وهي ما زالت تنضح بالبلل؛ يتهافت حال فتحه...

وكانت دهشتي العظيمة في تلك اللحظة لرؤيتي بعينيّ مشهداً كنت وصفته يوماً كما رأيته بعين الخيال، قبل ذلك بحوالي سنتين، في روايتي القصيرة «صراخ في ليل طويل» - وكأنني يومئذ انما تنبأت بتلك الليلة الجحيمية.

السيول والعنقاء... كنت أؤمن بالعنقاء. كنت أؤمن بهذا التجدد الهائل بعد كل محنة، بهذه البداية الفتيّة مرة أخرى انطلاقاً من رماد النيران الآكلة. ومع أنني في القصة الثلاثية تحدثت عن العنقاء في سياق تجدّد الأمة، فإنني كنت، عن وعي أو غير وعي،إنما اتحدث عن تجربتي الشخصية، وأرى في كل ما يمرّ بي كل ساعة من حدث أو علاقة، أجزاء من تلك النيران التي أنهض من لهيبها ودخانها نهوض طائر خرافي. ولم يكن لي أن أتحدث عن أحاسيس كتلك يومئذ إلا بالمواربة والكناية، وبي خشية بين آن وآخر من أن عنقائي ستخذلني ذات يوم، فأقول : لا، لن تخذلني العنقاء.

(٩)

كنت على موعد غداء مع لميعة في فندق السندباد، وإذا بها تتصل بي هاتفياً في الفندق، حيث كنت بانتظارها، لتعلمني بأن طارئاً عاقها عن المجيء، وستبقى مشغولة عني لبقية النهار. فتناولت غدائي وحدي، ثم صعدت إلى غرفتي في الشقة، وحاولت أن أغفو ولو قليلاً في كرسيٍّ المريح، واخفقت. قمتُ لأوراقي، وللوحاتي الزيتية، وتذكرت وعدي بإعادة رسم لوحتي الزرقاء «المرأة التي حلمت أنها البحر» التي طالبتني بها لميعة أكثر من مرة. غير أنني كنت مليئاً بهاجس آخر ، بهاجس هذا الوجه الذي يتراءى لي أينما تلّفتّ، ولا بد لي من رؤيته فعلاً لكي أستطيع أن أفكر بأي شيء غيره. وكنت قد رسمت بالحبر، وبالقلم الرصاص، في الأشهر الأخيرة أكثر من صورة تخطيطية لها، ورغم أنها لا تستقر في مجلسها دقيقتين بلا حراك وحديث وضحك. وكان وجهها يملأ عينيّ : شعرها المعقوص في هلالين متقابلين على جبينها، عيناها السوداوان الواسعتان، أنفها ذو الأرنبة الموحية بكبرياء الزهو والقوة، وشفتها العليا المحددة كقوس إله الحب، وشفتها السفلى كفلقة فاكهة تغري بعضها، وفستانها النبيذي وقد ابتعدت زاويتا ياقته عن عنقها الطويل لتبرزا كتفين وترائب كنت أقول لها إنني أريد أن أخط عبرها أبيات شعر بلغة سحرية لا يعرفها أحد سوانا…

ولم يكن لي إلا أن أثبت ورقة من اوراق الرسم على لوحة، ورحت أُعمل الفرشاة والوان الزيت عليها، لأعوّض عن عدم وجودها أمامي بخلقها على الورق.

وفي ساعتين أو أقل كانت لميعة أمامي، وقد خفضت رأسها قليلاً، بجوار النافذة العريضة في بيتها، تلك التي زرعت فيها نبتة العشّاق وسقتها يوماً، ثم سقيناها معاً، بالدموع والتنهدات.

وبقيت مشدوداً إلى ما رسمت من شَبَهٍ دقيق، مدفوعاً بقوة الذاكرة... ثم ذهبت إلى الحمام وغسلت يديّ من آثار الأصباغ، وأطللت على المطبخ حيث سمعت حركة السيدة أثينا، وطلبت إليها أن تحضر لي كوباً من الشاي.

بعد دقائق جاءت إليّ بما طلبت، ثم انتبهتْ إلى اللوحة القائمة أمامها، وأنا آخذ رشفتي الأولى من الكوب، وقالت بلكنتها اليونانية الطريفة : «آ، استاذ، الآنسة لميعة كانت هنا اليوم في غيابي؟»

قلت : «لا، أبدا.» فكلما كانت لميعة ترتّب مجيئاً إلى شقتي، كنت أستأذن ربة الدار، فتستقبلها بنفسها عند مقدمها، وتحضّر لنا الشاي أو القهوة، وقد حسبتْ هذه المرة أنني «هرّبت» صديقتي إلى الشقة دون علمٍ منها.

غير أن أثينا عادت فأكدت أن لميعة قد جاءت دون أن أعلمها. ولما أنكرت مجدّداً، قالت : «هذا الصبح رتّبت غرفتك، وفي الظهر دخلتها مرة أخرى لأطمئن . في الحالتين لم تكن هناك صورة الآنسة لميعة. وها هي الآن أمامي» (واقتربت من اللوحة، ولمست سطحها البليل بأصبعها بحذر) «والزيت لم يجف بعد... جاءت، ورسمتها في غيابي.»

ضحكت ملء فمي عندئذ، وهتفت : «آه، مدام أثينا! محاولتي إذن نجحت! هذه اللوحة رسمتها للتو من الذاكرة...»

غير أنها أخرجت نظارتها ولبستها، وتمعّنت في الصورة، وهي تقول : «لا أصدق، لا أصدّق أبداً.» وخرجت بعد أن أزجت إليّ نظرة ماكرة، وهي ما زالت تصرّ على أن لميعة كانت معي طيلة عصر ذلك اليوم.

ولولا خشيتي من أنها قد تسيء فهمي، لقلت لها : طبعاً كانت معي طيلة عصر هذا اليوم، وستكون معي في الليل. وغداً صباحاً، وضحىً، وفي العشية. ولن أنكر ذلك إن أنت سألتني عنها مرة أخرى...

في عصر اليوم التالي، حال عودتي من الكلية وتناول شيء من الطعام، بدأت أرسم، للمرة الثانية، «المرأة التي حلمت أنها البحر» وفاءً بوعدي القديم. وتجسّدت أمامي المرأة، صنيعة الموج والحلم، والسحب تتناوشها تناوش الضواري والجوارح، وهي في غموض المياه وديمومتها الأبدية.

* * *

ما حدست به طيلة الأشهر السابقة، أخيراً وقع. فقبيل امتحانات نهاية السنة، أو ربما بعدها بقليل، طلب إليّ عميد كلية الآداب والعلوم أن اجتمع به، على انفراد. وقد كان عندي دائماً احترام عميق للعميد، الدكتور عبدالعزيز الدوري، لمكانته المرموقة كمؤرخ عربي، ولحنكته في إدارة كلية جعلت تتزايد أهميةً في حياة البلد العلمية، فضلاً عن أنني ما نسيت يوماً أنه هو الرجل الذي قابلته ذات يوم من شهر أيلول ١٩٤٨ في السفارة العراقية بدمشق طالباً العمل ببغداد، وما كاد يراني، ويرى أوراقي، حتى اجرى في الحال معاملة انتدابي للتدريس في كليات العراق، ورتب لي السفر إلى بغداد دونما تردد. وكانت تلك بداية مودّة بيننا، وامتنانٍ مني لم ينقطعا على مرّ السنين، حتى بعد مغادرته العراق. لقد كان، دون أن ندري كلانا يومئذ، العامل الحاسم في أكبر منعطف في

حياتي : كان هو الذي حسم أمر مجيئي إلى بغداد، حيث تشكّلت حياتي من جديد.

عندما دخلت عليه مكتبه، استقبلني بحرارة، ولكنه كان بادي الوجوم. طلب لي الشاي كالعادة، وسألني اسئلة عامة، وبدا لي أنه يريد أن يفاتحني في أمر يصعب عليه أن يشرع فيه . وأخيراً فتح ملفاً كان أمامه، وقال : «لست أدري كيف أوصل إليك ما في هذا الملّف، وقد أصبحتَ جزءاً أساسياً من هذه الكليّة... لقد جاءني أمر من «مجلس التعليم العالي»، أؤكد لك أنه تمّ دون استشارة مني، بعدم تجديد عقدك... أنت لست الاستاذ الوحيد الذي تقرّر عدم تجديد عقده، ولكنني تمنيت لو أن هذا القرار لم يُتخذ...»

ولسبب ما تذكرت في تلك اللحظة جلسةً عقدها مجلس الاساتذة قبل ذلك بأكثر من سنة، تأخرت قليلاً، لسبب ما، في حضورها. ولما وصلت وجدت أن الاساتذة، في بحثهم عن شعار للكلية، قد قرّروا أن يتخذوا شعاراً الآية الكريمة : «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً». وكان ردّ فعلي في الحال أن قلت : «ولكن هناك آية أخرى أحسّ أنها الشعار المثالي لكلية متخصصة في الآداب والعلوم ككليتنا : «وقل ربي زدني علما». فما رأيكم؟» وفرحت إذ رأيت العميد يتحمس لهذا الشعار، الذي كان في واقع الأمر شعاري أنا في حياتي الخاصة، منذ صباي، واستجاب الاساتذة دونما اعتراض، وقرروا جعل هذه الآية شعاراً للكلية. لقد كنت متماهياً بشكل لا يُفسّر مع هذا الكيان العلمي الجديد الذي كنت من اساتذته المؤسسّين، بل أن الدكتور عبد العزيز الدوري، يوم قرّر في دمشق انتدابي للتدريس في بغداد، أعلمني بأن الكلية التي سأدرّس فيها،

ستكون نواةً لجامعة بغداد التي كانت قيد التخطيط، وكان من دواعي فرحي يومها أنني سأساهم في وضع بعض اللبنات الأولى في بناء جامعة جديدة مهمّة.

ويوم علم الدكتور الدوري، قبل اجتماعي به بأيام، بأنني قد أذهب إلى الخارج في زمالة دراسية، أكد لي أنه سينتظر عودتي إلى بغداد والتدريس في كلية الآداب والعلوم، مهما يطل غيابي عنها.

كانت خيبتي شديدة، لأن قرار «مجلس التعليم العالي» جاء ليعزّز مخاوف ساورتني بضعة أسابيع، ولأنه جاء في ظروف علاقتي المتصاعدة بلميعة، التي أردت أن أتزوّجها دون أن أسبّب لها تشريداً معي في بلاد الله الواسعة بحثاً عن عمل. غير أن علاقتي بالمرأة التي أحبّ كانت، فيما تبيّن، هي الدافع الأساسي في اتخاذ القرار، وهو يعني، حالما ينتهي عقدي، أنه لن يحق لي الحصول على تجديد لإقامتي في العراق. وبشيء من الحرج، قال العميد : «أنت والست لميعة يا استاذ بالغتما بالصراحة في الظهور معاً في كل مكان. كنت أرجو لو أنكما تستّرتّما قليلاً.»

وكان جوابي ببساطة، بتلك المثالية المطلقة التي ما استطعت يوماً إبعادها عني : «أنا لا أفعل في الخفاء ما أخجل من فعله في العلَن...»

وبحنكة الإداري الذي يفرّق، عن ضرورة، بين ما هو عملي وبين ما هو مثالي ولكن غير عملي في المواقف الحياتية، قال العميد : «هذه هي النتيجة اذن، في مجتمع كمجتمعنا.»

في يومين أو ثلاثة كتبت كتاباً مفصّلاً توضيحاً لموقفي من الأمر، ومعبّراً عن خيبتي الكبيرة في قرار «مجلس التعليم العالي»، وقدّمته

للعميد. فقرأه برحابة صدر بحضوري، ثم سألني : «هل تريد أن أضيفه إلى الملّف؟»

قلت : «نعم.»

وانتهى الأمر.

* * *

حين أعلمت لميعة بما جرى، غضبتْ، ولكنها قالت إنها لم تندهش : إنها محاولة من أطراف معينة للتفريق بيننا، ولكنها لن تنجح. فسألتها إن كانت ما تزال تريد أن تتزوجني. قالت : «سؤالك سخيف! كأن أموراً كهذه تستطيع أن تزعزع تصميمنا.»

وروت لي كيف أنها في الليلة الفائتة اتصلت بخالها الوحيد، عبدالحميد رفعت، الذي كان أكبر من والدتها سناً، وهي تكاد لا تراه، أو عائلته، أكثر من مرة أو مرتين في السنة. وقد كان مدير الداخلية العام سنيناً طويلة، حتى ما عاد أحد يتصور أن الدولة سترى يوماً مديراً عاماً للداخلية غيره، وذلك لكفاءته، وشهرته بالنزاهة في وظيفة عسيرة المهام، وقدرته مع ذلك على الانسجام مع كل تغيّر يجري في تكوين الوزارة. وكان قد اختار معاوناً شاباً له، توّسم فيه استطاعته أن يترّسم خطاه، هو ممتاز العمري، ابن عم الدكتور عصام. ويبدو أن عبد الحميد رفعت كان على وشك مغادرة الوظيفة، أو أنه قد غادرها فعلاً، بترتيب مع رئيس الوزراء، ليكون المستشارالقانوني لشركة نفط العراق، ومنصبه من أهمّ المناصب الادارية في الشركة، ووثيق الصلة بالدولة، لأنه كثيراً ما يكون هو الذي ينسّق مطالب الحكومة مع المؤسسة النفطية.

اتصلت به لميعة هاتفياً، وأخبرته عني، ومن أكون، ثم قالت إننا ننوي

الزواج قريباً، فما رأيه. وعلى شهرة عبد الحميد رفعت باتزانه ورصانته حتى البرود المملّ، كان جوابه في الحال : «لميعة، خيرٌ لك لو تطلبين القمر...» وانتهت المكالمة.

رحت أصوّر لها الوضع بأقتم ما أستطيع من ألوان : لا مال لدينا كلينا إلاّ القليل، وأنا كفلسطيني قُذف بي الآن مرةً أخرى إلى الفراغ الكونيّ، إلى الـ Cosmic Void، ولا أعرف أين يكون السقوط... أما هي، فبغداد ما زالت ملْك يديها، فهل تريد المجازفة بالقفز معي إلى المجهول؟

قالت بإصرار، وعيناها الحوراوان تشعّان بوميض ارادتها : «سأبقى معك أينما ذهبت. وفي أسوأ الأحوال، سأحسب نفسي مشرّدة فلسطينية أخرى تضاف إلى مليون مشرّد فلسطيني آخر.»

بعد ذلك بأيام قلائل، أخبرتني لميعة بأن ارشد العمري، رئيس مجلس الإعمار، حين سمع بعدم تجديد عقدي، قال : «ليأتني في المجلس. أعتقد أن لديّ مكاناً شاغراً يناسبه.» وذكرتْ الموعد الذي عيّنه لمقابلتي.

لقد أدهشني أن أرى، في الموعد المحدّد، ذلك الرجل الذي كان أميناً للعاصمة سنواتٍ طويلة ولعب دوراً كبيراً في تخطيط بغداد وشوارعها وأحيائها، وإدخال الحدائق في كل جزء منها - وهو في الأصل مهندس معماري - وكان وزيراً أكثر من مرة، ورئيساً للوزراء مرتين، وها هو الآن يرأس المؤسسة التي اعتبرت حينئذ من أخطر مؤسسات العراق، لأن الجزء الأكبر من عوائد النفط المتصاعدة سيكون المجلس مسؤولاً عن انفاقها على عشرات المشاريع التي راح مئات الخبراء يعملون على دراستها وتنفيذها.

أدهشني أن أرى رجلاً مربوع القامة، يصعب تحديد عمره، يستقبلني بالباب ويقول، بكل بساطة : «أنا أرشد العمري»، ويقتادني وهو يسير في أروقة المبنى بعزيمة شابٍّ في الثلاثين، ويتكلم بطلاقة وسرعة من يعرف بالضبط إلى أين هو سائر، وما الذي هو فاعل، إلى أن بلغنا مكتبه. كان ظاهراً أنه ليس من النوع الذي يهدر الوقت في المجاملات ، أو في محاولة الإلقاء في روع الزائر بأنه من أكبر رجالات الدولة. ويبدو أن صديقنا الدكتور عصام، ابنه، قد شحنه بما يحتاجه من معلومات عنّي، وأن عصام، وكذلك أخته سعاد، قد زكّياني لديه بما يكفي لأن يعرض عليّ العمل في وظيفة تتطلب إجادة الانكليزية إلى جانب العربية كلاماً وكتابة.

ثم سألني فجأة : «ولميعة وما أخبارها؟»

وقبل أن أجيب، أضاف : «متى ستتزوجان؟»

أجبت : «حالما تترتّب أمورنا.»

قال : «هل من مصاعب؟ أو عوائق؟»

قلت : «أمها ما زالت مترددة.»

فضحك، وقال : «أُم عامر؟ يطبّها مرض! تزوّجا، وأنا أول من يبارك زواجكما! وأم عامر، أنا الذي سأقنعها... والآن، الوظيفة، والراتب. ما الراتب الذي كنت تتقاضاه في كلية الآداب؟»

ولما أعلمته، هزّ رأسه قائلاً : «دخلك من التدريس اكبر مما نعطي حالياً من رواتب. ولكن، أعطني مهلة اسبوعين أو ثلاثة ويحصل خير.»

وعندما نهضت مودّعاً لأتركه، اصرّ على مرافقتي حتى باب المبنى الخارجي.

(١٠)

جلست لميعة على الأريكة العريضة، محاطة بعدة وسائد ملوّنة، مادة ساقيها على طول الأريكة في وضع مريح. وأتتنا أثينا بالقهوة، وقد صدقّت أخيراً أنني لم أهرّب لميعة إلى غرفتي لكي ارسم صورتها.

كان ضوء النهار المنصب على وجهها وجسمها من النافذة الشمالية العريضة يلاعب شعرها وشفتيها، ويبرق في عينيها، وقد ارتدت فستاناً خمرياً، تراجعت ياقته العريضة عن عنقها وبعض كتفيها، وأنا أرقب الضوء وهو يعابث فستانها وهي في وضعها ذاك، على نحو تمنيت لو أنني أستطيع رسمه.

ما كادت تخرج أثينا، حتى عادت فطرقت الباب، وأسرعت إليه وفتحته، وإذا بها تدخل علينا رجلاً صاح، حالما رآني، بلكنة انكليزية: «جبرا! جبرا!» وصافحني بحرارة. «لم تتغير أبداً!»

دهشت لمرآه، عرفته، ولكنني للحظتين لم أذكر إسمه لكي أقدّمه للميعة. فقال: «مايكل كلارك... أنسيتني؟»

تذكّرته عندها، والتفتّ إلى لميعة وقلت: «مايكل كلارك... الآنسة لميعة العسكري.»

واقترب من الأريكة، ومدّت يداً رشيقة ليصافحها، وهويقول، محمرّ الوجه: «سيدتي، تشبهين ملكة اسطورية... سميراميس، ربما؟»

أضفت : «أو ملكة سبأ؟» ثم أردفت : «مايكل كلارك في بغداد! بعد هذه السنوات كلها!»

قال : «كنت أخشى أنك نسيتني...»

قلت : «أأنساك في القدس؟ أية سنة كانت؟ آ، ١٩٤٥، قبيل نهاية الحرب، ولكنني لم أرك في تلك الأيام إلاّ ببزّتك العسكرية.»

طوال السنتين ١٩٤٤ و ١٩٤٥، كانت القدس تنغل بالجنود البريطانيين، لا يفرّق المرء بين وجوههم وشخصياتهم، ولا يهمه أن يفرّق. ولكن بعض الضباط من ذوي الرتب العليا كانوا يتقصّدون لقاء المثقفين العرب ما استطاعوا، وكان صديقي عفيف بولس يتقصّد أيضاً أن يلتقي هؤلاء الضباط المثقفين، ويجمع بعضهم في حفلات في منزله الأنيق في «البقعة» مع نخبة من الشباب والشابات العرب، إيماناً منه يومئذ بأن الكثيرين من هؤلاء الانكليز لهم، أو سيكون لهم قريباً، مكانة في حياة انكلترا السياسية، وعلينا أن نؤثر فيهم ليدركوا أننا أناس أهل حضارة، بل متميزون، على عكس ما قد يوهمهم به اليهود الأوروبيون الذين يكثرون الاختلاط بهم. وكنت قد التقيت بهذه الطريقة، في منزل عفيف بولس، لورنس داريل قادماً من الاسكندرية، وكان يومئذ معروفاً كشاعر، ولم يكن قد كتب بعد الرباعية الاسكندرانية. والتقيت كذلك مايكل كلارك، الذي ربما كان في اواخر عشريناته، وأنا في الخامسة والعشرين من عمري. كان شاباً سريع البديهة، عميق الاهتمام بكل ما يرى ويسمع، ولا يزال يحمل، في ردود فعله، ونبرات صوته، آثار دراسته في جامعة كمبردج.

وكان حين التقينا قد قرأ لي قصيدة بالانكليزية منشورة في مجلة «فورام»، المجلة الوحيدة التي كانت تصدر بالانكليزية في القدس ويرأس تحريرها الناقد ريجي سميث. وتآلفنا بسرعة، ولا سيما حين وجدته قد تعرّف أيضاً على صديقي الآخر وليد الخالدي. والتقينا ثلاثتنا عدة مرات، على الأغلب في دار وليد وزوجته رشا سلام. ووليد الذي كان في أوائل عشريناته كثير التعمق بالشعر الانكليزي، وطلق اللسان بالانكليزية بشكل مذهل، مع أنه لم يكن بعد قد ذهب للدراسة في اكسفورد.

مايكل كلارك كان يعبّر عن دهشته كلما سمع وليد يتكلم بألمعيّة وحيوية، فيتأمل وجهه الوسيم جدا، وإيماءاته «الارستقراطية» (كما وصفها مايكل) ونحن نتحدث في القضية الفلسطينية، واليهود لم يبدأوا بعد نشاطهم الإرهابي، فيقول مايكل: «وليد صورة أخرى عن الشاعر شلي... إنه شلي، عيناً، عيناً، ألا تظن؟» فأوافق. ونتحدث عن النار الأثيرية التي كانت في توقد دائم في عيني شلي وصوته، كما هي الآن في عيني وليد وصوته.

ويقول مايكل إننا جميعاً مأخوذون بمثاليات رائعة، هي الأساس الأهم في إنشاء أية دولة فتيه جديدة كالتي تحلمون بها في فلسطين. ويلتفت إليّ ويقول: «وأنت – أنت تذكّرني بيوحنا المعمدان. يوحنّا وهو يصرخ في البريّة لمن يريد أن يسمعه...» فأضحك وأقول إن صديقاً براهمياً من أصدقائي في كمبردج كان يشبّهني مرّةً بـ «نور آسيا» ومرة بالإله فشنو – وأنت لم تر شيئاً بعد! وتنضم الينا رشا بتعليقاتها المرحة الممتعة، ثم تأتينا سلافة أخت الوليد، ولها بشرة كأوراق الورد، لتشاركنا أحاديثنا المحلّقة في فضاءات لا تخوم لها، قبل أن تعلن أن العشاء جاهز.

وقد نقصد أبا الوليد في مكتبته وهو مشغول بأوراقه، لنحيي ذلك الرجل الكبير الذي ما نسيت يوماً فضله منذ أن كنت طالباً في الكلية العربية وهو عميدها وما زال : أحمد سامح الخالدي.

هذا مايكل كلارك أمامي الآن! إن هي لحظات حتى كانت كلماته تتطاير بذكائه المعهود، وتشبيهاته المثيرة، ويتقصد ببراعة إدخال لميعة في حوارنا، متذكراً رشأ وسلافة، وأخريات في القدس نسي اسماءهن، ولم ينسَ وجوههن.

أمّا أنا فلم أنسَ احداً... وتذكّرت نادي الفنون بالقدس، الذي كنت رئيساً له منذ أن اسسناه عام ١٩٤٤ في جمعية الشبّان المسيحية، وعشرات المحاضرات والحفلات الموسيقية التي كانت نشاطنا الاسبوعي فيه بانتظام ، وعشرات الرجال والنساء الذين كانوا بعضاً من حياتنا الثقافية، وعفيف بولس ينشىء «جوقة اورفيوس» من عدد كبير من الشباب والشابات، ليغنّوا بقيادته، وبرعاية نادينا، اغاني كورالية ومقاطع اوبرالية من أروع ما في الموسيقى الكلاسيكية، وسلفاتور عرنيطه يساهم في ابداعاته على الأرغن العظيم، في تلك الفترة الضاحية المثيرة في القدس، قبل أن تدهمنا ظلمات الإرهاب الصهيوني عام ١٩٤٧، وتنسف رؤيا ذلك الحب المتوهج كله بأحقادها.

ولكن الذي أردت أن أعرفه الآن هو ما الذي جاء بمايكل كلارك إلى بغداد، وكيف اهتدى إلى شقتي، فأجاب ضاحكاً : «لذلك قصة، تبدأ بتسريحي من الجيش قبل خمس أو ست سنوات، ودخولي بعد ذلك في لندن عالماً عجيباً هو عالم صناعة الأفلام السينمائية.»

التحق بمؤسسة معروفة بانتاج الأفلام الوثائقية، وجدت فيه من سعة الثقافة والحماس للعمل ما جعلتها تدرّبه على الإخراج فيرافق المصورين إلى المواقع، ويرافق العاملين على أجهزة المونتاج والصوت. وبعد ذلك يُدرَّب على كتابة السيناريو، ومناقشته مع مخرجه، وهكذا، إلى أن راح يجمع بين مهمتين اساسيتين في انتاج كل فلم وثائقي : الكتابة اولاً، ثم إخراج هذه الكتابة. وبعد أن يتم التصوير، ويشرف على التقطيع (المونتاج)، يكتب التعليق المطلوب على العمل المتكامل صورةً، بأجمل لغة نثرية ولكن مشحونة بطاقة شعريّة مركّزة، وبعد أن يسجّل التعليق، تضاف اليه الموسيقى المؤلفة خصيصاً له.

هكذا راح يصف لي عمليةً سينمائية لم اكن أعرف عنها شيئاً، ولم أكن أدري أنني سأُغرى بها بعد سنتين أو ثلاث إغراءً قوياً يبقيني معنيّاً بها فيما بعد سنيناً طويلة كمجال آخر للتعبير، غير الكتابة والرسم، لا يقلّ عنهما أحياناً تحفيزاً لخيالي ومتعتي.

والذي جاء به إلى بغداد هو اتفاقية النفط الجديدة، بعد أن مدّت شركة نفط العراق انبوباً ضخماً من كركوك غرباً إلى ميناء بانياس في سوريا، على ساحل البحر الأبيض المتوسط، الأمر الذي رفع طاقة الانتاج إرتفاعاً كبيراً، وبالتالي أيضاً رفع حجم العوائد المالية للعراق على قاعدة مناصفة الأرباح، في حين لم يكن دخل العراق قبل ذلك سوى أربعة شلنات ذهب عن كل طن من النفط المستخرج .

لم أدرك ما الذي يرمي إليه مايكل كلارك من هذه المعلومات التي لم تكن بالضبط من اهتماماتي المباشرة، إلى أن قال فجأة : «أخرجت فلماً

وثائقياً عن بناء هذا الانبوب، شغلني عدة أشهر هنا وفي سوريا، وفي لندن . وكتبت له التعليق - بالانكليزية طبعاً.»

قلت : «تهانينا. ولكن كيف أوصلك هذا كله إليّ، هنا، اليوم؟»

قال : «المهم في فلمي أن يكون التعليق عليه بالعربية، وليس بالانكليزية . فسألت فرانك ستوكس - تعرفه، ولا شك؟»

لم أتأكد أول الأمر، ثم تذكرت لقائي به أكثر من مرة في حفلاتنا الموسيقية في كلية الآداب. وأكمل صديقي : «سألته أين أجد هنا كاتباً جيداً، ذا نظرة عصريّة، إلخ... وأجابني في الحال : أعرف استاذاً في كلية الآداب اسمه فلان... فصعقت. ألنت ببغداد، وأنا هنا كل هذه الأشهر ولا أدري ؟ وفي الحال بدأنا الاستقصاء، ودلّني أحدهم على أنك معروف في فندق السندباد . ومن فندق السندباد أتى بي نادل إلى باب شقتك نفسها، كما ترى.»

وكانت النتيجة أننا تفاهمنا على تعريب التعليق، والتأكد بعد ذلك من صلاحية نصّي العربي، وذلك بقراءتي ما كتبت مع عرض الفلم صامتاً. غير أن المهم كان لقاءاتنا الممتعة، ولميعة أحياناً معنا، وأحاديث مايكل عن الاتجاهات الأخيرة في الشعر والرواية في انكلترا. والتقيت في أثناء ذلك بفرانك ستوكس أكثر من مرة - ووجدته مزيجاً ممتعاً من الجدّ الرصين والفكاهة اللاذعة - والصيف العراقي الحارّ يتوانى على طريقته، وأنا في انتظار رسالة جون مارشل التي ستقرر سفري، أو عدم سفري، إلى الولايات المتحدة.

* * *

معظم الأماسي كنا نقضيها جماعات، في حديقة دار قحطان عوني، أو حسين هدّاوي، ولكل منهما جماعته، وإن كنا أنا ولميعة قاسماً مشتركاً بينهما. ثم كانت هناك الأماسي الطويلة في المقاهي المكشوفة على ضفاف دجلة، في شارع أبي نواس، وقد نرتّب تهيئة السمك المزقوف على إحدى «جُزر» النهر، التي ينحسر عنها الماء في الصيف، فنصلها بزوارق مهيأة لعبور الكثيرين الذين يقضون الليالي الحارة يأكلون ويشربون في تلك «الجزر» الصغيرة التي تصنعها الطبيعة في الموسم المناسب، لأناس يبدون كأنهم لا يستطيعون الحياة بدونها. والكثيرون من المتمكنين مادياً يقيمون «الجراديغ» (جمع «جرداغ»)، وهي سقائف خفيفة مفتوحة، تقام عادة على ناحية الكرخ من ضفة دجلة، كل منها أشبه بشاليه بدائية، ولكنها تفي بحاجات السهرات الطوال.

وفي أحد الأيام جاء عامر في إجازة قصيرة من عمله في ناحية زمّار، ودعاني إلى الغداء في الدار. وقبل أن ندخل غرفة الطعام، ولميعة منهمكة مع والدتها وأم شاكر في تهيئة المائدة، قلت لعامر: «تأخرت علينا كثيراً هذه المرّة. يبدو أنك تفضل على بغداد منطقتك الجبلية لبرودتها هذه الأيام... عامر، قد لا تعلم أنني أعدّ لميعة أروع فتاة عرفتها في حياتي.»

فأجاب ضاحكاً: «والله أنا أيضاً أعدّ أختي أروع فتاة عرفتها في حياتي.»

قلت: «ولذلك، وتأكيداً لكلامك وكلامي، يشرّفني ويسعدني أن أطلب يدها منك.»

وسكتُّ، في انتظار جوابه، وهو يطيل النظر إليّ صامتاً. ثم نهض،

وأخذ رأسي بين يديه، وقبّلني على جبيني، وقال : «مبروك.»

ولم تعرف لميعة بما جرى، إلى أن انتهينا من الغداء، وأراد كل منا أن يذهب إلى قيلولته. سارت لميعة معي حتى الباب الخارجي تودّعني، فقلت لها : «مبروك! أنت الآن خطيبتي، شرعاً» وأخبرتها بما حدث.

فصاحت مندهشة، وسحبتني من يدي، وأعادتني إلى الداخل، ونادت عامر، وسألته : «لماذا لم تخبرني ، يا غدّار!» فأمسك برأسها بين يديه، كما فعل معي، وقبل جبينها، وقال : «مبروك يا حبيبتي.»

وما كان منها إلاّ أن تنفجر باكيةً، وتنادي أمها : «ماما! صارت الخطبة، صارت!»

في الأيام القليلة التالية، جاءتني أخيراً رسالة جون مارشل تحمل التفاصيل الضرورية كلها بشأن قبولي في هارفرد، وسفرتي البحرية إلى نيويورك، ومنها إلى بوسطن بالقطار، وما عليّ إلاّ مراجعة شركة توماس كوك للسفريات : السيد صموئيل نفسه، جاري الطيّب الذي كان قد رتّب لي قبل سنة سفرتي إلى باريس.

كانت السفينة التي ستحملني من بيروت عبر المتوسط ثم عبر المحيط الأطلسي، تدعى «محمد علي الكبير، الخط الخديوي» . وقد تم حجز «كابين دي لوكس» بإسمي. ولكن كيف أضيف الآن اسم السيدة التي ستصبح بعد أيام قرينتي؟ الأجور سوف تتضاعف، وهو ما لا قبل لنا به، فضلاً عن أن «الكابينات دي لوكس» معدودات، وقد حُجزت كلها .

وهنا أنقذنا السيد صموئيل بحنكته : «لماذا تتحمّلان كلفة مضاعفة،

في حين أن بإمكاني أن أحجز للسيدة لميعة في الدرجة الثالثة، بأرخص بطاقة، بتسعين ديناراً فقط، وما عليكما حين تركبان السفينة إلاّ أن تقصدا رأساً الكابين الممتاز المخصص لك، وفيه حمامه الخاص، واستقلاله الكامل،وتنزلان فيه معاً... خلِّها عليّ، يا أستاذ.»

وبعد يوم أو يومين أخذت حسين هدّاوي إلى السيد صموئيل، ليحجز له ولزوجته وطفلته مريم، مكاناً في الباخرة نفسها : وتبيّن أن وجبات الطعام كانت واحدة لكل الدرجات في القاعة الكبرى نفسها، مما سيجعلنا على اتصال دائم في أثناء الرحلة الطويلة، التي سوف تستغرق ثلاثة أسابيع كاملة .

في تلك الأيام قامت ثورة ٢٣ يوليو في مصر، وشغلتنا جميعاً، كما شغلت العالم، وأدهشتنا وأفرحتنا بأنها تمتّ دون إراقة قطرة دم واحدة. ولكنني خشيت على حجزنا الذي تمّ على سفينة «محمد علي الكبير»، فأسرعت إلى صموئيل استفسر الموضوع، فطمأنني على أن كل شيء على ما يرام، وأن الخط الخديوي خطّ دولي لا يتأثر بسهولة بالأحداث المحلية. وسوف نجد، في كل الأحوال، أن ربّان السفينة، وبحّارتها، جميعاً يونانيون، البحر حرفتهم، وهم جميعاً مدرّبون ومهذّبون.

(١١)

ساعة قررت أن يكون التاسع من شهر آب يوم زواجنا (وقد وُلدت في شهر آب، وكان لي دوماً شهر بركة)، أحسست براحة داخلية هائلة، بعد صراع نفسي عانيت منه أشهراً.

كان الحرّ يلهب مباني بغداد ويذيب اسفلت الطرقات. ذهبنا إلى جواهري بجوار مكتبة مكنزي في شارع صغير يتفرّع عن شارع الرشيد، ووصيّنا على خاتمي زواج، وطلبنا أن ينقش الجواهري في داخل كل منهما ٩ / ٨ / ٥٢. وسِرْنا بعد ذلك إلى المقهى السويسري لتناول القهوة، وبي خفة في الحركة وخفة في النفس، كأن لم يبق لي إلاّ أن أطير إن أنا أردت. وبانت لي لميعة أشبه بإلاهة بابلية تستطيع أن تقتادني إلى أعماق العالم السفلي، كعشتار، لنصعد منها معاً بتموز، ونحن أقوى كياناً وأشدّ اندفاعاً، إلى فضاءات استطيع أن اقتادها فيها بدوري إلى حيث قد صنع الله فراديس يرحّب فيها بمن يشاء ممن يحبّهم ويحبّونه.

وانتبهتُ إلى ان لميعة، مثلي، ومثل أمّي، لا تتحملّ حليّ الذهب، من أساور وقلائد أو غيرها، وتصرّ دائماً على أن تكون عاطلة عن كل حلية، فيما عدا الأقراط التي كانت تتجنب الذهب في صياغتها. وحدثتني كيف أن العائلة ورثت كميّات من المجوهرات، بعضها عن عمّها بكر صدقي، وأعطتها لها والدتها أيام دراستها في دار المعلمين، وبدلاً من أن تتزين لميعة بها، راحت تبيعها قطعة قطعة، وتشتري بأثمانها الواح الشوكولاته

وكيلوغرامات الفستق! وهكذا أتت على ذهبها كله! وأصرّت على رفضها أن أشتري لها ولو قطعة رمزية واحدة من الذهب، فيما عدا خاتم الزواج.

وإذ كنا في المقهى نتحدث عن عدم حبها للذهب، قلت إنني أفضّل الفضة، لبياضها ونقائها. ثم أضفت مازحاً: «ولكنني، ولسوء الحظ، لم أولد وفي فمي ملعقة من فضة.»

فاستضحكت، وقالت مركّزةً نظراتها في عينيّ: «ولكنك ولدت وفي فمك شيء أغلى وأندر... ولدت وفي فمك لسان من فضة.»

«ما أحلى انحيازك لي!» قلت. وتذكّرت تجارب الحرمان التي عرفتها في طفولتي، والتي، دون أن أعي يومئذ، ما سمحتُ لها قط بأن تؤثر في موقفي من الحياة. وذكرت للميعة كيف أن أمي، بعد عودتي من كمبردج، كانت كلما هيأت مائدة الطعام، تضع لي شوكة وسكينة معيّنتين، لم انتبه أول الأمر لتميزهما عن باقي أدوات الطعام التي يستعملها أفراد الأسرة الآخرون. كانت كلتاهما من فضة! فلما سألت أمي عن ذلك، قالت: «ألا تعرف إذن؟...» وحكت لي كيف أنها في أثناء السنوات التي قضيتها في الدراسة في الخارج، وكانت للعائلة سنوات عجافاً عسيرات، وفّرت من النقود ما يكفي لشراء شوكة وسكّينة من الفضة لاستعمالي الخاص عندما أعود إليها. تلك كانت هديتها لي... وبقيتْ في السنين التالية مصرّة على ألا يستعملهما أحدٌ غيري. وكلما عدت من بغداد إلى أمي، أخرجتهما من جديد، وجلتهما حتى يأخذ بريقهما البصر، لتضعهما أمامي على المائدة كلما حان وقت الطعام... أي حبّ أرقّ وأعذب من ذاك في الدنيا كلها؟

بعد القهوة خرجنا من «السويسري» إلى لظى رواق أعمدة شارع الرشيد، ورأينا رجلاً يدفع عربة محمّلة بتفاح أصفر مخضوضر، فاشترينا منه ملء كيسٍ ورقي، وركبنا في اول عربة ذات حصانين صادفتنا، وقلت للحوذي: «استمرّ على دربك!» ووضعت لميعة كيس التفاح في حضنها، ورحنا على إيقاع حوافر الحصانين نأكل التفاح حبّة حبّة، وأنا أعشق حموضته البغدادية.

وفجأة استضحكت لميعة وقالت: «بتفاحة واحدة أخرجت حواء آدم من الجنة. وها أنا أقدّم لك عشرين تفاحة! يا ويلك مني!»

قلت: «حواء أخرجت آدم من الجنة بتفاحة واحدة كبيرة، ولكنك، بعشرين تفاحة صغيرة، تعيدين آدم إلى الجنّة من جديد. وأية عودة!»

لم نعرف إن كان الحوذي يسمع ما نقول، وما همّنا ما يسمع الحوذي او لا يسمع. فقد راح يدخّن على رسله، ونحن نتحدث على رسلنا، والحصانان يخبّان بكسل في الحرّ اللعين إلى حيث يريدان، إلى أن وجدنا، بعد أكثر من ساعة، أننا بلغنا مشارف بغداد الجديدة. وهناك قلت للحوذي: «والآن، عد بنا إلى شارع الرشيد، وبارك الله فيك!»

هل كان ثمة في العالم من يخرج في عزّ الظهيرة، في لهيب آب، ليتنزّه ويتغازل في طرق بغداد، إلاّنا؟ ما الذي قلناه، وما الذي أبقيناه للقول في أيام قادمة؟

كنت عادة أروي للميعة نكاتٍ كثيرة، معظمها بالانكليزية ومن أنواع قد لا يعرفها إلا الانكليز، الذين يعدّون «حسّ الفكاهة» مهمّاً للحياة، كالشمس والهواء. ولكنني في ذلك اليوم، قلت لها إنني بعد الزواج سأقنّن

الخزين الذي تبقّى لديّ، فلا أروي لها كل يوم إلا نكتتين، فهل تقبل؟ وقبلت على مضض! فبعض ما كان يجتذبها في أي إنسان هو قدرته على الرواية، مهما يكن ما يرويه. حتى قالت لي يوماً : «أتدري؟ اكتشفت الآن سرّاً يجب ان اكشفه لك. إن الذي اجتذبني اليك لم يكن فقط علمك وفنك وأدبك وحيويّتك - وكلها على عيني وراسي - بل براعتك في رواية أي شيء، قصة، حدث، نكتة، بالعربية، بالانكليزية... أنت تجعل كل صغيرة وكبيرة، حقيقية او مختلقة، مهمّة ومثيرة... انك تجعل الحياة كلها تبدو مهمة ومثيرة: أيّ illusionist مُوهِمٍ رائع تزوجت!»

* * *

في الساعة التاسعة من صباح التاسع من شهر آب، كنت أتطلع من نافذتي الشمالية العريضة الى الشارع، في انتظار حلمي، الذي وعد أن يأتيني بسيارته الصغيرة الحمراء، المكشوفة. وتذكرت كم من مراحل مهمة في حياتي شاركني فيها هذا الصديق الرائع، منذ أيام دراستنا معاً في الكلية العربية، وذهابنا بعد ذلك في خريف ١٩٣٩ إلى انكلترا في رحلة بحرية جابهنا في قسم منها أهوال المحيط الأطلسي، اذ هاج بنا أياماً بلا رحمة في خليج بسكاي... الذكريات كثيرة، من القدس، إلى انكلترا، الى القدس مرة أخرى، ثم إلى بغداد، لنعمل في التدريس معاً في كلياتها. ثم هذه التجربة الجميلة التي استمرت اكثر من سنة مع أصدقاء وصديقات، تتوسطهن بالنسبة إليّ لميعة، وبالنسبة إليه افلين الرائعة، صديقة لميعة واستاذة علم النفس في كلية الملكة عالية، وابنة أحد أشهر الأطباء الأخصّائيين في بغداد، والدلائل تشير كلها إلى أنهما قريباً، مثلنا، ورغم المصاعب، سيتزوجان. وها هو أيضاً، بكل عبقريته

المشهود لها بالرياضيات والفيزياء، لم يجدّد عقده، وعليه أن يبحث عن عمل آخر في العراق، حيث استقرّ مع عائلة أبيه منذ خريف ١٩٤٨.

لمحت سيارته، ورأيته يتوقف بها، ويرفع بصره نحو نافذتي. فتحتها، ولوّحت له بذراعي، ثم أغلقتها، وأسرعت في هبوط الدرج إليه، ومحرك السيارة ما زال يلهث. صعدت إلى جانبه، واستمررنا في شارع الرشيد، باتجاه بيت حسين هدّاوي، على مقترب الجسر الحديدي.

أصر حسين، وزوجته كريستا، على نزولنا، وتناول القهوة قبل المضيّ إلى دار لميعة، وكريستا تقول لي بالانكليزية: «لا بدّ أنك مثارٌ جداً. هل كنت تتصور يوم جئت إلى بغداد قبل اربع سنوات، غريباً لا يعرفه أحد، أنك ستتزوج يوماً فتاةً من اجمل فتياتها؟»

بعد حوالي نصف ساعة، صعدتُ إلى السيارة بجانب حلمي، وصعد حسين الى الحوض الخلفي الضيّق، واتجهنا إلى دار لميعة في شارع طه، والنهار يشتَدّ حرّاً، والسيارة المكشوفة لا تقينا لذع الشمس، لولا النسيم الذي يهبّ من جرّاء حركتها، فيخفّف عنا قليلاً. وبعد دقائق كانت لميعة ووالدتها ترحبّان بنا، وجلسنا جميعاً في غرفة الاستقبال، بكراسيها الخضر الضخام، وأتتنا أم شاكر باستكانات الشاي.

عندما نهضنا اخيراً للخروج، رايت لميعة تذهب إلى والدتها وتعانقها، وتقول لها: «ماما، باركي لي الآن. لن اتحرك حتى تباركي لي.»

فقبلتها أمها بحرارة، وقالت: «مبروك، حبيبتي. كنت دائماً اخاف أن صديقك هذا سيأخذ مني المخلوقة الوحيدة التي أعيش وأموت من

أجلها. وسوّاها!» وتقدّمت مني، وقبلّتُها على خديها، وهي تقول: «مبروك، وشايفين كل الخير، إن شاء الله.»

وخرجنا إلى السيارة الحمراء، فصعدنا أنا وحسين إلى الحوض الخلفي متزاحِمَيْن، وجلست لميعة قرب حلمي، وحلمي يطلق سحب الدخان من غليونه المعقوف الذي أخرجه لحظةً من بين شفتيه، وصاح: «يا الله!» وذهبنا إلى المحكمة السنّية في شارع النهر.

لقد شاهدت في زماني قبل ذلك اليوم زواجاتٍ وأعراساً كثيرة، ومنذ ذلك اليوم شاهدت عشرات الزواجات والأعراس التي تملأ الدنيا أصواتاً وطرباً، بما فيها حفلات النيشان والمهر والزفاف التي أقمناها بعد سنين أنا وزوجتي لولدينا، سدير وياسر، وفق ما أراد كل منهما، تنفيذاً لرغبات كل عروسٍ وأهلها، وتمشّيا مع أعراف المجتمع وبمتعة هائلة منا، غير أن زواجنا كان يختلف عنها جميعاً. لقد كان زواجنا، زواج رجل وامرأة اختار كلاهما الآخر، استثناءً، ودون إذن أو عون فعلي من أحد، اللهم إلاّ بركات عدد من المحبّين والأصدقاء – ناهيك عن المقاومة الصريحة والمكتومة التي كنّا نعيها، ونتقصّد إهمالها. ولم أعرف قط حتى ذلك اليوم، زواجاً كزواجنا يتحقق بمشيئتنا نحن فقط، لا بمشيئة أي إنسانٍ آخر. ولما دخلنا إلى مبنى المحكمة القديم، شعرت كم هي عادلة وإنسانية هذه الشريعة التي لا تطلب، تحقيقا لعقد قرانٍ بين رجل وامرأة، سوى موافقة الواحد على الآخر، وشاهدين اثنين على ذلك.

وقد كنّا في أبسط ملابسنا: لميعة في بلوز أبيض مفتوح الياقة عند العنق، قصير الردنين، وتنّورة رمادية، وحذاء مسطّح الكعب، فهي تفضّل

الاّ تلبس الكعب العالي إلاّ عند الضرورة في الحفلات المسائية. وأنا بقميص أبيض، مفتوح عند العنق، وبنطلون رماديّ أيضاً. وهل يسمح قيظ آب ببغداد بارتداء ما هو غير ذلك، أو اكثر منه؟

حالما رآني القاضي عبدالحميد الأتروشي، رحّب بي. فقد كنت أسلمت على يديه قبل أيام، ولم ينسَني. وبعد التعرف على لميعة والشاهدين، وقراءة الاستمارات التي ملأناها، انتبه إلى مبلغ البائنة المذكور في الشهادة التي سيوقّع عليها. فرفع رأسه وقال: «يا لميعة برقي شوقي العسكري، هل تعرفين أنّ مهرك المقدّم دينارٌ واحد، ومهرك المؤخّر ديناران اثنان؟»

أجابت: «نعم، فضيلة القاضي.»

فسألها: «وانت راضية بهذا المهر؟»

فأجابت: «نعم، راضية.»

قال: «وهل تسلّمت الدينار الواحد، كمهر مقدّم؟»

قالت: «نعم.»

فأجال بصره بيننا نحن الاثنين، وبين الشاهدين، وهو يبتسم، وقال: «أشهد بالله أن هذا الزواج ليس الدافع إليه هو المال!»

وأجرى بسرعة ما يقتضيه الأمر، ووقّع الشاهدان على الوثيقة التي تسلّمتُها. وودّعَنا القاضي ببشاشة خاصة مع التهنئة. لقد رأى بعينيه ذلك الصباح ما لا يراه كل يوم: زواج عاشقين...

انضغطنا في السيارة الصغيرة من جديد، وقد أصرّ حلمي وحسين أن يجلس العروسان معاً في الحوض الخلفيّ الضيّق، وقد لبس كلانا خاتم الزواج. وقلت: «والآن، إلى فندق السندباد، للغداء.»

وهناك، في قاعة الطعام، عندما علم النادلان حنا والياس أننا قد عقدنا للتوّ قراننا، أتحفانا بألذّ ما لديهم من طعام. ولم ينسيا الدرّاج المشوي الذي «يدللأن» به عملاءهما المفضلّين. وطلبنا لكل منا كأساً مزدوجة من الكونياك الذي كان دائماً الشراب الأثير عندي وعند حلمي: ريمي مارتان. ولأول مرة في حياتها، ولآخر مرة، ذاقت لميعة الكونياك برشفةٍ ضئيلة جدا، عندما شربنا نخب زواجنا. ثم أبعدته عنها - وشربناه نحن الرجال، فيما شربنا فيما بعد. واتجهنا بعد الغداء إلى حيث تعمل مكيّفة هواء مزعومة، تحاول جاهدة تبريد المكان، فلا تزيد إلاّ من رطوبة الجو، ونحن ننضح بالعرق. ولم يكن في القاعة غيرنا في تلك الساعة. فالكل في قيلولة، سوانا، ونحن لا نكفّ عن الكلام والضحك. ثم جاءوا لنا بالشاي، وفي تلك اللحظة، بان الشاي لنا لذيذاً ككونياك ريمي مارتان.

* * *

بعد يوم او يومين استطاعت تلميذتي الوفية، وكانت قد تخرّجت بامتياز في الأدب الانكليزي، أن تتصل بي لتشكر لي استجابتي لرغبتها في أن تستعيد رسائلها. (ترى ما الذي تفعله امرأة برسائل كتبتها يوماً بعد يوم بدم قلبها، ثم استعادتها فجأة كلها في رزمة واحدة؟) هنأتني على الزواج، وأرسلت إليّ هدية ثمينة: علبة سكاير ذهبية، نُقشت في

داخلها خريطة العراق. انا لا أحمل عادةً علبا من هذا النوع، لا سيما اذا كانت من ذهب، والسكاير التي ادخنّها قليلة، لأنني ادخّن الغليون الذي لا يفارقني. تأثرت جدا، وقدّرت تلك الهدية الجميلة منها. وتساءلت: هل أذكرها للميعة؟ قررتُ ألاّ أذكرها، واحتفظت بها بين أغراضي الكثيرة. والغريب أنها اختفت. ولم أعرف قط كيف ومتى اختفت، وهل كان للميعة علاقة باختفائها دون أن تعلمني؟ وبالطبع، لم أذكر موضوع اختفائها لأحد.

* * *

لم يبق لنا بعد يومنا المشهود إلاّ أن نشدّ الرحال للسفر، وموعد إقلاع باخرتنا من بيروت في أوائل أيلول. وكان عليّ أن أذهب أولاً إلى بيت لحم لرؤية والدتي وأخوتيْ يوسف ومراد قبل الرحيل بعيداً. وكان من اواخر ما فعلت أن اطمأننت على استئجار أخي عيسى مسكناً جديداً له في ساحة النصر، سينقل إليه أيضاً، حال مغادرتي، مكتبتي، وكتبي، ولوحاتي.

وصعدنا أنا ولميعة عصراً إلى الطابق الأعلى من اوروزدي باك، في شارع الرشيد، لأشتري لها فستاناً. واخترنا واحداً لازورديّ اللون، ما إن لبسته لتجرّبه على قوامها وتخرج به من وراء الستارة، حتى جُننّا كلانا به: فسمرة لميعة البغدادية، مع بعض الوان ثيابها، كانت تتحوّل إلى وهج مذهل. والتوركواز، والورديّ، والأزرق الفاتح، من الألوان التي تشعل فيها ذلك السحر الذي يؤكد من جديد بريق عينيها، وامتشاق جسدها

وامتلاءاته. وعدّت لميعة ذلك الفستان هديتي لزواجها، ورفضت أن اشتري لها أي شيء آخر. (إلى أن حملتنا السفينة بعد أيام إلى عدد من موانىء إيطاليا، حيث كانت المغريات بالشراء أبدع، والاستجابة أقوى.)

وكانت خطتي أن تسبقني بيوم أو يومين في الذهاب إلى بيروت، فتنزل عند أخي عالية العمري، ناثر وزوجته ميّ، وناثر العمري يومئذ سكرتير اول أو ثانٍ في السفارة العراقية هناك. ثم آتيها أنا بالطائرة من القدس، بعد أن أقضي حوالي عشرة أيام مع أهلي في بيت لحم.

ولم ننس في تلك الساعات المثيرة، أن على لميعة أن «تنفكّ» من وظيفتها بترتيب مع كليتها ووزارة المعارف. وقد سعت في ذلك، وقابلت الوزير الذي أعلمته بزواجها مني، وطلبت موافقته على أن تصحب زوجها في أثناء وجوده للدراسة في الولايات المتحدة، في ما يسمّى إداريًا بإجازة بلا راتب. وأدهشها أن الوزير لم يتردد في الأمر بالموافقة على غيابها لمدة سنة واحدة، وأبقى راتبها جارياً، إلى أن يعيد النظر فيه.

في بيت لحم، قضيت أياماً ممتعةً مع أمي، ومع يوسف ومراد وعائلتيهما، وكثر الزائرون لنا من الأصدقاء والمعارف، ولم أحدّث احداً من أهلي عن زواجي، تجنّباً للجدل العقيم المحتمل. وخرجت في مشاوير طويلة مع أخويّ وبعض الرفاق القدامى، الى الدهيشة والخضر وبُرَك النبي سليمان، وزرنا القدس القديمة وضواحيها الشرقية، كعادتي كلما عدت إلى بيت لحم بعد غياب طويل.

وفي عصر اليوم الذي سبق مغادرتي، اذ كنت أصعد أدراج سوق البلدية، صادفتني امرأة نازلة، وسلّمت عليّ بحرارة. فهي من صديقات

أمي منذ عهد بعيد، وكانت إحدى جاراتنا في جورة النسناس بالقدس، واسمها وردة. وفاجأتني بقولها: «سمعت أنك تزوجت.»

عجبت لكلامها، فراوغت وقلت: «ومن قال لك ذلك؟»

قالت: «سمعت انك تزوجت ابنة باشا ببغداد. هل تتذكر الفنجان الذي قرأته لك قبل ثلاث أو اربع سنوات، وأنت في إحدى عوداتك من بغداد؟»

كانت وردة معروفة بحذقها في قراءة الفنجان، ولم تكن توفرّ فرصة لاظهار هذا الحذق. فلما لم يبدُ عليّ أنني تذكرت ما قالت لي حين قرأت فنجاني قبل ثلاث او اربع سنوات، تبرّعتْ بتقديم التفاصيل - وأدهشتني أنها، وهي التي قرأت للناس منذ ذلك اليوم مئات الفناجين، ما زالت تذكر ما رأت في فنجاني. «نسيت؟ خلّيني أذكرك. كنا في بيت خميس، مع فلان وفلانه، وشربنا القهوة، وقلت لي، يلاّ يا خالتي ورده إقري لي فنجاني... وما شاء الله، شو هالفنجان العجيب اللي شفته بين إيديّ. تتذكرّ؟ شفت كومة كراسي، كرسي على كرسي على كرسي، وفوق هالكراسي، فوق فوق، كرسي كبير وانت يا حبيبي قاعد على هالكرسي. شو، نسيت؟ والله أنا ما نسيت. وحكيتها لأمك يوميتها، وقلت لها، إبنك راح يوصل مكان عالي، عالي كتير...»

وتذكرت عندها يوم قرأت لي ذلك الفنجان، وأضحكتني بحماسها الزائد، وأنا الذي ما فكرّت يوماً في حياتي بالجلوس على أيّ من الكراسي التي تهمّ خالتي وردة. فلما قلت إنني تذكرّت، قالت: «امبارح، لما حكوا لي انك تجوّزت بنت باشا، قلت لهم، والله أنا اللي قلتها إلو قبل

سنين... ولسّه يا حبيبي، لسّه. الجايات أكبر وأكبر... بكره العصر رح آجي عند أمك، ونشرب قهوة عندكم، وأقرأ لك فنجانك، وتشوف... يا الله، مع السلامة. سلّم لي عَالوالدة...»

واستأنفت نزولها، وأنا أحمد الله على أنني في اليوم التالي، عند مجيئها، سأكون في الطائرة، محلقًا في الأجواء باتجاه بيروت.

* * *

هبطت الطائرة في مطار بيروت، وكنت قد أبرقتُ إلى ناثر العمري تاريخ وساعة وصولي، وراح قلبي يدقّ بعنف وأنا أريد الانتهاء من معاملات الجوازات والجمارك، وأرسل بصري بعيداً إلى حيث البهو الطويل المؤدّي إلى الخروج. ورغم الإضاءة الرديئة، والليل قد أظلم في الخارج، لمحت بين جمهرة المسرعين دخولاً وخروجاً، قدّاً ممشوقاً واقفاً في وسط القاعة، علمت في الحال أنه لميعة. كانت تلبس «كوستيوم» أبيض لم أره عليها من قبل، يشعّ بشكل غريب ويضيء القاعة كلّها. ولم أر إذ ذاك إنساناً غيرها. ركضت نحوها، والحمّال يركض خلفي بعربته الحاملة حقائبي، واحتويتها بين ذراعيّ كالمجنون... إلى أن قالت: «هنا السائق، ينتظرنا. يا أميل...»

تقدّم مني اميل وصافحني، واقتادنا جميعاً إلى السيارة. والسيارة، بالطبع، سيارة ناثر، واميل سائقه. وضع حقائبي في صندوق السيارة، وكافأ الحمّال بنفسه، وانطلقنا في شوارع المدينة التي كانت إحدى المدن الثلاث او الأربع التي أعشق، وبقيت أعشق على مدى العمر.

ولكن بيروت في الصيف، بعد برودة تلال القدس وبيت لحم، لم تكن حارّة

فقط، بل شديدة الرطوبة أيضاً. ولئن يجيء الليل في بغداد قبل أن ينتصف بالنسمات الصحراوية الباردة، فإن رطوبة البحر الحارّة لا تتراجع في بيروت حتى مع تقدّم الليل.

ترك لنا ناثر ومي شقتهما القريبة من الروشة، والمشرفة على البحر. وقد استأجرا منزلاً في سوق الغرب، في الجبل، لما تبقّى من الصيف. ولكننا، أنا ولميعة، بعد أن ودّعنا السائق، وجدنا الجوّ في الشقة لزجاً لا يطاق، رغم أننا فتحنا النوافذ كلها. (لم تكن مكيّفات الهواء شائعة بعد يومئذ.) وبقينا بلا نوم حتى الصباح - ولو ان الحرّ، بحضور العشق، لم يكن إلا السبب الثانوي في عدم النوم، وتلك اول ليلة نقضيها بكاملها معاً.

ما كادت أشعة الشمس الأولى تعابث الموج بلألائها وسطوعها، حتى كنا قد فرغنا من تناول الفطور وشرب القهوة، وأغلقنا الشبابيك، وخرجنا مع حقائبنا، وأقفلنا الباب. وفي الحال اقتربت منا سيّارة أجرة، حملت حقائبنا، وصعدت بنا الجبل إلى عالية، ومنها إلى سوق الغرب، وعند لميعة مفردات العنوان التي اهتدى بها السائق إلى منزل ناثر ومي.

وهناك، أي شخصين جميلين رأيت!

اذا كان الحب أحياناً من اول نظرة، فبعض الصداقات كالحب، ينبثق عند اول نظرة. هكذا كانت العلاقة الحميمة التي نشأت في الحال بيننا. لا ريب ان الكلام الذي سمعه كل منا عن الآخر مسبقاً، كان له فعله في هذه العاطفة الفجائية، مع أن ما يسمعه المرء من كلام مسبق عن الآخر ينتهي أحيانا، عند اللقاء، إلى خيبة مرة.

كان ناثر من عمري، أو ربما يكبرني بسنة او سنتين، رغم الشيب المبكّر الذي هاجم رأسه. وكان مثلي قد تلقى العلم في انكلترا أيام الحرب، وعاد الى العراق بمشقة هائلة، في الوقت نفسه بالضبط الذي عدت أنا فيه إلى القدس، بالمشقة نفسها.

ووجدتُ مي، وهي ابنة عمه، تصغره ببضع سنوات – فهي أصغر سناً من لميعة ايضاً – وبشرتها الوردية وشعرها الغزير الأشقر، وعيناها الواسعتان الزرقاوان، لن يصدّق أحد أنها نتاج الموصل. ولم يكن من الصعب ان ادرك أن هذه اللؤلؤة النادرة كانت يوماً مثار التنافس بين اولاد أعمامها، إلى أن فاز بها منهم، وهي في السادسة عشرة من عمرها، ناثر بعد عودته من الدراسة بمدّة. ولميعة كانت منذ سنين في المركز من اهتمامهما كليهما.

يومئذ ادركت السرّ في التجاذب الهائل بين لميعة وبين أفراد هذه الأسرة المتميزة: الحيوية، مقرونةً بإنفتاح ذهني هائل، وسخاء في النفس، مع الإحساس في الوقت ذاته بأن ثمة صفة غير عادية في بعض الأفراد، تضعهم معاً في خانة خاصة بين باقي البشر. فبذكائهم الواضح، بتوقّد بديهيتهم، بثقافتهم المتنوعة، بطلاقتهم في الكلام، بكبريائهم الداخلية، كانوا فئة متماسكة، بغض النظر عن وجود صلة الرحم او عدم وجودها فيما بينهم. ولا بدّ أن ذلك كان أيضاً سرّ انجذابي اليهم وانجذابهم إليّ – دون أن أعي شيئاً من الأمر في حينه – مما جعلني أشعر، او انهم هم الذين أوحو إليّ بأن اشعر، أننا في الأعماق ينتمي بعضنا إلى بعض على نحو نحن في غنى عن الحديث فيه او التدليل عليه.

وقد اكتشفت بسرعة أن هواية ناثر هي الرسم، وبخاصة بالألوان المائية، التي يستخدمها بشفافية بارعة. ولم يكن غريباً، بعد ذلك بسنين، في اواسط الستينات، أيام كان سفيراً ببيروت، أنه أقام، بإلحاح مني، معرضاً في «غاليري واحد»، بإدارة صديقي العزيز الشاعر يوسف الخال. وكان للوحاته التي تصوّر مشاهد من طبيعة لبنان التي كنا جميعاً نعشقها، صدى لا يلقاه عادة إلاّ الفنانون المحترفون.

قضينا الصباح عند ناثر ومي. وتناولنا الغداء على مائدتهما، والأسئلة والأجوبة عن أمورنا الشخصية وغير الشخصية لا تنقطع. وهواء سوق الغرب، بطراوته ونعومته، فضلاً عن برودته، ذكرّني بهواء تلال القدس وبيت لحم التي هي على ارتفاع تلال سوق الغرب بالضبط.

وبعد الرابعة عصراً أخذنا ناثر في سيارته الى فندق كامل الكبير، الذي كان أحدث واكبر فندق في البلدة، ومشرفاً بغرفه وقاعاته على منحدرات الجبل التي تسترسل نزلاً حتى مدينة بيروت والبحر الذي يشع من ورائها بزرقته الغمامية، مترامياً نحو الأفق الغربي القصيّ.

أُعجبنا بالفندق، وأردنا حجز غرفة لي ولميعة، ولكنه كان مليئاً بالنزلاء. واقترح علينا أصحابه أن ننزل في الفندق المجاور، فندق سرسق، وهو أيضاً يطلّ من على رأس التل، ولكنه قديم. وهكذا، بعد أن شربنا الشاي في بهو فندق كامل، لجأنا إلى فندق سرسق، حيث حظينا بغرفة جيدة، قررنا البقاء فيها إلى أن تحين ساعة ركوب السفينة بعد ثلاثة أيام او اربعة. ولا بد من القول إننا في السنين اللاحقة، حتى عام ١٩٧٤، قليلة هي الأصياف التي ما قضينا كلّها او جلّها في فندق كامل

بسوق الغرب، وكأننا مع أصحابه الطيبين من أهل الدار. وانقطاعنا عن لبنان بعد نشوب الحرب الأهلية المأساوية في ربيع ١٩٧٥، تماماً كانقطاعنا قبل ذلك عن بيت لحم والقدس منذ حزيران ١٩٦٧، كان حرماناً مؤلماً لنا، كما للملايين من العرب، يذكّرنا في كل لحظة بهول الفواجع التي راحت تلاحق هذه الأمة ملاحقة قدر مجنون.

ولكن بين صيف ١٩٥٢ وصيف ١٩٧٤، كان لنا في لبنان، بجبله وسواحله، اكثر من عقدين من سنين مكتظة بتجاربها المتوقدة، عرفنا فيها، أنا ولميعة، عديداً من الأناس المثيرين، وضروباً من الصداقة والحب، والنشاط الفكري والإبداعي، أعطت حياتنا، وحياتي أنا على الأخصّ، بعضاً من أجمل تجاربها وأمتع حوافزها. فلولا بيروت، حتى في السنوات العاتية اللاحقة، لكانت حياتنا أفقر وأضمر، ولفقدت الكثير من حلاواتها ونشواتها.

في ضحى اليوم التالي فاجأنا عماد العمري، أخو عصام الأصغر، وابن عم ناثر، قادماً بسيارته من دمشق، ليهنئنا، قائلاً بأنّ عليه أن يعود في الليل، لأنه لم يستطع أن يحصل على إجازة من عمله لأكثر من أربع وعشرين ساعة، ولذا لم يستطع أن يستصحب زوجته سلمى - وكانا حديثي الزواج. كان عماد يشعّ مرحاً، وضحكاً، وخفةَ ظل، وكأنه أخ آخر للميعة. وبقي أخاً عزيزاً لكلينا بعد ذلك اليوم عبر سنوات لم يخلُ بعضها من القهر والآلآم. ودعوناه مع زوجته السورية لزيارتنا في هارفرد حالما نستقر فيها. (واستجابا للدعوة، هو وسلمى، في الصيف التالي، ونزلا في شقتنا الصغيرة، ونمنا جميعاً على الأرض سعداء، مفترشين البطانيات وكأننا على فراشٍ من ريش النعام!)

في صباح اليوم الثالث، نزلنا من فندق سرسق إلى مكتب توماس كوك لنتأكد من موعد إبحار «محمد على الكبير»، ثم عرّجنا على البريد، حيث أبرقت إلى جون مارشل في نيويورك لأخبره أنني تزوجت قبل أيام، وسترافقني زوجتي في السفر والإقامة في هارفرد، وسنصل الى نيويورك يوم كذا.

عدنا بعد ذلك إلى ساحة البرج، وكانت يومئذ، ربما، أعجب ساحة في أية مدينة في العالم من حيث البشر، والحركة، والضجيج، والألوان، ويممنا شطر محل «البحصلي»، لنشتري منه علبتين كبيرتين من البقلاوة والبلورية والبرمة، وأمنّا دونما نقاش ببيت من الشعر نظمه قبلنا بأكثر من عشرين سنة محبٌّ آخر لحلو البحصلي ، أمير الشعراء أحمد شوقي ، وجعله صاحب المحلّ بخطٍّ بديع على الأوراق الزرقاء التي تُلفُّ بها العلب، وهو يقول :

إثنان حدّث بالحلاوة عنهما ثغر الحبيب وطعمُ حلو البحصلي

ولسوف تساعدنا بعض قطع هذه البقلاوة والبلّوريّة في إقناع الملاّح اليوناني المسؤول عن «الكابين دي لوكس» المخصص لي في «محمد علي الكبير»، فينقلني من غرفتي الفردية إلى غرفة مزدوجة، خليقة بعاشقين يقضيان شهر العسل على ثبج امواج البحر الابيض المتوسط، ومن ثم امواج المحيط الاطلسي، وقد بدا عليهما واضحاً أنهما لا يملكان من متاع الدنيا إلاّ نفسيهما وعشقهما - وشيئاً من حلو البحصلي.

(١٢)

كانت تلك رحلتي الخامسة بحراً وأمتعها جميعاً، وأغناها أحداثاً. رحلتي الأولى كانت قبلها بثلاث عشرة سنة بالضبط، عام ١٩٣٩، عندما ذهبت الى انكلترا عن طريق بورسعيد، وبرفقتي حلمي سمارة وحامد عطاري، وكان ذلك اول خروج لي من الوطن، والحرب العالمية الثانية قد بدأت للتو. وتركت ورائي أناساً أحبّهم ويحبّونني، مغامراً بنفسي في اتجاه المجاهيل التي رحت اكتشف فيها علاقتي الاوسع بالعالم، عن طريق الكتب، والفن، والحب، لعلني اكتشف مجاهيل ذاتي. وكانت في كل مسافة منها، في كل ميناء نزلنا فيه، في كل موجة عابثتنا ثم طوّحت بنا بعنف البراكين، طقوس البداية التي ستدخلني في غمرات من البشر والطبيعة، من العقل والأحاسيس، من المعرفة والعاطفة، ستبقى مغريتي ومطلبي طوال السنين التالية.

وكانت رحلتي الثانية بعد ذلك بأربع سنوات، وقد انتهيت من دراستي في كمبردج، منطلقاً من ميناء ليفربول، والقنابل الألمانية تنهال عليها في الغارات الجوية، وقد أكملت سنتي الثالثة والعشرين. بأي تصميم وجنون قررت القيام بأوذيسة العودة الى الوطن! فلأنني كنت في الجامعة أحد الخمسة الأوائل في نتائج امتحان «الترايبوس» في الأدب الانكليزي، بين عدد كبير من التلاميذ البريطانيين، جاء الإيعاز من مدير معارف فلسطين إلى عميد كليتي، وليام ثاتشر، بأن استمر في الدراسة ثلاث سنوات أخرى للحصول على الدكتوراه. ولكنني رفضت، وأصررت

على العودة إلى القدس لأنني أريد أن اكتب. قلتها للعميد، الذي كانت بينه وبيني مودّة خاصة، وكان دائماً يقول لي وهو يراقب نزواتي الدراسية وغيرها طوال السنوات الثلاث السابقة: «أريدك أن تعمل كحصان أنكليزي بليد، لا كجواد عربي ناريّ.» قلت له، وشيطان الكتابة قد سيطر عليّ بحيث يريدني ان انفق ساعاتي كلها معه: «لا استطيع أن أقضي ثلاث سنوات أخرى في دراسة أديب ما. أريد ان أنصرف بكليّتي لما لديّ أنا للكتابة.» ولم يكن العميد يعلم مبلغ تحرّقي لأهلي، وعمق إحساسي بأنني سأموت في السادسة والعشرين من عمري، وعليّ أن أسرع لتحقيق ما يضطرب في صدري من قصائد ورؤى وجنونيات، قبل أن تقع الواقعة. ولم يكن يعلم أية امرأة جميلة أترك ورائي وأنا أغامر باتجاه المجهول الجديد الذي يصيح بي دون هوادة، وأدخل مرة أخرى عباب المحيط عبوراً إلى حلمي.

دامت رحلة الاوقيانوس الاطلسي ثلاثين يوماً لم نر فيها إلاّ الماء والسماء، في قافلة من سفن عديدة كانت سفينتي أصغرها، ولكنها قائدتها، وتقوم برحلتها البكر، وفيها ثلاثة عشر راكباً، مما جعلنا نعدّ قطة ربان السفينة الراكب الرابع عشر، تخوّفاً من الرقم ١٣. وكان من حقنا أن نخاف، والمحيط تذرعه في الأعماق غواصات الألمان، التي اشتهرت في تلك السنة ١٩٤٣، باغراقها سفناً بريطانية كثيرة. وهوجمنا على الأقل مرتين او ثلاثاً، والبوارج التي تحمي القافلة تطلق طوربيدات الأعماق، فيرتفع البحر بنا جبلاً، ثم يهبط فجأة كوادٍ عميق... لقد رأيت اللجج احياناً تعلو كعمالقة خرافية وهي تزمجر وتقذف السفينة بغضب طوفانها، كما رأيتها تهدأ وتهجع، وهي تغمغم وتمتد إلى ما لا نهاية،

مستويةً كفلاة من الزيت تلتمع عليها نجوم فوسفورية في ضوء القمر، وكأننا نمخر بحيرة شاسعة... ورأيت المحيط بروعته الحالمة المستحيلة، ورأيته بحقده الشرس الكاره، متذكّراً الكثير من الشعر الانكليزي الذي أوحته البحار للشعراء - ولا سيما قصيدة كولردج «البحّار القديم». وأنا أيضاً في أيام الأوقيانوس تلك كتبت قصائدي ونحن ننزل من شمال الكرة الأرضية إلى محاذاة خط الاستواء، إلى أن رسونا على الساحل الافريقي في لاغوس، بنيجيريا.

ورحلتي الثالثة بحراً كانت بعد ذلك بثماني سنوات، في الصيف الأسبق، عندما ذهبت الى باريس عن طريق مرسيليا قادماً من بغداد وبيروت. وكانت تلك عن حق «رحلة متعة» pleasure cruise، ولميعة تنتظرني ببغداد، وأنا امتحن عواطفي تجاهها طوال أشهر الصيف: أم أنها هي التي كانت تمتحن عواطفي وعواطفها معاً؟ وعودتي من مرسيليا بحراً إلى بيروت بعد ذلك كانت رحلتي الرابعة، والغريب أنني بقدر ما حملت من ذكريات متوهجة عن المتوسّط وموانئه في الرحلة السابقة، لم تخلّف رحلة العودة في البحر نفسه اية ذكرى حقيقية - اللهمّ إلا قضاء نهار متوهّج في جزيرة افروديت، قبرص - لسرعتها هذه المرة، ولأنني بتُّ لا أريد إلاّ الوصول إلى بغداد لرؤية لميعة دون غيرها.

وها أنا الآن في رحلتي الخامسة بحراً، وامرأتي أخيراً معي، وما همّني شيء آخر في الحياة. وقد أحسست، بابحارنا بمحاذاة السواحل، ونزولنا في الموانئ اليونانية، والإيطالية، والفرنسية، وأخيراً في ميناء جبل طارق، قبل أن ننطلق غرباً في المحيط الأطلسي نحو ميناء نيويورك، أن حياتنا، أنا ولميعة، تبدأ الآن من جديد، كما بدأت حياتي يوماً من جديد

عند ركوبي هذا البحر نفسه اول مرة وأنا في طريقي إلى الدراسة بانكلترا. هذه اذن بداية مرحلة لم تكن المرحلة الأولى، بكل تجاربها، ولذائذها، وآلامها، إلاّ تمهيداً لها. إنها ولادة ثانية، سوف تتحقق لنا فيها أعاجيب أخرى من التجارب واللذائذ والآلام، وكأن حياتنا الأولى ما وجدت إلاّ لتجعل هذه الحياة الثانية أغنى منها بكثير.

المدن الإيطالية التي رأيتها في أسفاري السابقة، بدت الآن أبهى وأغزر دلالة. قرون من التاريخ الحديث بدت لنا مشعّة بالكثير مما عرفناه في الفن، وقرأناه في الأدب الانكليزي، ونحن ننزل، وأحيانا نتريث، في باليرمو، ونابولي، وسورنتو، وجزيرة كابري، وجنوا، وليفورنو، وبيزا. وفي ليفورنو عاد إليَّ هوسي القديم بالشاعر شلي، وتخيلّته وهو يبحر بعيداً في زورقه «أرييل»، مليئاً بفورانات عواطفه وتفجّرات رؤاه، ليغرق في عاصفة هوجاء في زورقه وهو بعد في الثلاثين من عمره، في عمر يكاد يكون عمري، وتحمله الأمواج عودة إلى الشاطىء، حيث سيشرف صديقه بايرون على حرق جثمانه، ويزيد الحريق تأججاً بصب الخمر عليه كأساً بعد كأس، ويجد أن قلبه يعصى على النيران التي ما استطاعت أن تلتهمه! ما أجمل ذلك الساحل، وما أفسح ميادين المدينة، وما أرقّ هواءها حيثما تمشّينا أو جلسنا نستعيد تلك الأحداث!

من ليفورنو ذهبنا إلى بيزا، لرؤية كنيستها الرخاميّة المخططة وبرجها المائل، وصعدنا مئات الدرجات إلى قمة البرج حيث تتزاحم الأجراس. وتمنينا لو اننا نذهب من هناك الى البندقية، غير أن السفينة كانت ستتحرك في تلك الليلة من ليفورنو. واذا بذكر البندقية يثير لدى لميعة ذكرى جسر التنهدات فيها.

وفجأة سألتني: «ولكن هلم تعلم أين دار التنهدات؟»

فضحكت قائلاً: «مؤكدٌ أنها ليست في البندقية.»

– «طبعاً لا. إنها في بغداد، وانت لا تدري. في شارع الرشيد... إنها الدار التي كنت تسكنها.»

– «لا أفهم.»

– «كلما مررت مع صديقاتي بالدار التي توجد شقتك في أعلاها، كنت أصعّد النظر إلى نافذتك، وأتنهّد! لاحظت عاليه ذلك اكثر من مرة، فسمّتها «دار التنهدات»... وصرنا كلما مررنا بها، نتوقف لحظتين، ونتنهّد معاً...»

فهتفت: «الله! كنت تحبينني كل هذا الحب، وأنا لا أدري!» وقبّلت خدّها على رؤوس الأشهاد قبلة طويلة.

* * *

عند رسوّنا في نيويورك استقبلنا موظف من مؤسسة روكفلر، حاملاً باقة كبيرة من الورود البيضاء قدّمها إلى لميعة، وهنأنا بالزواج، وناولني رسالة من جون مارشل يرحّب بنا معاً. وحددّ لنا عنواناً في احدى مؤسسات جامعة هارفرد. نذهب إليه حال وصولنا الى كمبردج، لكي نبيت فيه إلى أن نجد لنا شقة للسكنى الدائمة. وبمساعدة الموظف، جُمعت أمتعتنا، وكان قد حجز لنا عربةً في القطار الذاهب بعد ظهر ذلك اليوم إلى بوسطن. ولم يتركنا حتى رأى القطار يتحرّك بنا شمالاً، بعد أن فصّل لنا المعلومات التي نريد، وزوّدنا بعدد من العناوين وأرقام الهواتف الضرورية.

حـال نزولنا من القطار في بوسطن، ونحن خـارجـان من المحطة، ووراءنا من يدفع حقائبنا على عربة، لاحظت أنّ قربنا رجلاً في حدود الخمسين، تبدو على وجهه، وعلى ثيابه الفاخرة، سيماء الثراء والهيبة، والى جانبه سيدة مترفة الثياب بشكل ظاهر، وحولهما من يحمل امتعتهما بعد نزولهما من القطار.

تقدّم الرجل من لميعة، ونحن نسير معاً، وزوجته إلى الجانب الآخر منه، وأخذ يخاطب لميعة بحرارة أدهشتني. لم أسمع ما قاله اولاً، ثم رأيته يأخذ بذراعها، ويقول لها: «لا تخشي شيئاً، يا حبيبتي. كل الترتيبات جاهزة... والسيارة في انتظارنا هناك...»

فما كان مني إلاّ أن «أنتع» ذراع لميعة من يده، وأسحبها عنه، وأقول لها بالانكليزية: «لا تصغي اليه! إنه مجنون.» ولميعة لا تفهم ما الذي يجري.

فانبرت إليّ السيدة، قائلة بغضب: «سيدي، من الصُدَف أن الرجل الذي قلت إنه مجنون، هو زوجي.»

فقلت محتدّاً: «مدام، اذا كان الرجل زوجك، فلم لا تبعدينه عن زوجتي؟»

لم يقل الرجل شيئاً، بل ابتسم، ولوّح بيده بلطف للميعة، وزوجته تجرّه من ذراعه، وتقول له: «انظر إلى أين أنت سائر، بحق المسيح!» وابتعدا نحو سيارتهما.

وانفجرنا أنا ولميعة بالضحك، وهي تقول: «لم نكد نخطو بعد على التربة الامريكيّة...»

تم لنا الاستقرار في مدينة كمبردج، ماساشوستس، في الدار رقم ٦٠ ايليري ستريت، التي يملكها أحد تجار الأثاث القديم، اسمه هنري فورنيير، وهوايته العزف على الكمان مع اثنين أو ثلاثة موسيقيين في شقته التي تحتل الطابق الأعلى من الدار: رجل تخطّى الخمسين، أقرب الى البوهيمية، هجرته زوجته، ولا يتدخلّ بشؤون الساكنين في شققه، التي يؤثّثها من متجره الذي يعجّ بصنوف الكراسي والأفرشة والمرايا القديمة. وما دمنا لا نشكو نحن من عَزْفه مع رفاقه على الكمان والتشيلو في عشه في أعلى الدار، فهو لا يعترض على أي صوت أو ضوضاء من شققنا، موسيقى كانت أو جدلا حاميا أو صراخاً في شجار.

والشقق سيسكنها، إلى جانبنا، وبوساطة منا، الدكتور سامي الشيخ قاسم وزوجته ميّ قفطان (وهما صديقان قديمان لنا من بغداد) - وينسجم الطبيب مع فورنيير في الحال، لأنه هو أيضاً هوايته العزف على الكمان، فيشارك ربّ الدار في «الرباعي الوتري» المؤلّف من هواة يجتمعون في غرفته كل بضع ليال - وبسيم حنّوش، الذي يدرس للدكتوراه في الاقتصاد، إضافة إلى طالبة امريكية تدعى كارول، وبجوارها طالب الماني الأصل يدعى هانس، متعلّق بها. وفي الطابق السردابي تقيم اختان شابتان كنديتان، خدومتان، اكبر متعة لديهما هو أن تدعى الواحدة منهما، ولا سيما ماريان، إلى فنجان قهوة عند أيّ من الساكنين.

كانت الشقق إجمالاً صغيرة، وبدون مطابخ. غير أن شقتنا تتألف من غرفة كبيرة واحدة، مع حمام، ومطبخ صغير بسيط التأثيث. ولكن عندما جوبهت لميعة بضرورة تحضير الطعام، تبيّن أنها لا تعرف كيف

تقلي بيضتين، ناهيك عن تهيئة الأرزّ والمرق. فراحت تسترشد بكتب الطبخ... والكنبة الزرقاء التي نجلس عليها في النهار - بالاضافة إلى ثلاثة كراسي كبيرة مريحة - تتحوّل في الليل، بفتحها، إلى فراش. إلاّ أنه فراش غير مريح. فكنّا ساعة النوم نرفع منها الحشايا والوسائد، ونرتبها على الأرض فراشاً عريضاً، كنا راضيين به في تلك الجنّة السحرية التي اقتطعناها أخيراً لأنفسنا من عالم جهم، مكتظ بالبشر.

ولا عجب! فقد سُعدنا بسرعة بعدد من أروع الأصدقاء، إضافةً إلى الذين جئنا بهم للسكنى في الدار، كتوفيق صايغ، ومنح خوري، وحسن زكريا، وكلّهم عزّاب، واثنين أو ثلاثة من طلبة الدكتوراه الامريكيين. وانخرطت أنا في بحوثي الدراسية مع عدد من أشهر اساتذة النقد في الأدب المعاصر، وزملائي معظمهم اساتذة وروائيون وشعراء.

ولم ننس، ولو لحظة واحدة، أيّاً من أعزّائنا وأصدقائنا الذين تركناهم ببغداد. وانتبهنا إلى ان النصف الثاني من عام ١٩٥٢ شهد لأفراد شلتنا جميعهم ما هو أشبه بالنهايات السعيدة التي نجدها، بوجه خاص، في كوميديات شكسبير، وقد أتت بالجملة، لتعمّ أشخاص المسرحية كلّهم، كلاً وفق ما يتمنّاه. فبعد الحبّ، ونزاعاته، واختلاط الأمور، وتهديدات البؤس والتعاسة، يغيّر القدر اتجاهه، فيُرضي هذا وذاك، وتبتسم الآلهة على حظوظ العشاق اثنين اثنين، قبل أن تنشغل بأناس آخرين وفي أماكن أخرى.

كانت ساهرة اول من تزوج من جماعتنا، وكان زوجها استاذاً مرموقاً في احدى الكليات. وبعد قليل تزوج الدكتور عصام من أنيسه

السعدون بعد رجوعها بأيام قلائل من دراستها الجامعية في امريكا، وأقيم لهما حفل استقبال كبير في نادي العلوية، حضرناه أنا ولميعة والأصدقاء. ثم تزوجنا أنا ولميعة زواجاً أشبه بالحكايات، وذهبنا بعده إلى لبنان، ثم إلى جامعة هارفرد: وهناك عرّبت روايتي الأولى «صراخ في ليل طويل»، وبين دراساتي النقدية وكتاباتي القصصية والشعرية الكثيرة، شرعت اكتب بالانكليزية روايتي الطويلة الأولى «صيادون في شارع ضيق».

وحسين هداوي، بعد أن رافقنا في السفر مع زوجته وابنته، عاد إلى جامعة لاس فيغاس ليحصل على الدكتوراه في أدب جيمز جويس، ويصبح استاذاً للأدب الانكليزي فيها.

وجواد سليم، الذي كانت زوجته لورنا حاملاً في اشهرها الأخيرة معاً، رزق بابنته الأولى زينب، ونحت في الخشب الساج تمثاله الكبير «الأمومة»، أحد أجمل وأقوى تماثيله، وانجز مصغّر «السجين السياسي» الذي سيكون به، بعد أشهر، أحد الفائزين الأوائل في مسابقة دولية بلندن.

واستقر الدكتور علي كمال، الى جانب عمله في كلية الطب، في عيادته الخاصة القائمة في قلب بغداد يومئذ، مشرفةً على ساحة الملك فيصل الثاني، وسرعان ما اشتهر كواحد من أبرز أطباء المدينة، ورزق بابنته الثالثة ليلى. وراح يتحدث حالماً، متحمّساً، عن سلسلة من الكتب سيبدأ يوماً بتأليفها، ويجعل عنوان السلسلة «أبواب العقل الموصدة». (وهو ما جعل يحققه على نحو علمي متميز بعد ذلك بثلاثين سنة.)

وفي هارفرد جاءتنا الأنباء الحلوة تترى: تزوّج حلمي من افلين دلالي، صديقة لميعة واستاذة علم النفس في كلية الملكة عالية، وذهبا إلى كركوك حيث تسلّم حلمي وظيفة رياضي ومهندس في شركة النفط، وسيترقّى بعدها عاجلاً ليصبح أخيراً مدير عام الشركة. وأخت افلين، وداد، تزوجت أحد اساتذة الأدب الانكليزي في دار المعلمين العالية. أما بلند الحيدري فنشر مجموعته الشعرية المهمّة «أغاني المدينة الميتة» مع المقدّمة التي كنت كتبتها لها عام ١٩٤٩، وتزوج من دلال المفتي، الآنسة الجميلة التي كنا قبل سفرنا قد التقيناها معه في منزل اخته ركزان في بغداد الجديدة، بعد تخرجها من الجامعة الامريكية ببيروت، وكلها إعجاب بقصائده، وسكنا في دار مقابل دار عدنان رؤف، قريباً من دار لميعة في شارع طه، التي سنعود إليها في شهر آذار من عام ١٩٥٤. وتزوّج عدنان رؤف من سميّة الخفاف، إحدى تلميذاتي المبرّزات في الكلية التوجيهية في العام الدراسي ١٩٤٨ - ١٩٤٩، وانتقل إلى العمل في وزارة الخارجية ببغداد.

وتلميذتي الوفية، هي أيضاً تزوجت في الفترة نفسها من شاب وسيم في مركز اجتماعي متميّز. وزميلتي روزمري بوكسر، الحسناء الانكليزية التي جاءتنا في تلك السنة من جامعة اكسفورد للتدريس معي في كلية الملكة عاليه، هي كذلك تزوجت: وزوجها هو الأخ الأكبر لصديقي توفيق صايغ - وكان من اصدقائي منذ أيامنا في القدس - وهو الدكتور يوسف صايغ، الذي كانت مهامه الاقتصادية تأخذه من بيروت بين حين وحين إلى بغداد، حيث التقى روزمري، وأحبها، وأخذها معه للاقامة الدائمة في بيروت.

وفي أثناء غيابنا في امريكا، نقل نزار سليم، في سياق عمله في وزارة الخارجية، إلى خارج العراق، وهناك تزوّج من آنسة المانية، شجعته على البدء بالرسم بالزيت والالوان المائية. وعدنان (المحامي) الذي نافسني عبثاً في لميعة لمدّة، فتصوّر أن عدم معرفة الانكليزية هي السبب في اخفاقه، حقق أمنية قلبه بأن سافر إلى امريكا لدراسة المزيد من الحقوق، وجعل عيشه الدائم هناك بعد أن تزوج من امرأة امريكية.

ولكن بقيت من جماعتنا امرأة واحدة لم تتزوج، رغم ثقافتها وجمالها الباهر وقوامها المشوق. لقد رفضت كل من تقدّم لها، لأن الرجل الوحيد الذي تمنّته زوجاً لها، تزوّج صديقتها.

وبقي رجل واحد أيضاً لم يتزوج: قحطان عوني، مع أننا كنا نتوقع زواجه من آنسة بصراوية جميلة، كانت معنا لعدة أشهر. غير أنه تباطأ، فاختطفها واحد من أقربائها. إلاّ أن قحطان بعد سنتين او ثلاث تزوج أخيراً من حسناء، بغدادية الأب وفلسطينية الأم، حال رجوعها من الدراسة بأمريكا - مليكة ابراهيم شوكت.

ولنا أن نزعم أنهم جميعاً عاشوا في سعادة وهناء، وحققوا الكثير من أحلامهم في السنوات التي تلت.

* * *

بعد خمسة اسابيع أو ستة من هذا النعيم، صعقنا ببرقية من والدة لميعة تعلمها بضرورة العودة حالاً، بسبب إخطار نشر في جرائد بغداد باسم وزير المعارف، يطالبها فيه بالعودة إلى وظيفتها في مدة أقصاها كذا يوماً، وإلاّ عُدّت مستقيلة، وعلى كفيلتها (والدتها) ان تدفع للخزينة

مبلغ أربعة آلاف دينار لقاء ما أنفق عليها في أثناء دراستها قبل سنتين أو ثلاث في جامعة وسكانسن. أي ان السيد الوزير غيّر رأيه فجأة بشأن غيابها (لمصاحبة زوجها)، الذي أدهشنا بالموافقة عليه في شهر آب، وسحرنا عندها بكرمه. ومن أين لأمّها، أو اي انسان آخر، هذا المبلغ الخيالي يومئذ، وراتب حامل الماجستير خمسة وعشرون ديناراً في الشهر، وراتب حامل الدكتوراه ثلاثون؟

وكان علينا أن نتدبّر أمرنا، ونرتّب عودة لميعة بالطائرة بشكل ما، وما لدينا من نقود لا يكفي أجوراً للسفر. ولو ان المشقة الحقيقية بالنسبة الينا كانت في الفراق القسري الذي فُرض علينا بغتة ونحن في الأوج من سعادتنا.

كنا نعلم أن ناثر العمري قد انتقل في تلك الأثناء إلى ممثلية العراق الدائمة في الأمم المتحدة، في نيويورك. ولما كانت سفرة لميعة تبدأ في نيويورك، رافقتُها إليها، ونزلنا عند ناثر ومي، وكان فرحنا عظيماً بتجديد اللقاء في منزلهما في شارع ريڤر درايف، على ضفة نهر هَدْسُن. وفي المساء أخذانا إلى مطعم «رينبو» (قوس قزح) المشهور، وهو في الطابق المئة من أعلى بناية في العالم يومئذ، امپاير ستيت بِلْدِنْغ. واذا بنا في المصعد بمعيّة شقراء جميلة طويلة القامة، ترتدي معطفاً فرائياً يلفت النظر، وأدركنا في الحال أنها الممثلة السينمائية المحبوبة دوريس داي. وبادلناها التحية، ولسان حالها يقول باعتزاز واضح: ما أروع أن تكون المرأة جميلة ومشهورة معاً!

في الصباح أخذنا ناثر إلى مكتب الممثلية العراقية في الأمم

المتحدة، وزرنا مبانيها، المتميزة بأسلوب عمارتها وتصاميم دواخلها، وتعرّفنا على أناس عديدين. غير أن لقاءنا بعطا عبد الوهاب، زميل ناثر في الممثلية، كان الأهمّ: فزوجته بتول صديقة لميعة منذ أيام الدراسة، إضافة إلى علاقات عائلية اخرى بينها وبين عطا. وقضينا الأمسية بضيافتهما، واخذنا عطا من مطعم فاخر إلى مطعم فاخر، مع الموسيقى والرقص، حتى ساعة متأخرة من الليل. وهكذا بدأت بيني وبين عطا صداقة حميمة كتلك التي بدأت بيني وبين ناثر، استمرّت طوال السنين، عبر تقلبّات الزمن، ولم تنته. وبقي كدأبه أبداً، يجمع إلى حماساته واهتماماته الفكرية، وشاعريته المتوفرة، تلك الروح الفكاهية المتألّقة التي تجعله، كلما اجتمع الأصدقاء على غداء او عشاء، المركز من حلقتهم بتعليقاته الضاحكة ونكاته المتواصلة.

* * *

وصلت لميعة بغداد في اواخر السنة، والمدينة تغلي بالاضطرابات السياسية، واضرابات الطلبة في الكليات والمدارس، بحيث لم تداوم في عملها إلا بعد اسابيع عدة. وكنا قد أحكمنا خطتنا: فالمئة دولار، التي راحت مؤسسة روكفلر تدفعها مخصصات شهرية للزوجة، كانت ترسل الى لميعة بانتظام، وما كاد حزيران ١٩٥٣ يطلّ حتى كان لديها ما يكفيها لأن تستقلّ الطائرة عودة إلي لنقضي بقية السنة معاً من جديد. يومئذ ذهبت مرة أخرى الى نيويورك، ونزلت في بيت ناثر ومي، وفي الصباح ذهبنا كلنا معاً إلى المطار لاستقبال لميعة في الطائرة القادمة من باريس. ولما نزلت درج الطائرة، وقد ارتدت فستاناً رائعاً يكشف عن نحرها وذراعيها، لم أصدق عينيّ: لقد كانت، وقوامها أشبه بقوام إلاهة بابلية،

أجمل امرأة بين كل اللواتي نزلن ذلك الدرج، بل كانت اجمل مخلوق بين كل الذين رأيناهم حشوداً في المطار. ولما عانقتها، شعرت أنني أعانق أشهى امرأة في النصف الغربي من الكرة الأرضية. ولم لا أقول في النصف الشرقي أيضاً؟

وبعد يوم أو يومين أسرعنا إلى شقتنا في كمبردج، ماساشوستس، وكأننا نحتفل بشهر العسل مجدّداً، والأصدقاء ينتظروننا، ونحن في كثير من الأيام، بين فترات الدروس وليالي السهر مع الكتب، نهيّىء لجميعنا، في مطبخنا الصغير، غداءً من افخاذ الدجاج المحمرّة في الفرن (وما أسهل ما نشتريها جاهزة للطبخ من السوبرماركت القريب)، أو من المجدّرة الفلسطينية التي علّمت لميعة كيف كانت أمي تطبخها.

شيء واحد رفضت لميعة أن تتعلمه، وهو كيف تغلي القهوة. كنت أنا دائماً من يحضّر القهوة، لي ولها، واخذتْ عليّ عهداً قاطعاً بأن أظلّ، ما دمنا على قيد الحياة، أغلي قهوتها وقهوتي كل يوم... وبقيت على عهدي طوال أربعين سنة كاملة، حتى النهاية.

* * *

عندما عدت في مطلع ربيع عام ١٩٥٤ إلى بغداد، كانت لميعة قد سبقتني إليها، ونجحت في مساعيها مع شركة نفط العراق في احتفاظ الشركة بشاغر في العلاقات العامة اراد لي ملأه فرانك ستوكس، الذي بقي على استحسانه الكبير لما يقرأ لي، ولا سيما بعد كتابة التعليق على فلم مايكل كلارك «الرافد الثالث»، قبل ذلك بأكثر من سنة ونصف السنة. كيف تضافرت الصدف الغريبة في عام ١٩٥٢ لتكون محصلّتها أن أعود،

فألقى عملاً ممتعاً، براتب جيد أتاح للميعة فيما بعد أن تترك عملها في التدريس، وفي جو متحضّر ساعدني على الاستمرار بنشاطي الفكري على هواي قرابة ربع قرن من الزمن...

وكان من اوائل من زارني في مكتبي بعد تعييني، عبد الحميد رفعت، خال لميعة، مستشار الشركة القانوني، وهو يقول مباركاً، وضاحكاً: «تزوجتك لميعة رغماً عن مشورتي، وتعيّنت أنت في الشركة دون مشورتي... أليس هكذا يكون الاستقلال؟» ونشأت في الحال بيننا صداقة شخصية وعائلية عميقة.

لقد هيأت لي لميعة حال عودتي ذلك الجو الرائق، المليء باللون والحركة والأناس الجميلين الذين نحبّ، وشعرت أن الحياة، رغم كل المشاقّ والمنغّصات التي عرفناها، والتي ما عادت تخيفنا كلما طرأت من جديد، أخذت تنبني على المزيد من الحب الذي نتنفّس به، وعلى المزيد من الثقة بمستقبل تستمر فيه وتتزايد الصداقات المتنوعة، بحيث يحقّ لنا أخيراً أن نفكّر بإنجاب الاولاد، مطمئنين ولو إلى زمن، إلى أن الأيام لن تغدر بنا أو بهم - وإن يكن ذلك أمراً أقرب الى الوهم.

وبالنسبة إليّ، كانت الكتابة، مع الرسم أحياناً، ضروريّة ضرورة الحب، ضرورة الصداقات، ضرورة الماء والخبز. وهذا كله كانت لميعة تعرفه، وتحرص عليه، وراحت دون أن تتحدث فيه توفّر جوّه لي، بتلقائية وذوق، مع كثير من التضحية. وبمطالعاتها الكثيرة بالعربية والانكليزية، وبنظرتها العراقية جدا من ناحية، والكوزموبوليتية من ناحية أخرى، جعلت تتابع كل ما اكتب وكل ما أرسم بعين ناقدة لا ترضى بسهولة، ولها دائماً رأيها المثير والمدروس.

كان بوسعها أن تكون شديدة الغضب على ما ليس يرضيها من أمرٍ أو أناس، رجالاً كانوا ام نساءً. غير أنها ما كبحت يوماً قدرتها على التسامح والغفران، جاعلة للحب دائماً المكان الأسمى في الحياة، يوماً بعد يوم، سنة بعد سنة.

* * *

ما تحدثت عنه هنا ليس إلا السنة العجائبية ١٩٥١ والسنة التي تلتها وماثلتها: سنتان فقط تحدثت عنهما هنا، وما أقل ما ذكرت، وبسبب أنواعٍ من الضرورات، ما اكثر ما أغفلت، وحذفت! وإلى ذلك، بقيت اربعون سنة أخرى تطالبني بالحديث عنها، وما كانت هاتان السنتان إلاّ البداية الرائعة لها، والمنطلق لحركة في الزمن أردنا لها أن تبقى دائماً على حفافي العجيب والمدهش.

في حقبةٍ أردنا شحنها بالخير والجمال، ما اكثر ما اختلط الشرّ بالخير، والقبح بالجمال، رغماً عن ارادتنا. إنها حقبة من أغرب حقب الزمن العربي المكتظ بالنقائض، وأشدّها امتلاءً بامكانات الفرح وتحقيق الذات، إلى جانب ما راح يتحقق فيها أيضاً من تشريد ورعب وقتل. وهل للحديث عن ذلك من نهاية؟ بعض الحديث وضعته، بشكل ما، في رواياتي، وبعضه جعلته مبثوثاً في دراساتي وحواراتي. ولكن معظمه سيبقى في انتظار من له القدرة والصبر والحب لاستقرائه من اوراق ورسائل ومصادر أخرى لا حصر لها - هذا إذا لم تبدّدها الزوابع، أو تغرقها السيول، فتبقى على نحو يمكّن الدارس من الرجوع إليها في يوم ما، في زمن قريب أو بعيد.

٢٧ شباط ١٩٩٤

المحتويات

مؤلفات جبرا إبراهيم جبرا لدى دار الآداب

- صيّادون في شارع ضيّق
- البحث عن وليد مسعود
- السفينة
- صراخ في ليل طويل
- عرق وبدايات من حرف الياء
- يوميّات سراب عفّان
- شارع الأميرات
- البئر الأولى



يتناول «شارع الأميرات» أحداث سنة أو سنتين من سيرة جبرا العراقية، أو كما يقول في نهاية ذلك الكتاب: «... ما تحدّثتُ عنه هنا ليس إلاّ السنة العجائبية ١٩٥١، والسنة التي تلتها.»، مشيرًا إلى علاقته بلميعة، زوجته، وتلك الأوقات الحافلة التي ميّزتْ هذه العلاقة منذ البداية حتى الختام. لكنّه يضعنا في قلب الحدث الأدبي والفني، ويعرفنا على أجواء وشخصيات كان لها تأثير بارز في مسيرة الإبداع في المنطقة كلّها، ويرسم طيفًا واسعًا من الآثار التي احتضنت تلك المرحلة، وأعطت نتائجها فيما بعد.

من مقدمة عبد الرحمن منيف

دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

ISBN 978-9953-89-004-3
9 789953 890043

تصميم الغلاف رنم الجندي